سيرة حياة شاعر

يوسف الشريف



كامل الشناوى

آخر ظرفاء ذلك الزمان


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

سيرة حياة شاعر

كامل الشناوى

آخر ظرفاء ذلك الزمان

يوسف الشريف



١٩٨٠

الإهــداء



كامل الشـناوي

بقلم : يوسف الشريف

الغلاف : للفنان شريف عليش

الاخراج الفني : عدلي فهيم



مقدمة

ليس كتابا وإنما مفاجأة

بقلم صلاح حافظ

لا اكاد اعرف اديبا او فنانا من جيلنا الحاضر غير مدين لكامل الشناوى !

لا اقصد بهذا الدين الثقافى وحده · وانما اقصد الدين بمعناه المادى ايضا · فقد كان كامل الشناوى حين يرعى موهبة جديدة يتحمل عنها جميع همومها : يشترى الكتب للأديب الناشىء ، يصحب الفنان الى الترزى يفصل له ثيابا افضل ، يخصص حجرة فى بيته لاقامة الشاعر الذى ليس له بيت ، ينشر للكاتب الجديد فى الصحيفة التى يعمل بها ويدفع له من جيبه دون أن يخبره بذلك ·

ولم يكن كامل الشناوى يكتفى بهذا ، وانما كان يعتبر رسالة حياته ارغام الدنيا كلها على الالتفاف للموهبة التى تحمس لها · فلا يترك سهرة ، او حديثا ، او اجتماعا ، الا ويحوله الى فرصة دعائية لصاحب الموهبة · ويكاد يقنع الجميع بأن الله لم يخلق مثله · ويبالغ الى حد ان يسجل بصوته قصيدة شاب مجهول ، لكى يسمعها لزواره كل يوم ، ويفرض عليهم ان يحفظوا اسمه ، فاذا ما لمع هذا الاسم ، وبدأ صاحبه يشق الطريق مستقلا ، تحول عنه ·· وتفرغ لموهبة جديدة !

ولا يمكن اليوم احصاء عدد النجوم المشهورين الذين بدأت اولى خطواتهم فى ظل هذا الطراز من الرعاية ، وكان كامل الشناوى هو الذى انقذ مواهبهم من الموت المبكر تحت وطأة العوز المادى ، او الاحباط والتجاهل ·

لا يمكن القيام بهذا الاحصاء ، لأن كامل الشناوى كان يكتشف موهبة كل يوم ، وكان انفه ، على حد تعبير يوسف ادريس ، يشم المواهب على مسافة الف ميل ·

وكان السبب موقفه الفريد من الأدب والفن · كان يعشقهما لذاتيهما · لا يحب شعره ، وانما يحب الشعر ، لا يتذوق ادبه ، وانما يتذوق الأدب ، لا يسعد بتفوق فنه فى الكتابة ، وانما يسعد بتفوق فن الكتابة ، وليس فى التاريخ اديب او فنان تجرد من الانانية مثله ، كأنه فى محراب الفن اختار دور العابد لا دور الكاهن ، وكأنما اختار سماء الأدب ، لا لكى يلمع هو فيها ، ولكن لكى يجملها بأكبر عدد من النجوم التى تزيد من رونقها !

ولا جدال فى ان كامل الشناوى قد دفع غاليا ثمن هـذا الموقف الصوفى فى عالم الثقافة .

فهو يوم مات لم يكن له فى الأسواق غير ديوان شـعر واحد (لا تكذبى) .. بينما كانت تغمر الاسـواق مئـات الدواوين التى اخذت عنه ، ونسجت على منوال اسـلوبه ، وشق اصحابها الطريق بفضل رعايته .

ويوم مات كان عدد كبير من كتاب القصـة ، والرواية ، والمقال ، وكتاب الصحافة ، يملئون اسماع العالم العـربى . وكان هو الذى فتح امامهم الطريق . بينما كانت قصـصه ومقالاته مبعثرة فى اربعة أرجاء الصحف المصرية .. لا يكاد يذكرها احد .

ويوم مات ــ فى ديسـمبر ١٩٦٥ ــ كتبت القول فى مجلة آخر ساعة : قد يهمل المثقفون مهمة تقييم ادب كامل الشناوى تحت تاثير وهم شائع ، هو ان كامل الشناوى قليل الانتاج . لكن الحقيقة هى ان هذا الإنتاج غزير الى حد يثير الدهشة . وليس من حق الحركة الثقافية ان تتجـاهله ، أو تهمل فى جمعه . فقد وزع كامل الشناوى انتاجه على الاف الصفحات المبعثرة فى الصحف كما وزع افكاره وثروته وكيـانه على مئات المثقفين والشعراء والفنانين . وقد نمت كافة البـذور التى غرسها فى غيره ، واثمرت ثروة ثقافية ضخمة . ولكن هذا التراث الذى زرعه فى حدائق الآخرين سيظل اصـحابه مدينين لاسـتاذهم . (ولن يردوا الدين) حتى يجمعـوا انتاجه ، وينسقوا حديقته التى تركها بلا رعاية . ويوم تجمع اعمال كامل الشناوى ، وتتجسد صورتها امام العيـون .. فسيتضح الى اى حد ينتسب الكثير من ادبائنا اليه ، ويلتقون فيه . تماما كما التقوا وراء جثمانه !

كتبت هذا منذ خمسة عشر عاما .

وحتى الآن لم يقم الجيل المدين لكامل الشـناوى بوفاء الدين . ولم تجمع بعد اعمـاله . ولم يجر لهـا تبويب أو تنسيق . ولم تصدر عنها دراسة !

العمل الوحيد الذى يمثل خطوة فى هذا الاتجاه هو هـذا الكتاب الذى يعتبر مفاجأة من كافة الزوايا ، وبكل المقاييس.

مفاجأة من زاوية اسم الكاتب : يوسف الشريف . وهـو من نجوم مدرسة « روزاليوسف » الصـحفية . ولكنه ليس شاعراً ، ولا اديبا . وفكرة جمهور القراء عنه انه محـرر تخصص فى الشئون العربية والافريقية ، وتخصص بالذات فى شئون اليمن واريتريا والسودان.!

ومفاجأة أيضا من زاوية الموضوع : فهو لايدعو القـارىء الى جولة فى تراث كامل الشناوى ، انما يدعوه الى جولة فى حياته . وهو لا ينقد قصائده ، انما يروى القصـص التى وراءها . وصفحات الكتاب تستدرج القارىء الى معايشـة كامل الشناوى ، والاستمتاع بسحره وجاذبيته الشخصية .. أكثر مما تستدرجه الى تذوق ثمار ابداعه !

ولكن هذه بالتحديد هى ميزة الكتاب ، وقيمته الكبرى .

فكامل الشناوى لم يبذل فى شـعره وأدبه غير جزء من طاقته الفنية . أما الجزء الأكبر فقد فضل أن يعيشه . وكانت حياته نفسها من اروع أبيات شعره . وكان انتـاج الذين رعاهم من أروع سطور أدبه .

واذا كان موضوع الأدب هو الانسان ، فان كامل الشناوى كان يعالج قضية الانسان مرة بالكتابة ، وعشر مرات بالتعامل المباشر والمعايشة . وادب كامل الشـناوى ليس الأدب الذى كتبه فقط ، وانما الأدب الذى عاشه .

وهذا الأدب كان صعبا ان يتصدى لتصـويره احد غير يوسف الشريف .

لا لأن يوسـف الشريف كان صـديقا مزمنـا لكامـل الشـناوى . ولا لأنه كان يقضى نصـف يومه على الأقـل بصـحبته . ولكن لأنه من نفس الطراز الذى « يعـايش » موضوعه ، وهو فى عمله الصحفى لا يحصل على مادته من خلال أسئلة ، او بيانات مكتوبة ، أو وثائق يحصل عليها .. وانما يذهب مباشرة الى ارض الموضـوع ، ويعيش فيها ،

وهو لا يحتفظ فى بيتـه بكثير من الكتب عن اليمن او اريتريا أو السودان • ولكنـه شهد حرب اليمن ، وعاش مع ثوار اريتريا ، وطاف بالسودان كله ، وتحليلاته لكل ما يجرى فى هذه المناطق اساسها التجربة المباشرة ، والمعرفة الشخصية بالقيادات والقواعد التى تصنع الأحداث •

وقد كان كامل الشناوى محتاجا الى رجل من هذا الطراز لكى يرسم لنا صورته ، كاديب من نفس الطراز •

أديب يعيش الأدب ، لا يكتبه فقط •

وكاتب يعيش موضوعه ، لا يقرأ عنه فقط •

اية صدفة أسعد من هذه الصدفة ؟ واى اتفاق اجمل من هذا الاتفاق بين الكاتب والموضوع ؟

★★★

ان هذا الكتاب كان ضرورة تاخرت تلبيتها • وصـدوره يفتح الباب لمن يريد من جيلنا أن يفى بدينه لكامل الشناوى ، ويجعل مهمتهم أسـهل •• لأنه يتيح لهم أن يفهمـوا العلاقة ما بين كامل الشناوى الذى كتب ، وكامل الشـناوى الذى جعلهم يكتبون •

وفى اعتقادى أن هذا الكتاب سـيستثير اقلاما اخـرى كثيرة ، تزود المكتبة العربية بكتب أخرى كثيرة •• تنصـف كامل الشناوى ، وتفى بدينه الذى طال تجاهله •

أما اذا صعر هذا الجيل من الادباء والفنـانين خـده ، وواصل المماطلة فى أداء الدين برغم هذا الكتاب •• فان ذلك لن يقلل من قيمته ، ولا من متعته •

ذلك ان القارىء الذى عرف كامل الشناوى على سـطور شعره ومقالاته ، سيعرفه الآن أكثر عل سـطور حيـاته • وسيحبه اكثر عندما يعايشـه ، وسيزداد فهما له ، وتذوقا لأدبه •• واستنكارا للذين حرموه خمسة عشر عاما ـ ومازلوا يحرمونه ـ من متعة التعرف عليه ، والاستمتاع بسحره الذى ذهب ، ولن يتكرر !.

صلاح حافظ



مدخل السيرة كان دائما خارج القوالب

يصدر هذا الكتاب بعد مضى خمسة عشر عاما على رحيـــل كامل الشناوى ...

ومن المؤسف حقا أن يتكاسل أصدقاؤه وتلاميذه والعارفون لفضله عن وضع الكتب والدراسات التى تعرض للجوانب المترامية فى سيرة حياته الانسانية والأدبية والصحفية . والتى لم تصـادف بعد حظها الذى تستحقه من التسجيل والتقييم .

لقد كنت واحدا من عشرات المئات الذين عرفوا كامل الشناوى عن قرب .. وأحبوه وأحبهم .

صحبته زهاء عشر السنوات الأخيرة من حياته فى عــوالمه المتلالئة وأجوائه الزاخرة . رأيته وهو فى قمة شـــهرته وابداعه وحركته ، وشهدت — بعد ذلك — مرحلة صراعه من أجل البقاء .. والحضور وكل شىء يفر منه . الصحة ، والمال ، والحب ولكنه ظـل حتى النهاية نابض الفكر ، مشبوب العاطفة ، متألق الموهبة ! وتابعت الموت وهو يحوم حوله ويرسم خطته باحكام . ثم ينفرد به داخل خيمة « الاوكسجين » وحيدا لاول مرة بلا صحبة ولا صخب وينقض عليـه وينال مأربه .

ولم تكن هذه هى تجربته الاولى مع الموت . فقد غاب عنـا بوعيه ورأى الموت رأى العين قبل وفاته بعام واحد . وعاد الى الحياة وهو يؤكد لنا أن ما حـــدث له ليس أكثر من « بروفة » للموت وأصبح اكثر يقينا بقرب النهاية . واستعد للدفاع أمـــام الله وأعد لكل سؤال جوابه . وكان راضيا وهو يودعنا . فقد أدرك أن سخاء عطائه لن يذهب سدى . وأنه سوف يظل باقيا فى قلوبنا بقدر عمله وابداعه وحبه .

وكان على حق فى رضاه وظنه . والا لماذا اذكره دائمـا . ولماذا يتذاكره أصدقاؤه وتلاميذه كلما جمعتهم مصادفات الحياة . يذكرون أيامه الحلوة ويستعيدون ذكرياتهم العزيزة معه .

وكأنما أصابنا كامل الشناوى جميعا بالعدوى . أصبحنا على شاكلته نتكلم كثيرا عنه . ونكتفى بالقليل المتواضع من الكتابة كلما

جاءت مناسبة ذكراه . ولم يقدم احد من الذين عرفوه عن قرب على عمل يخلد سيرة هذا الفنان الانسان حتى يعيش فى ضمير التاريخ .

ذلك أن أصدق الحديث عن انسان يأتى دوما بعد رحيله عن عالم الأحياء حيث ينطفىء بريقه ولايملك لنفسه أو لغيره ضرا أو نفعا ، وحيث لا يفيد الكذب ولا يجدى النفاق .

ان الجيل الجديد الذى سمع كامل الشناوى . وما كان له من شهرة وابداع . يكتشف انه لم يخلف وراءه سوى ثلاثة كتب فى الشعر والنثر والذكريات ، وانها لا تشكل فى مجموعها الصورة والحياة ، التى كانت لهذا الفنان المتألق ، بينما اكثر انتاجه وخلاصة تجاربه ، مازال مبعثرا فى صفحات الجرائد والمجلات التى عمل بها على مدى خمسة وثلاثين عاما متصلة ، وفى أكوام القصاصات التى سجل فيها اعمالا لم تكتمل وقد جمع منها شقيقه الشاعر مأمون الشناوى مؤخرا اربعة كتب رائعة هى : اعترافات ابو نواس وبين الحياة والموت ، والذين احبوا « مى » وأوبريت جميلة بوحريد وحبيبتى وهو مجموعة من رسائل الحب .. ولم يعن احد بجمع وتحقيق الكثير من كتاباته المبعثره هنا وهناك .. وبقى اروع هذا الانتاج واغزره حبيسا فى ذاكرة الكثيرين ممن رافقوه فى العمل وفى الحياة !

ذلك ان كامل الشناوى كان كتابا مفتوحا ومسموعا فى ابداعه وخلقه . وفى احاديثه وحواراته وسخرياته . ومقالبه المحبوكة الذائعة الصيت ، جديدا كل يوم ، متجددا فى كل لحظة ، بعواطفه المتاججة ونزواته المفاجئة !

على اننى بعد أن جمعت مادة هذا الكتاب ، من ذكرياتى وذكريات الآخرين وكتاباته وكتابات غيره عنه ، اشفقت على نفسى من المسئولية ، مسئولية ان اكتب سيرة كامل الشناوى العريضة المتعددة الجوانب ، بل اننى سحبت الكتاب من مطبعة روز اليوسف بعد أن تحول الى « بروفات » جاهزة للطبع عام ١٩٦٩ .

ومضت عشر سنوات كاملة وانا اتهيب المسئولية ، ثم وفيت بها على اقساط ، وكلما جاءت ذكرى وفاة كامل الشناوى ، رويت فصلا من ذكرياتى معه على صفحات مجلة روز اليوسف او صباح الخير .

وكان تصورى أن فصول الكتاب قد تكاملت بما كتبت عنه

وتشجعت على وضعه وتبويبه ، ولكن عندما اعدت قراءة الفصول التى نشرت منه ، وجدتها ناقصة ومبتورة وتحتاج الى مـزيد من التحصيل والجهد ، لسبر اغوار تلك الشخصية الفريدة التركيب .

ومن جديد بدات اجمع الكثير حول سيرة حياته من الذكريات وروايات الحفظة والاصدقاء والتلاميذ .

ولكنى غرقت بعد ذلك فى بحر متلاطم من المعلومات عن كامل الشناوى ، الوقائع بعضها مؤكد وبعضها تناقضت حوله الروايات ومن هنا كانت الصعوبة التى صادفتنى تكمن فى تحقيـق المعلومات والمواقف والروايات ، وتحديد الأزمنه والأمكنه ، والتثبت من الاسماء واغفال بعضها ، اما لدواع انسانية أو خشية طائلة القانون .

وواجهت بعد ذلك مهمة البحث عن المنهج المناسب لعـرض سيرة حياة كامل الشناوى ..

فى البداية اتجهت الى تسجيل ذكرياتى معه وافـردت لذلك جانبا من الكتاب . ولكننى لم أواصل هذا الاتجاه . فقد وجدت اننى برغمى سوف اتحيز لرؤيتى الخاصة وهى بالقطع محدودة بالفتـرة الزمنية التى عرفته خلالها . والتى لا تتيح وحدها الاحاطة بمختلف مراحل حياته وابعاده الانسانية المتعددة .

لقد وجدت ان مؤثرات بعينها لعبت ادوارها بشكل او بآخـر فى مختلف مراحل حياة كامل الشناوى ، وتتابع ظهور تلك المؤثرات وظلت تحكم سلوكه من الطفولة حتى آخر سنوات العمر .

البدانة — على سبيل المثال — لعبت دورا أساسيا فى تحديد معالم شخصيته وعكست مؤثراتها على مسار حياته كله . وكان فقد أحبائه وهو فى صباه وراء احساسه الشديد بمطاردة الموت له . والمراة كانت قضيته المحورية فى الصبا والشباب .. ومصدر احباطه العاطفى وابداعه الفنى معا فى الكهولة . و .. هكذا تدخلت تلك المؤثرات وغيرها فى موضوعات الكتاب .. وفرضت تقسيما خاصـا لفصوله وحددت منهجا نفسيا للسيرة .

فى الفصل الاول .. عالجت ظروف النشاة والتكوين فى القرية وعرضت لبداياته الاولى فى الصحافة ومجتمع القاهرة فى الفصـل الثانى ، ولان كامل الشناوى كان شاعر الحب .. تعرضـت فى الفصل الثالث للعلاقة بين الشعر وتجاربه العاطفيـة ، وكان الفصل الرابع اطول الفصول واغناها بالمعلومات والذكريات وقـد خصصته لمعالم الليل فى حياة كامل الشناوى .. ففى الليل عاش

معظم ساعات يقظته وعطائه . شعرا وحديثا ومرحا . وفي الليل كانت تستيقظ احـزانه وجاء الفصل الخامس متصلا بالفصل الرابع . ويعرض لذكرياته وثقافاته كمحدث وراويه ثم كان الفصل الاخير نهاية السيرة .. نهاية كامل الشناوى ونهاية عصره ..

واحسبنى وفيت كامل الشناوى حقه وحق التاريخ عليه . فان كان ثمة قصور فعذرى أننى اجتهدت ..

****

لقد كان بوسع كامل الشناوى أن يكتب ذكرياته وهو الـذى رثا نفسه قبل رحيله شعرا ونثرا ، وكان يعدنا بكتـابة ذكرياته السياسية عن مصر منذ الحرب العظمى الثانية ، ووعدنا ايضـا بكتابة مذكراته الشخصية منذ الطفولة الى الكهولة . واطمـان أصدقاؤه وتلاميذه الى وفائه بوعده . ولكنه خدعهم ورحل .. وخلف وراءه هذه المهمة الشاقة ، مهمة الكتابة عنه .

كان كامل الشناوى يقول « أفضل ان اكون لحنا فى الحياة ، ولا يشغلنى بعد ذلك أن يسجل اللحن فى نوتة يعاد عزفهـا ، أم يتلاشى ادراج الرياح والنسيان » .

يقول فى مقدمة كتابه « بين الحياة والموت » :

ـ أنا لا اجلس مع الناس لاقتل وقتى ، وانما اجلس معهـم لاخلق النبض فى حياتى ، والطريقة التى أدير بها الحـديث فى مجالسنا ، تشحذ خواطرى ، وتساعد افكارى على تدريب عضلاتى !

وكلما ساله أصدقاؤه وتلاميذه : لماذا لا تضع كتابا ؟ كان يجيب ساخرا : ان يقال لماذا لا يؤلف كتابا ، خير من أن يقال لماذا الف هذا الكتاب ، اننى فى الحقيقة أتهيب تاليف الكتب ، فكلما قرات ودرست ازداد احساسي بالجهل ، وهذا الاحساس بالجهل ، يشـعرنى دائما بخطورة المسئولية فى تاليف كتاب يحمل اسمى ، انها مسئولية لا يحتملها الا واحد يقوى عليها ، او واحد جاهل بها ، وانا لا اقوى عليها .. كما أننى غير جاهل بها .

لقد تاثر كامل الشناوى فى موقفه من وضع الكتب ونشر الشعر بالشاعر الفرنسى «بول فاليرى» وكان لاينشر قصائده . وكان يتركها على مكتبه ثم يعود اليها فينقحها ويهذبها مرات ومرات حتى يرضى عنها . وتاثر كذلك باستاذ الجيل احمد لطفى السيد . فهو لم يترك وراءه كتابا واحدا من تاليفه سوى آثاره التى ترجمها تلميذه الاستاذ اسماعيل مظهر ..

ولكن يبدو ان الحاح الأصدقاء والتلاميذ قد اصاب نجاحا فى اخريات ايامه . وجمع كامل الشناوى بعضا من مسودات قصائدة وذكرياته وخواطره ، والقى بها الى المطبعة مضطرا غير راض ، بسبب حاجته الماسة انذاك الى المال ، يستر به مظهره وكرمه الذى تعوده الناس منه ، أو عودهم عليه .

نعم .. لقد اصر كامل الشناوى أن يعيش الحياة فنا وفق اسلوبه ومزاجه الخاص . دون أن يعنيه فى قليل او كثير ان يبدع فنا يصلح للنشر والانتشار . اصر أن يكون هو نفسه ذلك الكتاب العظيم الذى ابدعه ..

****

كان عصرا كاملا ذلك الزمان الذى عاشه كامل الشناوى ، رجالاته الذين شهدوا اندلاع ثورة ١٩١٩ وهتفوا باسم سعد زغلول ، واستقبلوا ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وأيدوها وساروا فى ركابها .. عوالم ذلك الزمان السياسية والصحفية والادبية والفنية ، وملامحه الاجتماعية والطبقية .

ويذهب الرجال ، وكلما سقط واحد من جيله ، احس كامل الشناوى بدنو الاجل وتشبث أكثر واكثر بالحياة ، وكلما تبدلت عوالم وملامح القاهرة التى يعرفها ، كان يرصدها كانه رادار ، ولم يكن للتغيير والتطور الذى يحدث هنا أو هناك الا معنى واحد لم يكن يفصح عنه .. أن ذلك الزمان لم يعد زمانه .

اذكر فيما اذكر وكنا داخل سيارة الملحن الشاب بليغ حمدى ان طلب كامل الشناوى من بليغ ، وكان الليل فى ساعاته الأخيرة ، أن يتوقف عند كورنيش النيل أمام السفارة البريطانية ، ولم يناقشه كعادته ازاء رغباته ونزواته المفاجئة و « مع السلامة يابليغ .. اشوفك بكره على الغدا » .

اشعل سيجارة ، وتابط ذراعى ومشينا الهوينا فى شوارع جاردن سيتى نتسمع وقع اقدامنا ، وفى صوت متهدج بين النوم واليقظة سمعته يردد أبياتا لم اسمعها من قبل « لا تكذبى .. انى رايتكما معا .. ودعى البكاء فقد كرهت الادمعا .. » .

ولم ابد دهشة او استحسانا فقد كان غائبا بوعيه عنى ، وكنت أعرف ماتعنيه الأبيات الجديدة .. ذلك أن احداثها لم تكن قد بردت سخونتها بعد ..

ومرت دقائق من الصمت والترجل البطيء .. ثم سألنى فى يقظة : « ايه رايك لو غنت نجاة القصيدة دى .. ؟ » ..

وقلت بلا وعى : اختيار فى محله .

وضحك رحمه الله ضحكة باهتة مكتومة لها ماوراءها .. ثم زفر بصوت مسموع ضيقا والما ، وكنا قد اقتربنا من منزله العتيق فى شارع النباتات ، ودخل « الاسانسير » الصغير الذى لم يكن يسع سواه ، وما كدت أودعه حتى خرج منه ثم جذبنى بايماءة من ذراعه ، وفهمت ان رغبته فى العودة والنوم لم تات بعد و .. من حيث انتهينا بدأنا العودة الى شوارع جاردن سيتى .. وفى نبرة حزينة كقطع السكين قال فى تاثر بالغ : لم تعد القاهرة التى عـرفتها وأحببتها !!

ولم تفاجئنى الملاحظة ، فقد كان يعانى تقلبات الزمـــان وتطورات الأحداث من حوله ، وحاولت أن أخفف من احزانه فقلت : ولكن القاهرة تحبك باكامل بك .

قال : « لم تعد تحبنى الحب الذى احبها ، كنت دائنا لها ، أعطيها من عمرى وحبى كل يوم ، ولكنها اليوم مديونة .. اصبحت ضنينة العطاء »

ثم وكأنه يبوح بسر رهيب .. ضحك بصوت مسموع وقال : لقد اصبحت مناكفة تتهرب من دفع الحساب .. ها .. ها .. ها .

نعم .. كان ذلك احساسه الدفين بالزمن .. وكأنه المرآة فى حياته لا يستقر على حال ، ولا دوام له ولا امان .

وكان يحلو له أن يصحب اصدقاءه وتلاميذه الى حى السيدة حيث عاش شبابه واخصب سنوات حياته . فقط ليعرف كم تقدم به السن وكم شاخ عصره .. مسجد السيدة الذى كان يؤمه المئات اتسعت بناياته و اصبح يتسع للالاف . البيوت العتيقة فى جنينة « ماميش » وشارع « السد » ، انشقت الارض ونهضت مكانهـــا عمارات حديثة بلا روح ، برغم صخبها بالحركة والحياة ، البقالون والمكوجية وأصحاب المقاهى شابوا وانحنت ظهورهم ، ولزم بعضهم بيته ، وأكثرهم رحلوا الى العالم الاخر .

وتطوف الصور والذكريات فى رأس كامل الشناوى ، ونعرف من مقالاته وخواطره النثرية كم اثرت فيه زيارة الســـيدة ، وكم يشعر بأن ما فات لن يعود ، وأن ما بقى من العمر أقل مما مضى منـــه .. وذلك كان حاله مع قاهرته التى عاش فيها انطـلاقه العارم وعطاءه السخى وذكرياته التى تجل عن الوصـــف والحصر !

كان كامل الشناوى من أعلام عصره المتوهجين ، عاش عصره كاملا ، وارتشف رحيق مباهجه حتى الثمالة ، أبدع وأعطى فى اجوائه عملا وفنا وحبا . وعندما آن لنجمه ان يافل وتنطفىء جذوته ، كان عصره قد بدأ هو الاخر يدبر ، وكان زمان جديد يوشك أن يبزغ .

وفى هذا الزمان الذى تقطب فيه الوجوه بالقلق والهم وضجيج الحياة ، وتموت البسمة شهيدة على الشفاه ، وتفقـــد الضحكات صليلها العفوى الذى يفصح عن سرور القلب . يتذكره اصـــدقاؤه وتلاميذه ويقولون الحق : « لقد رحل كامل الشـــــناوى فى الوقت المناسب ، بعد أن أسدل خلفه ستائر زمانه » .

****

فى مقتبل شبابه الغض انجذب كامل الشناوى الى مجتمــــع الصفوة وعلية القوم ، وجذبهم اليه بشدة .. ورغم نشاته المحافظة وانتمائه الى رجال الازهر المعممين ، ورغم بدانته المفرطة التى لم تكن تنبىء عن مواهبه الخفية . الا أن الصدفة وليست الرغبــة افسحت الطريق أمام موهبته الشعرية وخفة ظله ، وكانت وراء ولوجه عتبات الشهرة ومحراب الفن وعالم الصحافة ومغـــانى العشـــــــاق !

نادم أمراء الشعر وطارحهم ، انفتحت له قصور البشاوات ، رافق زعماء السياسة وأعلام الوطنية ، نافس اقلاما راســخة ، وتنافس على قلمه أصحاب الصحف ، وسعى الى مجالسة رجال الدولة وأساطين الادب والفن والظرفاء .

واندلعت ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، وأدبر زمان الملكيـــة ، وانهارت صروح الاحزاب والصحافة الحزبية ، وخيل للبعض انه لم يعد لكامل الشناوى مكانا فى ساحة الثورة ، وأن حياته العريضــة الصاخبة لن تنسجم أو ينسجم معها العهـــد الجديد ، وهو المفكـر « الليبرالى » اللامنتمى ، والساخر اللاذع ، والفنـــان الطليق ، والعاشق المحلق كما العصفور الطائش الذى لا يستقر على فنن .

اين كامل الشناوى من قضية الالتزام بالثورة ؟

سؤال طرحه البعض ــ انذاك ــ من اصحاب القــــوالب المنطقية للالتزام ، ولكن هل تصلح تلك القوالب للتقييم والحكم على هذا الانسان الرومانسى والفنان المركب المتفرد التكوين ، هـل كان بالامكان ان يلملم كامل الشناوى شتات حياته وفكره واشواقه وان ينتظم نبض وجدانه وأحاسيسه ، فقط لمجرد ان يحبس نفســـه فى

شرنقة قالب من القوالب السياسية والفكرية الشائعة . لينال رضا وبركات هذا البعض ؟

وظلموا الرجل فى بداية الثورة وبكى لاول مرة فى حياته بكاء المظلومين ، وهو الذى لم تعرف عيناه سوى دموع الهجر والشوق والحب ، عندما تمكن اعداؤه من ان يدسوا اسمه فى قائمة الصحفيين والكتاب الذين تقاضوا المصاريف السرية ابان العهد البائد . وكاد يومها أن يتحطم ويتناثر شظايا .

كان حكما بالاعدام على كامل الشناوى ، واغتيالا مع سبق الاصرار لشخصه وتاريخه الوطنى الحافل ، ورفضت الرقابة أن يستانف الحكم وامتنعت الصحف عن نشر استنكاره للتهمة ، ولجا الى النائب العام الذى تحرك للتحقيق بالفعل ، وعندئذ فقط تراجع اعداؤه ، ثم تتكشف الحقيقة كاملة بعد ذلك امام المسئولين ، فكان اختياره رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية لسان حال ثورة يوليو ، ثم الانعام عليه بوسام الجمهورية اعتذارا كافيا رد اليه اعتباره وأيقظ روحه المتوثبة للتغيير ومواكبة الجديد .

لم يغير الحادث شيئا من حياة كامل الشناوى وسلوكه المنطلق وفكره الحر المتجدد ، وعواطفه العذرية الطائشة ، بل لقد اينعت « البراءة » اغصانا جديدة فى قلبه الاخضر ، وازهرت قريحته ، شعرا ونثرا رائعا فى الوطنية والحب ، وعاد الى اصدقائه وحوارييه ، يغدق عليهم ويجزل لهم العطاء من صحته وماله وفكره ، عاد ليحمل على كتفيه المزيد من اعداد المظلومين ، يبحث لهم عن العدل والانصاف ، عاد الى براعم الصحافة والادب والفن يفسح لمواهبهم مكانا على بدايات الطريق الصعب .

ويوما عقد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر اجتماعا بالقيادات الصحفية بعد فترة من تجربة تأميم الصحف ، وابدى ملاحظة عابرة فى سياق حديثه حول ارتياد بعضهم المنتديات وكفاتيريات ما بعد منتصف الليل !

ولم تمس الملاحظة غير كامل الشناوى ، فتلك كانت عادته فى السهر بعد أن يفرغ من عمله كرئيس للتحرير ، وقبع الرجل فى منزله يستقبل الاصدقاء والمريدين يؤانسهم ويتحاور معهم ، ويبث فيهم لواعج نفسه الكاسفة وخواطره الحبيسة، وظل على هذه الحال اياما ، يرفض الدعوات ويتجنب منتديات أهل الفن والادب والظرفاء.

كان يخشى على نفسه من لسانه ، ان ينفلت بالسخرية او

« القفشة » او النكتة . والتى تكمن فى براعتها ونكاتها وعفويتها افتك اسلحته في مواجهة الخصوم والمحن والازمات .

لم يكن كامل الشناوى مجرد صحفى او شاعر ، كان نظاما او تنظيما لحياة كاملة ينتظم فيها الراعى والرعية ، وكان الايقاع المسموع فى الحياة الصحفية والادبية والفنية .

ويوما بعد يوم احس الجميع بغيبته وافتقاده ، فلم تعد لسهراتهم وندواتهم مذاقها الحلو ، وربما خشيت « الاجهزة » من غيبته اكثر مما كانت تخشى من حضوره ، وربما أزعجتها عزلته بعد ان اصبحت حديث هذه المجتمعات وموضوع انتقادها واسفها وسخطها .

ولم تتاخر « البراءة » كثيرا ، زاره فى منزله مسئول كبير فى وزارة الاعلام ، جاء يفسر له ملاحظة الرئيس الراحل ، وكيف انها تعنى بعض الصحفيين الذين تلوك السنتهم أسرار الدولة ورجالها فى المنتديات والكفاتيريات ، ولم يكن كامل الشناوى ساذجا ولاغرا، فلم نسمع منه فى تلك الاماكن المفتوحة حديثا فى مثل هذه الشئون اللهم اذا كان جلساؤه من الأصدقاء القريبين واهل الثقة ، كان يحتبس مالديه من اخبار واسرار وآراء على مدى الاسبوع كله ، حتى تأتى جلسة المساء المعتادة من كل اربعاء بمنزل صديقه الصدوق مصطفى أمين ، وفى تلك الجلسة كان يلتقى بعدد من زملائه واصدقائه المتربعين على القمم الصحفية ، يتبادلون المعلومات والافكار ، ويرسمون معا الخطط والمواقف لمرحلة جديدة من العمل الصحفى . وسرعان ما تنعكس آثار تلك الجلسة فى شكل انتقالات الصحفيين والكتاب والمصورين والرسامين من مؤسسة الى مؤسسة ، بمرتبات اكبر او مواقع افضل ، وربما ظهرت قرارات جلسة الاربعاء فى حملات واخبار صحفية منسقة بين دور الصحف حول قضية اجتماعية او سياسية او ثقافية ، وقد يتم الاتفاق على تبنى موهبة واعدة ، والامثلة فى هذا الشأن كثيرة لعل ابرزها بين اهل الفن .. عبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة !

كان يرحمه الله ــ وقد ظل حتى النهاية ــ « الدينمو » المولد لتيارات متدفقة فى الحياة العامة ، والقاعدة التى تنطلق منها صواريخ النقد اللاذع والسخرية الموجعة .. فى مواجهة القيود التى تكبل الحرية بشكل عام وحريته الشخصية بشكل خاص ، وهكذا تقلبت حياته مابين تيار يخشاه ، وتيار لايفهمه ، وتيار يحبه ويفهمه .

لم يسع الى استرضاء تيار بعينه ، كان يعتقد أن سعيه لحماية الحياة التى تروقه أمر مشروع ، ولم يتلون الا بقدر حرصه على الحياة وبقائه وسط حلبتها ، وكان قادرا دوما على تلوين الحياة من حوله كما يحلو له ويهفو ، وكان رقيقا كالنسيم وقاسيا كالاعصار ، وكان يخطىء ويصيب .

كان كاللاعب المتمكن ، حاذقا لفنون اللعبة حتى لو تغيرت الملاعب وهوية اللاعبين والحكام ، كعازف ((السوليست)) المبدع المميز الأنغام ، كان كامل الشناوى بتكوينه التاريخى غير قابل للانصهار فى قالب ، ولم يكن يعنيه فى أصدقائه وتلاميذه أن يضعوا أنفسهم فى القوالب وأن يتبنوا الايديولوجيات ، كان يعنيه فحسب موقفهم الانسانى وجوهرهم الصافى وانتماؤهم الوطنى وايمانهم بالحرية والعدل ، وكان اقربهم الى قلبه من يستجيب للحوار الديمقراطى بلا عصبية أو تشنج وفكر مسبق ، وكان يقول دائما ((صديقى هو الذى لا يؤذينى)) .

ورحل عن عالمنا كامل الشناوى وطويت صفحات عصره .. وكان مشهد وداعه تجسيدا حيا لأبرز مواهبه ، إن تحب الناس ويحبك الناس ، فقد جمع خلف نعشه بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، بين المشاهير والصعاليك ، بين الاغنياء والفقراء . وبين الاصدقاء والاعداء !

لقد زرع فى كل منهم نبتة من شجرة حبه ، وقبسا من شعاع فكره ، وبسمة من شلالات ظرفه ، ومكرمة من بحر عطائه .

كان النعش يحمل كامل الشناوى ((الفرد)) الذى توقف نبضه ، ولكن الصدور من حوله كانت تحمل كامل الشناوى ((الكل)) وقلوبهم تنبض بحبه ، وبكيته فى تلك اللحظات ، ثم لم ابكه بعد ذلك ، فقد كان يكره بكاء الحسك والاشواك ، ولانه ظل حاضرا في ذكرياتى واوراقى ، تماما كما كان في حياته حاضرا فى ذاكرة وخيال أصدقائه وحوارييه حتى لو غابوا عنه شهورا وسنوات .

وعندما استعيد ذكرياتى معه ، اتمثله امامى ، صوته الرنان ، ضحكاته الراكضة ، سخرياته ، لماحيته ، تاملاته ، ابياته ، مقالبه ، وقد ابتسم .. وربما اضحك من اعماق القلب ، ثم يستغرقنى التأمل ، واترحم على كامل الشناوى وعلى زمانه .

الفصل الأول

إسم شهير.. وجسد بدين



● ظل كامل الشناوى حتى لحظات النهاية أسيرا لعقدة نفسية غائرة فى وجدانه ، عميقة فى مشاعره ، وان حاول دوما ان يسترها او يغلفها بالتأنق والتألق والكرم ، فعندما أشرف على الحياة يوم ٧ ديسمبر ١٩٠٨ ــ وليس عام ١٩١٠ كما هو شائع ــ بقرية « نوسا البحر » محافظة الدقهلية • كان شغل والده الشيخ السيد الشناوى أن يبحث له عن اسم لعظيم ذائع الصيت • واختار له اسم الزعيم مصطفى كامل ، تيمنا بوطنيته وكفاحه ، فى الوقت الذى كان شاغل والدته أن تخفى طفلها الوليد عن عيون المهنئات خوفا من الحسد •

كانت ضخامة جسمه فألا بالصحة ومظهرا للأبهة ، لكن ما ان شب الطفل عن الطوق حتى أدرك ان بدانته ملازمة له ومصدر للتعاسة ودافع للعزلة والانطواء .

اطفال القرية يتندرون ببدانته ويعيرونه بمشيته المتثاقلة ، وكان تارة يقاوم بذراعيه وتارة يقذفهم بالطوب أو بذلاقة لسانه ، وكانت أسرته تتدخل فى الوقت المناسب ، تهدىء من اضطراب طفلها ، أو تصلح ما افسده من علاقات مع أولاد الجيران ويوما بعد يوم ادرك ان السلامة والأمان فى الشارع الخالى من المارة ، والدكان الذى لايقف ببابه الزبائن ، والمقهى التى تفتقد الرواد !

وفى تلك السن المبكرة أيقن أنه مختلف عن اقرانه ، وان به نقصا ، والدته تشدد عليه بالتزام البيت فى اعقاب كل مشاجرة مع ابناء القرية ، ووالده ينصحه بالاقلاع عن ملاعبة الصغار ، ويفرض عليه القراءة فى مكتبته ، واخيرا تقرر أن يدرس فى البيت ، وجاء له أبوه بمقرىء يحفظه أجزاء القرآن الكريم منفردا ، دون بقية الأولاد الذين يتعلمون فى الكتاتيب ، وحالوا بينه وبين مواصلة التعليم بالمدارس الأميرية بعد اصابته بالحمى ، ونذروا طفلهم للأزهر لعل الله يكتب له الشفاء والعافية !

وهكذا عاش كامل الشناوى طفولته وصباه أشبه بجزيرة ثقافية ودينية مغلقة

على نفسها ، بينما حوله ستة من الأشقاء منطلقين فى عوالم الرياضة والقوة والرشاقة بينهم مامون الصحفى والشاعر يمارس حمل الأثقال ، وعبد الفتاح ملاكم ولاعب كرة وحامل اثقال ايضا ، وعبد الرحيم اصبح فيما بعد حارس مرمى نادى الترسانة ، واحمد ملاكم . اما هو فقد اعجزه تكوينه الجسمانى المترهل عن المشاركة فى اى من هذه الرياضات ، اللهم اجادة لعب الطاولة والورق ، وعندما الح عليه اخوته ذات يوم ان يتعلم ركوب الدراجة ، وافقهم على مضض ، ولكن العجلاتى لم يوافق بعد أن تأمل بدانة الزبون .

يحكي الأستاذ محمد التابعى ــ يرحمه الله ــ كيف تعرف على كامل الشناوى لأول مرة ، يقول :

« نشأنا كلانا فى قرية « نوسا البحر » وكان والده قاضيا شرعيا لمحكمة مركز (اجا) ، رايته يلعب فى الساحة الواسعة أمام منزل خالتى ، وكان زوجها عم والدة كامل الشناوى ، كان كامل يرتدى جلبابا وقد أخفى أحد ذراعيه داخلها ، فبدا كمه الخالى ، وكأن بذراعه شيئا ما يثير الفضول او الشفقة ، وكان الأطفال يلعبون حوله ويتصايحون ، وهو يحاول جاهدا ان يمسك بهم ويوقعهم على الأرضويضربهم ، وناديته ــ وكنت أكبره بنحو ثمانية اعوام ــ واقبل على بدون تردد .. واذا به يبادرني بالسؤال :

ــ انت اسمك محمد التابعى ؟

قلت : نعم

قال : عاوز ايه ؟

قلت : لماذا تضرب أصدقاءك الأطفال ؟

قال : كيفى كده .

وسكت لحظة وكانما ادرك ان رده غير مقنع وقال :

ــ انا باضربهم علشان بيعاكسونى ويقولولى يا تخين !

قلت : ولماذا تخفى أحد ذراعيك داخل الجلباب ؟

ضحك وقال : يمكن يفتكروا ذراعى مقطوعة أو مكسورة أصعب عليهم ومايخدوش بالهم من تخنى .

على أن طفولته التى عاشها فى عزلة وانطواء رغما عنه مكنته من أن يتميز عن اشقائه واقرانه ، فقد اتى على الكثير من المؤلفات المتنوعة الثقافة فى مكتبة والده . وكان رجال الدين فى ذلك الوقت اهل علم وثقافة وسعة اطلاع . فضلا عن حفظه للقرآن وقراءة الشعر فى سن مبكرة ، واكتشف فيهما عالما من الخيال والأخيلة والصور ، وحاول أن يجرب الشعر ، ونظم الشعر وهو فتى له بعض تجارب الحياة ، وحبب لأشقائه الشعر ونظمه ، فأصبحوا جميعا شعراء ، وان لم يلمع منهم بعد ذلك سوى مأمون الشناوى الشاعر الغنائى المعروف .

على أن تعاسة كامل الشناوى من بدانته المفرطة ، وما سببته له من سخريات ومتاعب وآلام ، صقلت فيه موهبة السخرية والدعابة وحب المقالب .. لم يجد فائدة من المقاومة فاستسلم لبدانته وتعايش معها ، ولم تفلح معه نصائح الأطباء باتباع « رجيم » معين والابتعاد عن اكل الدهنيات والنشويات والمخللات، فاقبل عليها فى نهم عملا ببيت الشعر القائل « وداونى بالتى كانت هى الداء » .

يحكي شقيقه مامون كيف كان يحبب اليه ولشقيقته عائشة لعبة « الوابور » : كنا عندما نوافق على ممارسة اللعبة معه ، يصعد الى « السندرة » حيث تحتفظ والدتى بخزين البيت لاحضار جوال يضع فيه نفسه ، ثم نسحبه منه ونحن نردد صوت

وابور السكة الحديد : توت .. توت .. وتطول غيبته فى « السندرة » ونصعد اليه ، ونكتشف أنه مستغرق فى التهام تدور المخللات من لفت وخيار وبصـــل . وفى بعض الأحيان كان يغافلنا ويملأ جيوبه بالمخللات وينزل سريعا من « السندرة » ويدخـــل الجوال ونبدأ اللعبة ، ونسمع صوته وهو يأكلها ، فاذا سألنا : ما هـــذا الصوت ؟ .. أسرع يقول : ده فحم الوابور بيتحرق !!

واذكر أنه طلب جبنا وكنا نسهر فى شقة احسان عبـــد القـــدوس بالزمالك ، واحضرت له مدام احسان طبقـــا كبيرا من الجبن الأبيض اتى عليه وحده ، وعـــاد يطلب المزيد ، وتناول ليلتها أكثر من كيلو ونصف رغم تعليمات الاطباء المشـــددة بالامتناع عن الجبن ، اثر الوعكة الصحية التى ألمت به شتاء عام ١٩٦٤ .

يومها تشوق كامل الشناوى الى وجبة عدس ، ويومها انفتحت شهيته عـــلى مصراعيها واكل ملء « حلة » كاملة من فتة العدس ، ووقع مغشيا عليه وتحشرجت انفاسه ، ونقلوه الى مستشفى قصر العينى بين الحياة والموت ، وقال الدكتور أنور المفتى ـــ يرحمه الله ـــ ان الأمل فى نجاته لا يتجاوز خمسة فى المائة ، ولكن ارادة الحياة فيه انتصرت على هجمة الموت ، ونجا من الأزمة باعجوبة ومعجـــزة ، وفى مستشفى الكاتب جمع له أصدقاؤه ثلاثة من أساطين الطب آنذاك ، الدكاترة صـــلاح عبد النبى ، ومنصور فايز ، وعبد الله الكاتب ، وطالت غيبته فى المستشفى ٢٤ يوما فى الفحص وصور الاشعة والتحاليل ، وعرفنا بعد ذلك انه يعانى من امراض الالتهاب الرئوى والسكر والكبد وتسمم الدم ، وأن عليه مواصلة العلاج والراحـــة فى منزله وانقاص وزنه ما أمكن والاقلاع عن كل ممنوعات الطعام .

ولم يطل به الرقاد فى منزله ، وعاودته روح الانتقام من بدانـــته بالاسراف فى الطعام والممنوعات ، وحمل جسده المترهل بأكثر مما يحتمل ، حركة وصخبا وسهرا .

كانت علاقة كامل الشناوى بجسده ، تشبه الى حد كبـــير عـــلاقته بالمرأة وبخصومه الألداء ، فكلما فقـــد القدرة واعيته الوسائل فى التقرب الى امراة ، لجأ الى التوافق أو الموافقة على سلوك المحبوبة ، وصداقة أو معايشة الخصـــوم ، وقد عايش ـــ يرحمه الله ـــ بدانته طفلا وصبيا معـــذبا ، وكره الأزهـــر والكاكولا والعمـــامة ، لأن بدانته فرضت عليه هذا اللون من التعليم وهذا الزى الذى يكبل حريته وانطلاقة الفنان فى أعماقه . ولم يكن يستطيع بالطبع وهو فى تلك السن أن يعلن كراهيته ورفضه للزى الذى يرتديه المشايخ الفضلاء أمثال جده وعمه ووالده !

****

● استقر كامل الشناوى أخيرا فى السيدة زينب بعد جولة من التنقلات مع والده فى بلاد الدلتا والصعيد ، حيث رقى الى منصب نائب رئيس المحكمة العليـــا الشرعية بالقاهرة . لكنه لم يصحب والده فى كل تنقلاته . فضل أن يظل معظم الوقت فى قريته . بعد أن توثقت علاقاته بعدد من الفتية والشباب الظامىء الى المعرفة والأدب. وكان من بينهم الشعراء الدكتور ابراهيم ناجى شاعر الاطلال وعلى محمود طه شـــاعر الجندول وصالح جودت ومحمد التابعى والشاعر م . ع . الهمشرى صديق طفولتـــه فى القريه والتى قال فيها :

منك الجمـــال ومنك الحب يا « نوسا »
فعـــلم القلب ، ان القلب قديشـــا

وظل يتردد على الندوات التى كانوا يعقدونها فى مقاهى المنصورة خلال الاجازات الصيفية يتحاور معهم ويتبادل المعرفة ومطارحة الشعر .

استأجر الوالد بيتا فى « جنينة ماميش » يطل على شارع السد ، ووافـــق أن

يستقل ابنه الاكبر بغرفة خاصة ، حتى يتفرغ للدراسة بالازهر ، ولكن الفتى كامل ـ بعد ثلاث سنوات ـ ضاق ذرعا بالازهر ، بحلقات الدرس الرتيبة فى الصحن ، بالكتب الصفراء وعباراتها المتحجرة وأفكارها العجوز •• وقرر أن يهجر الازهر وزى الأزهريين الى غير رجعة وأن يرتدى زى أصدقائه الجدد فى السيدة زينب •• البدلة والطربوش •• وعندما لاحت أمامه الفرصة ، أحس كامل الشناوى أن بدانته ليست بهذه الصورة من القبح ، فلم يعد أحد يعيره أو يسخر منها ، ولكن هل نسى كامل الشناوى عقدته ؟ وهل تبددت آلامه المتراكمة من جراء بدانته ؟

يحكى الكاتب الصحفى الاستاذ حافظ محمود ، طرفا من ذكرياته عن مرحلة التحول الجذرى فى حياة كامل الشناوى بعد أن استقر به المقام فى حى السيدة زينب يقـــــول :

« كان بيننا على عهد الصبا الباكر مناقشات حادة ، غير جادة ، حول ســـؤال عجيب هو : « أيهما أكثر ضخامة بين فتيان الحى ، أهو ابن الشاعر الهراوى أم ابـن الشيخ الشناوى ؟ لقد ظللنا مختلفين فى هذا الامر ، حتى سمعنا نكتة حافظ ابراهيم عن ابن زميله الشاعر محمد الهراوى حين قال له : يا محمد انا شفت النهاردة دار الكتب واقفة جنب ابنك » •• وبهذه النكتة ضاعت زعامة الضخامة بين فتيان الحى من كامل الشناوى ، وكان القدر أراد أن يزيل عنه تهمة البدانة الثقيلة ، فاذا به يشق طريقه فى الحياة وثبا !

لقد عالج كامل الشناوى هذه الازمة بالشعر ، فاكتشف أنه شاعر ، لكـــن من الذى كان يصدق أن هذا الفتى ابن الخامسة عشرة من عمره يقول شعرا ، ذلك أن فتيان الحى كانوا يتهمونه بأنه ينسب شعر الغير لنفسه ، وانتهى الجدل حول هـــــذا الموضوع بتحكيم الشاعر محمد الأسمر ، والذى شهد لكامل شهادتين ، واحدة بأن هذا الشعر له ، وأخرى بأن شعره من النوع الجيد •

ملأته الشهادة حماسا ، ولدت فيه تيارا قويا استنهض اراداته الى تحقيق ذاته ، وتشجع ، وبعث بقصائده الى أكثر من جريدة ومجلة تعنى بنشر الشعر ، لكن أيا منها لم يعن بهذا الاسم المجهول فى عالم الشعراء ••

يقول كامل الشناوى : « كان المشرف على الصفحة الأدبية فى جريدة الأهرام ممن يطربون للألفاظ الغريبة الميتة مثل •• كجلمود صخر حطه السيل من عل •• وأشياء من هذا اللون ، ولم يكن يستسيغ أبدا هذه المعانى الجديدة •• ولا هذه الرقـــة التى اخذت تسيل من شعر شبان هذا الجيل » •

وفكر كامل الشناوى فى وسيلة يقنع بها الاستاذ المشرف على الصفحة الادبية بأن شعره يستحق النشر ، ووجد الوسيلة الوحيدة فى ان يحبك له « مقلب » فيـــه كل الاحتجاج ، وكل السخط ، وكل الثورة التى تعتمل فى نفسه .. ذلك أن شهادة الشيخ الاسمر بأنه شاعر ، وشاعر جيد ، كادت تصبح شهادة وفاة لشاعريته وجمال شعره ولم يكن هناك طريق سوى تأكيد ذاتيته كشاعر موهوب فى الصحافة وعلى أوســـع نطاق !

كتب قصيدة من نوع :

سـلاما صباحا لايعم ولا يجـرى
ولا ألـما بهـا نفسى ولا تـدرى

وجاءت القصيدة نموذجا للشعر الذى كان يعجب المشرف على الصفحة الادبية ثم ذيلها بامضاء مشـــهور كان آنذاك له شـــان وشنشان من الشهرة والانتشـار ، وطوى القصيدة ، وسلمها بيده للمشرف على الصفحة الادبية بعد أن قدم نفسه إليه على



أنه موفد من الشاعر الشهير .. و .. كانت فضيحة ، وتشاء الظروف والاقدار ان يصبح كامل الشناوى فيما بعد مشرفا على الصفحة الأدبية بالاهرام ، فكان يحرص على نشر شعر الشبان وكان يجنبهم الكثير من الصعوبات التى اعترضت طريقه يوما ما ..
وفى عام ١٩٣٠ فوجىء بنشر قصيدة له فى مكان بارز من صحيفة « البلاغ » ، ولم تسعه الدنيا فرحا ومرحا وثقة بالنفس ، لقد نال الشهادة الصحفية على شاعريته ، وذهب لمقابلة الاستاذ ابراهيم المصرى المشرف على الملحق الادبى للبلاغ وقدم له نفسه وشكره ، واذا به يستقبله بالحفاوة والتقدير ويطلب له كوبا من الشاى ، وقال له : شوقى بك أمير الشعراء كان فى زيارتى بالامس ، وابلغنى أنه قرأ قصيدتك وأعجب بها كثيرا وطلب منى أن أعرفه بصاحبها ، ولم أكن أعرفك أو إعرف عنوانك !
وساله كامل الشناوى فى لهفة : يطلب معرفتى ؟
وقال له ابراهيم المصرى : نعم وتستطيع أن تقابله فى منزله بالجيزة أو بمكتبه فى شارع جلال خلف سينما كوزمو بعماد الدين ، وسوف تجده فى انتظار هذا اللقاء .
غادر كامل الشناوى جريدة البلاغ وهو يبكى طربا ، فلقد أصبح له شأن ما . ولم يعد مجرد شاب بدين يلفت النظر ويثير السخرية ، غير انه لم يجد فى نفسه الشجاعة أن يذهب الى لقاء شوقى بك وحده ، وتوجه الى « نادى الشطة » وهو أسم كان كامل الشناوى قد أطلقه على عربة عم اسماعيل الرابضة فى ميدان السيدة ، حيث اعتاد وأصدقاؤه كل مساء تناول أطباقه الشهيرة من الكبدة بالشطة وسلطة اللبن ، وطلب طبقا وأكله ، وكرر الطلب ثلاث مرات وأصدقاؤه فى دهشة من أمره .. ثم افضى اليهم بالخبر السعيد .. وهم بين مصدق ومكذب ، وبدءوا ينظرون اليه فى حسد شـــديد واحترام شديد ، اذ كيف لم يكتشفوا من قبل أن بينهم هذا الشاعر الموهوب الذى ينتظره شوقى بك ..
وقال له الشاعر محمد الاسمر : هون عليك الامر . تعال معى لمقابلة شوقى بك فى مسرح الازبكية غدا .
وذهبا معا الى هناك واصطحب كامل معه يوسف حلمى المحامى ودخلوا المسرح ، وشاهدوا شوقى بك يشير ببعض ملاحظاته على بروفات مسرحيته مجنون ليلى . وكان يقف حوله مخرج المسرحية وفاطمة رشدى وأحمد علام وزكى طليمات .
ولمحه زكى طليمات فأقبل عليه واصطحبه من يده وقدمه الى شوقى بك : تلميذى كامل الشـــــناوى .
وأبدى أمير الشعراء دهشته وقال : ولكنى عرفتك شـــــاعرا .. فما علاقتك بالتمثيل ! ؟
وروى زكى طليمات القصة ..
كان كامل الشناوى قد وقع خلال تردده على دار الكتب على مؤلفات عن فــن المسرح ومسرحيات مترجمة عن الفرنسية والانجليزية ، وبهره فن المسرح وأدب المسرح وبدأ يتردد على مسرح الازبكية وعماد الدين وروض الفرج مع يوسف حلمى ومحمود المليجى الذى أصبح فيما بعد ممثلا شهيرا ..
وكون كامل الشناوى مع اصدقائه « جمعية المسرح » وكان هو المؤلف والمخرج. وقدمت الجمعية أول اعمالها على مسرح « برنتانيا » بشارع عماد الدين عـام ١٩٢٥ ودعى زكى طليمات لحضورها .
ولان كامل الشناوى معمم . وعائلته الدينية المحافظة تأبى على ابنها ان يمتهن « التشخيص » حيث لا تقبل المحاكم شهادة الممثل . لذلك اكتفى بدوره فى متابعـــة المشاهد من وراء الكواليس .
ولكن حدث اثناء عرض الرواية أن تغيب الممثل الذى يقوم بدور القاضى . والح

عليه زملاؤه أن يحل مكانه . وجلس على خشبة المسرح فوق كرسي القضاء .. وصفق له الجمهور طويلا لضخامته وزيه الأزهري • ونجح نجاحا كبيرا في اداء الدور .. فلم يكن يتطلب منه سوى هيئة المظهر وهز الراس في وقار ثم النطق بالحكم !

وضحك شوقي بك للقصة .. وتأمل كامل الشناوي لحظات ثم قال له : عندما قرأت قصيدتك تخيلتك شاعرا نحل العشق جسده .. ان من يقرأ شعرك يظن انك شاب اضناه الهوى . ولكنك ـ ماشاء الله ـ ضخم جدا في حجم الفيل .

وكانت هذه هي الملاحظة العابرة الوحيدة والأخيرة . التي أبداها شوقي بك ازاء بدانة كامل الشناوي . فقد طغت موهبته وخفة ظله وحضوره الانساني على بدانته وبدأت عذاباته المؤرقة ومعاناته الطويلة تتلاشى شيئا فشيئا في صحبة شوقي بك وتشجيعه لـه .

فتح شوقي صدره للشاعر الشاب .. وضمه الى صالونه الادبي في منزله المعروف بكرمة ابن هانيء وكان يحلو له أن يسمع قصائده بصوت كامل الشناوي الرنان والقائه الرائع الواعي للمعاني والمواقف • تماما كما كان يحلو له سماع غناء محمد عبد الوهاب وصوته العذب وكانت الموهبتان تتنافسان وتتبادلان التألق في منتدى كرمة ابن هانيء • ويوما طلب منه أمير الشعراء أن ينوب عنه في القاء قصائده في الحفلات • وكان كامل الشناوي يعتذر ويقدم له يوسف حلمي وقال شوقي :

ـ أنا لا أحب الممثلين وهم يلقون شعري خارج المسرح •

فقال كامل الشناوي :

ـ ولكن يوسف حلمي محام وليس ممثلا ..

واصر شوقي بك على أن يلقي كامل الشناوي قصيدته في حفل تأبين الزعيم الليبي عمر المختار وكان الايطاليون قد القوا به من الطائرة وقد بلغ من العمر ٩٠ عاما وهو يكافح استعمارهم لبلاده . ورثاه شوقي بقصيدة حماسية مؤثرة .. واضطر كامل الشناوي تحت الضغط الادبي أن يقبل القاءها • ولكن الظروف أنقذته عندما قررت السلطات الغاء الاحتفال في آخر لحظة .. ولو ان كامل الشناوي القى تلك القصيدة . فربما تحول الى مجرد راوية للشعر وليس شاعرا متميزا له مدرسته وأسلوبه وتجربته الخاصـة .

* * * *

● الشعر اذن كان طريقه الى الحياة والى الناس . بعد سنوات ثقيلة من العزلة والانطواء • ولم ترض طموحاته أن يصبح شاعرا فحسب ، فقد تداخلت عوامل ووقائع بعينها في حياته كانت وراء انقطاعه عن مواصلة الدراسة بالازهر بعد ثلاث سنوات متصلة . وكانت وراء رفضه اكمال دراسته للحقوق في فرنسا والالتحاق بالسربون . وكانت وراء ولوجه عتبات الصحافة وتألقه الاجتماعي !

كانت لكامل الشناوي آنذاك مجموعة من الصداقات المتجانسة • كانوا يترددون على الشاعر الأزهري الشاب في غرفته الخاصة بمنزل العائلة بشارع السد وتحولت تلك الصداقات الى شلة . وتحولت الغرفة الى ندوة يومية في الادب والفن والسياسة وحوار الظرفاء • كان من بينهم الشيخ محمد الترزي والشاعر عبد الحميد الديب والشيخ خاطر المحامي الشرعي وفتحي رضوان واحمد حسين ويوسف حلمي ورياض السنباطي ومحمود الشريف وحافظ محمود ومحمد نزيه ومحمد علي غريب ومحمود المليجي والاطباء سويدان وعرفان والشرقاوي .

ووسط هذه الشلة المتكاملة المعارف ، المتوثبة الشباب ، لمعت موهبة كامل الشناوي كمحدث لبق ومحاور بارع وصاحب نكتة غاية في الظرف والطرافة • ولكنه

خارج نطاق الشلة ـ كان ينتابه شعور دائم بأنه مقيد الفكر وهو في زيه الأزهـــرى كان يشعر بأنه وهو فى هذا الوضع الدينى لا يستطيع ان يعبر عن شـــكه فى كثير من المعتقدات والمسلمات . وكان اذا تكلم فى الفن او الغناء أو التمثيل تصاحبه نظرات الاستنكار ٠٠ اذ كيف تأتى هذه الاقوال والافكار من شيخ معمم ؟! وكثيرا ماترامت الى سمعه همساتهم : « صدق الى قال يخلق من ضهر العالم فاسد ! » ٠٠

وجاءت لحظة الانفراج لأزمته ومشاعره المكبوتة وأفكاره الحبيسة بعد انضمامه الى الحزب الوطنى الذى يحمل كامل الشناوى اسم مؤسسه الزعيم مصطفى كامل ٠ حيث بدأ يمارس دوره السياسى فى ساحة الشعر .
كتب قصيدة وطنية وذهب بها الى جريدة كوكب الشرق . وقابل صاحبها احمد حافظ عوض بك وقدمها اليه . وكانت هجاء موجعا وهجوما عنيفا على حكومة اسماعيل صدقى باشا . وقرأها الرجل عدة مرات وأمر بنشرها وشجعه بعبارات رقيقة . ونهض الشاب ابن الثامنة عشرة وهم بالانصراف ، وأستوقفه حافظ عوض بك :
ـ ماهى صناعتك يا شيخ كامل ؟
رد كامل الشناوى : كما ترى . طالب ازهرى قرر ان ينقطع عن الدراســـة الازهرية .
سأله : لماذا لا تفكر فى الاشتغال بالصحافة ؟
قال : لكنى فشلت فى تحقيق افكارى ٠٠
سأله : هل لديك مانع أن تبدأ تجربتك فى الصحافة معنا فى كوكب الشرق ؟
قال : هذه أمنية .
وقال حافظ عوض لكامل الشناوى : اتفقنا اذن ٠٠ وكم يكفيك شهريا ؟
قال : عشرة جنيهات .

ودخل كامل الشناوى الى غرفة مجاورة . وجلس يمــــارس اول تجربته فى الصحافة . وذهبت شلته من شباب السيدة بكامل هيئتهم الى بدروم دار جريدة كوكب الشرق لتهنئته بالمنصب الجديد ٠٠ ويروى الاستاذ حافظ محمود ذكريات هذا اللقاء : « هناك التقينا بكامل الشناوى وهو جالس وراء مكتبه يصحح تجـــارب المطبعة ٠ وهى عملية بدت لنا آنذاك بحق وكأنها تصريف لكبريات الأمور ٠ ووقفنا أمامه وكـان لايزال بزيه الازهرى . واحسسنا ان زميلنا الذى كان يتأخر عنا خطوة قد سبقنا الى ميدان الحياة بخطوات ، وخرجنا من عند كامل ونحن نقول : ان أرشق فتيان الحى لم يعد قادرا على أن يسبقه ! » ٠٠
وبالرغم من أن كامل الشناوى شق طريقه الى عالم الصحافة مصححا للبروفات وهو عمل روتينى منضبط بعيد عن الخلق والابداع . ورغم ان كفاءته الصحفية كانت اقل بكثير من موهبته الشاعرية . الا انه لم تمض أعوام قلائل حتى اصبح صـــحفيا مرموقا ٠ وكيف لا وقد توطدت صداقاته بأعلام السياسة والاحزاب ٠٠ فكان جليسا لمحمد محمود باشا زعيم الدستوريين وصديقا حميما لشقيقه حفنى محمود باشا ٠وكان فى نفس الوقت صديقا لمكرم عبيد باشا ومعظم سكرتارية حزب الاغلبية . ثم كان صديقا لخصوم هؤلاء جميعا فى السياســـة .

بل ان الشاب كامل الشناوى بعد أعوام قلائل من العمل فى حقل الصحافـــة أصبح عضوا بارزا فى كل « الشلل » التى تجمع القمم الصحفية والأدبيــــة فى مصر وصديقا حميما لهم ٠ وكان بينهم جبريل تكلا باشا وأنطون الجميل واحمد الصاوى محمد والدكتور محمود عزمى والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم والشاعر على محمود

طه ومحمد عبد الوهاب • واستطاع فى نفس الوقت أو يلمع فى وجود شوقى أمـــير الشعراء • وأن يلفت النظر الى شعره الغض بالقائه الذكى المؤثر •

ونظلم كامل الشناوى اذا قلنا انه كان يكســـب فى المواقع التى عمـــل بها والمناصب التى صعد اليها بظرفه الذى جعل الذين يتعلقون به أكثر من الذين ينفرون منه • كما اننا نظلم الحقيقة اذا قلنا ان براعة أسلوبه وشاعريته كانت وحـــدها سر نجاحه • لقد كانت فى كامل الشناوى خاصية تغطى حتى على سيئاته ، هى فراسـته وقدرته على اثارة اهتمام من يرغب فى اثارة اهتمامه • وكما كان يقدر على اثارة اهتمام القراء بأسلوبه نثرا أو شعرا • كذلك كان يقدر على اثارة اهتمام من يملكون زمـــام الأمور • كان يعرف ماهى النقطة التى تثير اهتمامهم فيحركها تحريكا بارعا ••

وليس من شك فى أن وشائج الصداقة التى كان قادرا على نسجها مع كبـــار القوم ونجوم المجتمع • تفوقت على كفاءته الصحفية فيما كان يوكل اليـــه آنذاك من المهام . حيث اشتهر كامل الشناوى فى هذه الاوساط قبل ان ينال ادنى شهرة بـــين القـــراء .

نعم ، كان كامل الشناوى يملك موهبة خارقة فى اثارة الحياة من حوله . ان يشغل سامعيه بالحديث الذى يستهويهم . وأن يبث فيهم نشوة الفرح والمرح . وان ينتزع منهم الضحكات المجلجلة .

كان كامل الشناوى ينتمى وهو فى سن مبكرة الى جيل فحل من أظرف الظرفاء فى عصره وآخر سلالاته •• أمثال ، حافظ ابراهيم وعبد العزيز البشرى وامام العبد وعبد الحميد الديب وابراهيم ناجى وحفنى محمود وابراهيم المازنى وشفيق المصرى ومحمد البابلى ومحجوب ثابت ومجدى فهمى وبيرم التونسى • ولكنه تفوق عليهم جميعا بلا منازع بتعدد أساليبه وتنوعها • ما بين نكتة ذكية • وقفشة مرحة • وسخرية لاذعة وتقليد للاصوات والحركات ومقالبه المحبوكة التى ذاع صيتها !

لقد كان لظرف كامل الشناوى منهج خاص • لم يكن جارحا أو مصنوعا أو مسفا كان ظريفا بطبيعته وموضوعيا فى ظرفه • وكانت ثقافاته وخبراته تعمق من هـــذا الظرف وترقى به الى مراتب الفن والادب •

وأعجب مافى ظرف كامل الشناوى أن موقفه كان دائما دفاعيا وهجوميا معا . وكان فى هجومه الساخر على الآخرين كأنه يدفع عن نفسه احتمالات الهجوم عليه ، وربما اكتسب تلك المهارة منذ مرحلة الطفولة والصبا . عندما كان فى موقف المتحفز للدفاع عن بدانته وحمايتها من السخرية والمعابثة . ولذلك كان وهو الذى يعشق النكتة ويضعها فوق كل اهتماماته • يفزع من النكتة ويرهبها اذا كانت مصوبة نحوه •صحيح أنه يحب النكتة ويطرب لها ويضحك من اعماقه عليها • ولكن على شرط أن يكـون هو قائلها . أو موجهة الى غيره . ولكنه يخاصم النكتة ويكرهها اذا كانت ضده . اذا كانت تعنيه . أن موقفه منها كموقفه من كل المعارك التى خاضها فى حياته • يخوضـــها اذا كانت لا تقضى عليه . وهكذا استطاع كامل الشناوى أن يسير على حبل الحياة ببراعة وذكاء دون أن يسقط . فلم يتعرض للسجن والاعتقال فى حياته . رغم الاحن والمحن التى شهدتها البلاد على مدى عمره الصحفى .

لقد اختار لنفسه منذ البداية طريقا سياسيا واجتماعيا وسطا . وكان يخوض المعارك دفاعا عن الحرية والعدل والمساواة عندما تكون الساحة مهيأة للقتـــال • حتى اذا هبت العواصف آثر أن ينحنى لها حتى تمر • فاذا انقشعت عاد مـــرة ثانية الى النضال . وهو ما يفسر انضمام كامل الشناوى الى حركة أنصار السلام مع يوســـف حلمى حيث كتب عدة مقالات ثورية فى مجلة الكاتب اعوام ١٩٥٠ و ١٩٥١ • ولكـــن

عندما اعتقل معظم عناصرها ، آثر أن يقتصر دوره على مساعدة أسرهم بالمال بعـد ان ضمن عدم اذاعة اسمه !
على أية حال ٠٠ اقتنع الشيخ سيد الشناوى أخيرا ان ابنه الاكبر قد انفلت عياره وأنه لم يعد هناك سبيل ولا وسيلة تجبره على مواصلة الدراسة بالأزهر الشريف أو فرنسا ٠ كان كامل الشناوى قد عقد زواجا كاثوليكيا بالصحافة وماحولها من عوالـم اجتماعية وأدبية وفنية ٠٠ وخلع العمامة والكاكولة الى غير رجعة ٠ وارتدى الأزيـاء الاوروبية الانيقة ٠٠ فكان يفصل بدلة عند الخواجة « جابى » ترزى الامراء والبشاوات ٠ ويشترى الأحذيه الانجليزية « الأجلاسيه » ٠ ويقتنى كل جديد من الكرافتات والساعات والنظارات والولاعات واقلام الحبر الثمينة .. واصبح شابا عصريا فى مظهره وسلوكه وافكاره . كان كمن يحاول الهرب من شىء ما . قد نكون بدانته وما عاناه بسببها من عذابات وعزلة وانطواء . وربما كان يهرب من ماضيه الازهرى ، حيث المناهج العتيمة ، وجراية الخبز الناشف ، وزملائه من العجزة والعميان الذين كانوا يطلقون على شارع الموسكى ٠٠ شارع « نقائض الوضوء » !
وهكذا امسك بتلابيب أول فرصة فى الصحافة . وأفلت من قبضة القـــدر الحتمية بمعجزة !

لم يكن اشتغاله بالصحافة سببا فى خلعه زى الأزهريين ، اذ أن بعضهم يعملون بالصحافة وهم معممون ٠٠ بل ان أول حب فى حياة كامل الشناوى كان السبب ٠٠ فتاة المعادى الرقيقة التى ذهب الى منزل خالها ليتلقى على يديه دروس الفرنسية استعدادا للالتحاق بالسربون ٠٠ وهناك التقى بها مرات ومرات ٠ واكتشف فيها روح العصر وأفكاره المتجددة ٠٠ و ٠٠ قرر ان يعيش هذا العصر من اجلها ٠٠ مظهرا وسلوكـا وحياة وهدفا !

ولكن هل يستطيع الانسان ان ينفصل عن ماضيه وبيئته ؟
لم ينفصل كامل الشناوى عن ماضيه وبيئته برغم تجدده ومعاصرته وبرغـم محاولاته الهروبية ، وعندما يكون الحديث عن الازهر ٠ كان ينبرى دفاعا عن هذا الصرح الاسلامى والحضارى العظيم . وعندما يكون الحديث الحادا وشكا يعود سريعـا لبيئته ونشأته الأولى فاذا هو أشد المؤمنين وأخلص الموحدين ٠
وكان حبه لطه حسين لاحد له . فهو الازهرى الذى تفوق عـلى الازهريين واصحاب البدل . وطه حسين هو قمة الادباء عند كامل الشناوى . وكان يصفه بأنه رجل أنيق فى عبارته أنيق فى كلامه وفى نطقه واختياره للالفاظ . ويقول أنيس منصـور انه سمع كامل الشناوى يوما فى لحظة صراحة ٠ فاذا به يعترف بتأثره بأسلوب طـه حسين فى الحديث .
كذلك كان يرحمه الله مفتونا بالشيخ جمال الدين الافغانى وسيرة حياته ونضاله الفكرى . وكان يجل الشيخ محمد عبده ويقدر تأثره الواعى بروح العصر وكان مؤمنا بدعوته الى التجديد . وكثيرا ما كان يبدى اعجابه بالشيخ مصطفى عبد الرازق كنموذج حى للازهريين الذين تعلموا فى فرنسا . وكان يقرأ على أصدقائه ماكتبه عن باريس وميادينها ٠ ويشد انتباههم الى أسلوبه الانيق فى الكتابه ، ورقته المتناهية فى معاملة تلاميذه وعلاقاته بالناس ٠ وعندما قرأ للشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى استـهواه أسلوبه ومضمونه ثم اختلف مع أسلوبه الزخرفى ولكنه ظل مبهورا بأفـكاره التى كانت تسبق عصره ٠

● البداية اذن كانت أهم العوامل التى دفعته الى التحصيل والقراءة وكانت سببا فى تفوقه على أقرانه فيما بعد ، وخلعه زى الازهريين ، وارواء عطشه الى الحب ان يحب ويحبه الآخرون ، ودافعه الى الظرف والسخرية وحبك المقالب • وتنفيسا بالفرح والمرح والسهر عن مكبوتات عزلته الاضطرارية الطويلة التى اكلت ايام طفولته وصباه •

غير أن الشاب كامل الشناوى الشاعر لم يتمكن برغم اقبال الدنيـــا عليه أن يفلت من القوانين التى حكمت طفولته وصباه . صحيح أنه حاول لكن محاولاته فى أغلبها كانت رد فعل لمرحلة الطفولة والصبا القدرية • فكان دائم الشعور بما تعـرض له من صراع مرير فى تلك المرحلة التى تركت بصماتها الواضحة على سلوكه.

ولم يكن المحيطون به يلتفتون الى بدانته أو ملامحه . فقد كانت حيويته ومواهبه وخفـــة ظلـــه • تطغى عـــلى كل شيء وتخفى عيـــوبه • ولكنه رغم ذلك كان دائـم الشعور بتلك العيوب وكتب يعترف بذلك وهو يستقبل عامه الخمسين :

« لماذا استشعر الكآبة دائما • لماذا احس احتراقا يلهبنى ويكوينى ، كلمـــا فكرت وحدى وما أكثر ما أفكر وحدى • لقد ظننت أن سر ما اعانيه •• هو هذا الصراع الطبيعى القائم فى كياننا نحن البشر . الصراع بين الجسد والروح ، الجسد يحاول ان يقهر الروح ، والروح تحاول ان تقهر الجســـــد • وكل الناس مثلى فى هـــذا الصراع ، ولعلى فى ذلك اسعد حظا من غيرى • فقد استطعت بحكم الســـن والمرض ودمامة الشكل ، أن اعقد هدنة بين جسدى وروحى .. وما اقل الذين استطاعوا ذلك ! » ••

وسألته المذيعة آمال فهمى فى حديث صحفى « غير مذاع » : ما هو الشيء الوحيد الذى جاملك فيه الزمن ؟

وكانت اجابته : سواد شعرى •

وهذا صحيح .. فبالرغم من قوله فى قصيدة عيد الميلاد « وعلا الشـــــيب مفرقى » .. الا أن كامل الشناوى ظل يحتفظ بسواد شعره دون اصــــباغ حتى النهاية • وكان يقول : « ان أصدقائى فى مرحلة الشباب كانوا يتخوفون من وضـــع الكولونيا على رؤوسهم بدعوى انها تعجل بالمشيب بينما نجوت من المشيب لاننى كنت اغسل شعرى بالكولونيا » •

وكامل الشناوى ظل طوال حياته فى صخب انسانى لا يهدأ وكان وهو الاعزب الذى يخشى ان يتوكأ يوما على زوجة يجمع حوله أطفال أشقائه أيام الجمع والأعياد • وكان يغدق عليهم الحلوى واللعب ، يتباسط معهم ويلعب معهم ويقترب من عقـــولهم وعواطفهم • وكثيرا ما رأيته يمتحن ذكاءهم وفصـــاحتهم وخفـــة ظلهم • وكـان بينهم الطفل طارق ابن شقيقه أحمد الشناوى • وتوقع له أن يخلفه شاعريته • وكان يأمل أن يصبح امتدادا للسلالة الصحفية فى الأسرة • وصدقت نبوءته • واصبح طارق الشناوى بعد رحيل كامل الشناوى بعشر سنوات صحفيا يحاول نظم الشعر • وعمل فى روز اليوسف التى شهدت بدايات عمه فى عالم الصحافة !

وكامل الشناوى لفرط ولعه بالناس وصداقتهم من كل الاعمار والمهن والطبقات كان يتبنى سياسة الباب المفتوح • ولقد حافظ الباب المفتوح على علاقته بالحياة ساخنة ملتهبة • لم ينفصل ابدا عن الناس • كانت وسيلته لاكتشاف مافيهم من خير وعطاء واخطاء • وكان على طبيعته الريفية التى تحب أشعة الشمس حيث الحياة المشتركة مع الآخرين . ولذلك بعثر الآلاف وأنفق من صحته وطاقاته الكثير حتى يظل وسط حلبة الحياة • بعيدا عن أشباح الوحدة التى كان يرى فيها صورة من صور الموتى الأحياء •

كان يرى فى سياسة الباب المفتوح قضيته الكبرى · وسر العالم وسحره ، وكانت فى نفس الوقت نقطة الضعف فيه · فهذا الباب المفتوح منع كامل من أن يعيش مع نفسه وحيدا بعض الوقت . مكتبه مفتوح لكل الناس وقلبه مفتوح لكل الناس . وعندما يهم بالكتابة وأداء مهامه الصحفية كان يعتذر بانشغاله عنهم ·· وكان لحظات العمل فى سلوكه اليومى مجرد « انشغال » عن الحياة وليس « اشتغالا » بها ..

يقول الكاتب الناقد رجاء النقاش : « لو كان كامل الشناوى قد تجرأ على وحدته وانتصر عليها ·· لكان واحدا من أخلد واغزر المبدعين فى حياتنا الفنية على الاطلاق ·

كانت سهرة من سهراته فى مقهى الفيشاوى يقرأ فيها الشعر · ويلقى بسخرياته العذبة ودعاباته الذكية . ويتأمل ويناقش . ويشترى الحكمة والجنون ويبيعهما للآخرين ·· ليلة مثل هذه يسهرها حتى مطلع الفجر · كانت عنده افضل واعمق وأمتع من كتابة مليون قصيدة تأتى له بمزيد من الشهرة أو المال . كانت رائحة الحياة عند كامل الشناوى مقدسة . فاتنة . مسكرة .

أكنا على حق عندما طلبنا منه الشعر ومنحنا هو الحياة ؟ ·· اكاد أشعر الآن انه كان أصوب منا لاسباب كثيرة . لقد عاش وملأ الدنيا . وجعل لكل لحظة من حياته طعما · وكانت حياته فى جملتها قصيدة اجمل واعذب و « أبسم » من أية قصيدة يمكن ان يكتبها شاعر متمكن ·

وهكذا من العزلة والانطواء الى الانطلاق فى خضم الحياء وسط الناس .. كانت رحلة كامل الشناوى صحفيا وشاعرا وعاشقا وساخرا ..

الفصل الثانى

من التصحيح إلى رئاسة التحرير



● ظل كامل الشناوى يعمل بهمة لاتفتر فى جريدة كوكب الشرق ، من الساعة الثامنة حتى قبيل الليل ، وفى كل اول شهر كان يقف أمام صراف الجريدة يسأله عن مرتبه فيقول : « اسمك مش موجود فى كشف المحررين ! »

ومضى شهران ولم يتقاض مليما عن عمله ، وذهب الى حافظ عوض بك صاحب الجريدة يسأله عن السبب وقال له : « أنت مازلت فى مرحلة تمرين ، وقد اتضح أنك لم تكتب الاشعارا وبحوثا أدبية ، والصحافة يابنى كما لابد وأن تعرف ·· ليست كذلك ، ولما كنت حريصا على بقائك فى اسرة كوكب الشرق ، فانا أنصحك بأن تتصيد الأخبار من مصادرها » ·

ـ ولكنى لاأعرف أى مصدر على الاطلاق ·

وسكت حافظ عوض ثم قال لكامل الشناوى فى مودة :

ـ اسمع ·· هل تشتغل مصححا ؟

ـ أشتغل ··

ـ مرتب المصحح أربعة جنيهات ·

ـ لامانع ··

وهكذا دخل كامل الشناوى الى عالم الصحافة من أكثر الابواب تواضعا فى كوكب الشرق ، مصححا للغة المقالات التى كان يكتبها كتاب متمكنون من اللغة ونحوها وصرفها أمثال الدكتور طه حسين ، ثم جاءته الفرصة لكى يظهر مواهبه وخفة ظله !

كان يتولى أعمال سكرتارية التحرير فى الجريدة رجل ممن كان يطلق عليهم آنذاك « أعيان الريف » ، فلا هو بالصحفى ولا بالأديب ، ولكن العمل السياسى

الوطنى قد قسم له هذه الوظيفة ليؤدى بها واجبا حزبيا ، وتلك كانت احدى السمات البارزة فى الصحافة الحزبية فى ذلك العهد ٠

وذات يوم وفد الى مصر زائر كبير هو ملك الافغان ، وكانت أنهار الصحف تفيض بأنباء تنقلاته فى القاهرة مع ملك مصر ، وكان لزاما أن تذكر الصحف اسم الملكين مسبوقا بلقب « صاحبى الجلالة » فمرة تكتب « صاحبا الجلالة » ومرة تكتب « صاحبى الجلالة » حسب سياق الجملة التى يأتى فيها اللقب ٠

ولم يعجب هذا الخلاف سكرتير التحرير الحزبى ، فكان يصحح عبارات المندوبين مهما كان موقعها اما « صاحبا الجلالة » أو « صاحبى الجلالة » كما كان يتراءى له ، وكانت تجارب الأخبار تصل الى يد كامل الشناوى ، فيعيد تصحيحها وفقا لقواعد اللغه ، وتعود البروفات وبها التصحيح الى سكرتير التحرير وينادى كامل الشناوى ليقول له : « أهى لعبة استغماية بيننا ، فكلما أكتبها « صاحبا » تصححها « صاحبى » وكلما كتبتها «صاحبى» تصححها « صاحبا » ؟

وكتم كامل ضحكته ، وأخذ الموضوع برمته الى الدكتور طه حسين الذى كان قد عين فى عام ١٩٣٣ مديرا لسياسة « كوكب الشرق » ، وأخذ يقصه عليه بخفة الظل التى اشتهر بها ، مقلدا سكرتير التحرير الحزبى ، فجاءت روايته شبيهة بصوت الرجل الطيب ولهجته الريفية وخلجاته الغاضبه ٠

وضحك طه حسين ـ رحمه الله ـ من أعماقه وكان قليلا مايضحك وكان أقرب الىالابتسام منه الى الضحك ٠٠ وقرب كامل الشناوى منه ، وكان قد عرفه شاعرا وراوية للشعر ولكنه اليوم يكتشفه فنانا وظريفا ، وقرر أن ينقله بلا مقدمات من قسم التصحيح الى وظيفة المحرر المنتدب بمكتب مدير سياسة الجريدة ، ونصحه بأن يتعلم فن الخطابة التى رأى طه حسين أنها تكمل وتصوغ مواهبه ، وسمع كامل النصيحة وبدأ يلازم الأستاذ حافظ محمود فى المحافل السياسية يتعلم منه ومن غيره فن الخطابة ، والقدرة على تطويع الصوت والاثارة والحماس وترتيب الافكار ٠

والذى لايعرفه الكثيرون عن كامل الشناوى المصحح ، أنه وهو فى هذا العمل الروتينى المنضبط ، كان يكتب المقالات بدون توقيع ، حدث ذلك فى منتصف عام ١٩٣٠ عندما كلفه صاحب « كوكب الشرق » بكتابة كلمة ينقد فيها سياسة حلمى عيسى باشا وزير المعارف ، وكتبها ، واعجب حافظ عوض بأسلوبها الساخر الرصين وعباراتها القصيرة البارعة ، ونشرها فى الصفحة الأولى بدون توقيع ٠

وكان كامل يكتب أيضا بدون توقيع أو بتوقيع فى مجلة أسبوعية صغيرة لم يحالفها النجاح والاستمرار ، كان يصدرها الشيخ عبد الحميد النحاس ، وكان يتقاضى عن مقالاته فيها جنيهين فى الشهر ، وكان انتاجه فى هذه المجلة مقصورا على أدب الفكاهة من شعر ونثر ومقامة ٠

يقول الشاعر صالح جودت ـ يرحمه الله ـ : « كان هذا النتاج الادبى فى مجموعه يمثل طرفا من معركة ادبية كانت قائمة فى ذلك العهد بين جماعة « أبو للو » بزعامة احمد شوقى وتوجيه الدكتور احمد زكى أبو شادى ، وبين العقاد ومريديه ٠

وقد اخذت المجلة التى كان يعمل بها كامل جانب العقاد ، فضلع كامل فى المعركة ـ رغم حبه لشوقى والتمائه لمدرسته ـ بينما استعانت « أبوللو » على حملتها الضارية بالشاعر بيرم التونسى ، وكان يومئذ منفيا فى باريس ، وكان يحرر صفحات مجلة « الامام » لسان حال مدرسة «أبوللو » من الغلاف الى الغلاف ويكتب

ضد جماعة العقاد ومن تحالفوا معه ــ آنذاك ــ مثل طه حسين وابراهيم المازني وكامل الشناوي »[1] .

ويضيف صالح جودت قائلا : « ولاأنكر ان دنيا الأدب في ذلك العهد قد سعدت بمعركة منشطة للحياة الأدبية ومحددة للمواقف الفكرية ، ولا أنكر أنها أسفت في بعض الأحيان ، ولم تسلم من التجني ــ من الجانبين ــ ولكنها رغم ذلك كله أسفرت عن تصفيات كبيرة لعناصر الضعف ، وأبرزت خطوطا واضحة في مدارس الادب المعاصرة ، وأخرجت الى النور مواهب كثيرة صعدت بعد ذلك الى الذروة ، ومنها كامل الشناوي الذي شق طريقه بعدها الى الصحافة اليوميه فبدأ من السفح الى أن بلغ القمة » .

يقول كامل الشناوي عن هذه المرحلة الأدبية التي عاشتها مصر في الثلاثينيات :

ــ كانت مدارس الأدب في مصر أربعا ، مدرسة القدماء يتزعمها رجال الأزهر ودار العلوم ومدرسة للمحدثين بزعامة شكري والعقاد والمازني . وقد انقسم ثلاثتهم ،فاعتزل عبد الرحمن شكري الحياة العامة واندمج العقاد في مناصرة الوفد . ووقف المازني موقف المناصر للحزب الوطني حينا . والمعادي للوفد في أغلب الأحيان ؟

وهكذا أصبحت هذه المدرسة مدرستين أو ثلاث !

ومدرسة أخرى للمحدثين بزعامة طه حسين وهيكل وعبد الرازق وعزمي وهؤلاء كانوا يناصرون حزب الأحرار .

ومدرسة زكي أبو شادي واسماعيل مظهر ومن معهما من شعراء وأدباء كانوا لايزالون في مستهل حياتهم الأدبية .

وكان لطفي السيد وخليل مطران وشوقي يحاولون جهدهم ألا يدخلوا في هذا العراك ، وكانت أفكار لطفي السيد مع طه حسين وشيعته . وكان خليل مطران مع النازعين الى التجديد . وكان هوى شوقي مع الجميع الا العقاد والمازني !

****

● اختلف طه حسين بعد ذلك مع حافظ عوض وترك كوكب الشرق وأصدر منفردا جريدة « الوادي » عام ١٩٣٣ ، وصحب معه كامل الشناوي ، ولم تكن للوادي رسالة صحفية ولكن كانت لها رسالة سياسية ، هدفها التخلص فقط من حكم اسماعيل صدقي .

وقد نجح الدكتور طه حسين في حملاته القوية ، ولكنه لم يستمر طويلا فقد استنفدت الوادي كل جهده وماله ، وباغلاق الوادي انضم كامل الشناوي الى مجلة روز اليوسف عام ١٩٣٥ ، وأعطى كل وقته وانتاجه لها بعد أن كان يكتب فيها بالقطعة منذ عام ١٩٣١ بعض التعليقات الأدبية والفنية بالاتفاق مع مصطفى أمين نائب رئيس تحرير روز اليوسف في ذلك الوقت ، بالاضافة الى تدريس اللغة العربية لآمال طليمات كريمة السيدة روز اليوسف !

وكانت روز اليوسف اليوميه قد صدرت قبل انتقاله النهائي اليها عام ١٩٣٤ ودعى العقاد ليكون كاتبها الاول ، فاشترط أن يكون الى جانبه الصحفي الشاب كامل الشناوي وكان من أبرز كتابها في ذلك الوقت زكي طليمات وتوفيق صليب .

أقبل على العمل بشغف ودأب في مجلة روز اليوسف الأسبوعية وجريدة روز اليوسف، وكان الى جانب مقالاته الأدبية والفنية وسخرياته الضاحكة ، يراجع المقالات ، وبدأت تتسع دائرة معارفه في الوسط الأدبي والفني والصحفي ، وأصبح من ألمع رواد قهوة « الفن » التي كان يتردد عليها الكتاب والنقاد والممثلات والممثلون ،

وكانت له صولاته وجولاته كل مساء ، يروى أشعاره ويجالس سماره ، وتتعلق به الأبصار والأسماع وهو يخوض معاركه الساخنة فى لعبة الطاولة ٠
وذات يوم كتب كامل الشناوى مقالا سياسيا طالب فيه بعودة الدستور ، وكانت وزارة نسيم باشا قد وعدت بإعادة الدستور ، ولكنها تلكأت فى البر بوعدها ، وبدأ كامل مقاله ببيت قديم من الشعر هو :

كلما قلت : غدا موعدنا ضحكت هند وقالت : بعد غد

وقدم كامل الشناوى مقاله للدكتور محمود عزمى ــ ابو الصحافة المصرية المعاصرة ــ وكان رئيسا لتحرير جريدة روز اليوسف اليومية ، وقرأه ثم دار بينهما هذا الحوار :
ــ ومادخل هند فى عودة الدستور ؟
ــ هذا شعر جميل يقرب المعنى للقراء ٠
ــ الشعر يصلح للغناء والانشاد ، ولكنه لايصلح لمعالجة الموضوعات السياسية ، ومقالك فى غاية القوة والوضوح ، والاستشهاد بالشعر يضعفه ٠
ــ ولكن هذا البيت سهل الفهم ٠
ــ نصيحتى لك الا تستشهد فى المقالات السياسية الا بأقوال السياسيين الذين تناقشهم ، أو تنقدهم أو توجههم ، وألا تعتمد الا على المنطق والوثائق والاحصاءات ٠
ولم يقتنع كامل الشناوى بهذا الرأى ــ فى ذلك الحين ــ وانتزع من مقاله بيت الشعر وهو فى غاية الألم ، ولكنه لم يحاول بعد ذلك أن يستعين بالشعر فى مقالاته السياسية ، وكانت هذه الواقعة بمثابة الدرس الثانى له فى الصحافة ، وكان قد وعى الدرس الأول الذى لقنه إياه حافظ عوض : « أن الصحافة فن الخبر وليست فن الأدب » وقد استفاد كامل الشناوى من تجاربه ، وكانت مقالاته اليومية فى جريدة روز اليوسف تشغل نصف عامود من صفحاتها ، وكانت نموذجا لصحافة الرأى من حيث التركيز واستخدام العبارة « التلغرافية » المختصرة ، واللغة القوية والمعنى الواضح الذى يصل الى الهدف مباشرة ، بالاضافة الى الدقة فى استخدام الفواصل والنقطوعلامات التعجب والاستفهام والتى ميزت كتاباته النثرية فيما بعد ٠
وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين أنطون الجميل ، وكان يتردد على ندوته الأدبية فى جريدة الاهرام ٠ وعندما بدأت روز اليوسف اليومية تعارض مواقف النحاس السياسية معارضة سلبية ٠ أصدر الوفد بيانا الى الشعب ينفى علاقته بها وأنها لا تعبر عن الحزب ٠ وهبط التوزيع فورا من ٨٠ الف نسخة الى ٨ الاف نسخة!! وعندما توقفت روز اليوسف اليومية عن الصدور وأصبح كامل الشناوى معرضا للبطالة استدعاه أنطون الجميل وقال له : « لاتحزن يابنى ، ان الى جوارى غرفة صغيرة لك أن ترابط فيها منذ الآن حتى ندبر لك عملا بالأهرام » ٠
لكن ٠٠ ماذا كان كامل الشناوى فاعلا بهذه الغرفة الضيقة ؟
لقد كان يقضى معظم وقته بغرفة أنطون الجميل ، فاذا حاول الانصراف استبقاه جلساؤه ليستمعوا الى شعره وروايته لأشعار شوقى وقدماء الشعراء والتزود بأسلوبه الظريف وذكرياته الطريفة ٠
وظل كامل الشناوى منذ عام ١٩٣٦ بالأهرام يعمل فى سكرتارية التحرير ويكتب باب « خواطر حرة » ، وبعد مضى عام وبضعة شهور أعيد تشكيل مجلس النواب ، فاذا بانطون الجميل يكلفه بأن يصحب مندوب الاهرام البرلمانى الذى يتابع جلسات المجلس ، وما كادت تمضى شهور حتى طلب المندوب البرلمانى اختصاصا



آخر فى الاهرام . فقد استطاع كامل الشناوى فى هذه المدة القصيرة أن يصبح كل شىء فى الصفحة البرلمانية ، ثم استطاع أن يغدو عميدا للمندوبين البرلمانيين فى مجلس النواب ، واستطاع من خلال هذا العمل الصحفى ان ينشىء لنفسه جسورا من الصداقات الحميمة مع الزعماء وكبار السياسيين فى مختلف الاحزاب .

كان صيته قد بدأ ينتشر فى كل الأوساط ، ودخل الشاب السمين الـــذى يرتدى أحدث الملابس الافرنجية القصور ، وجالس الوزراء ورؤساء الوزارات ، وأصبح صديقا لصاحب القبضة الحديدية محمد محمود باشا .

وهنا يذكر لكامل الشناوى أنه كان شـــديد الحساســـية لكرامته واعتزازه بشعره ومواقفه السياسية ، فكما كان صديقا حميما لشـــوقى بك وكان مثله الأعلى فى مدرسة الشعر ، ألا انه اختلف معه فى الرأى وانضم الى العقاد فى موقفه مـــن مدرسة « أبوللو » ، أيضا نرى الشاعر والصحفى كامل الشناوى الذى أصـــبح صديقا لمحمد محمود باشا زعيم الدستوريين ، لايمدح فى شعره أو مقالاته ذلك الحاكم بأمره ، والقصيدة الوحيدة التى قالها فى مدح زعيم ، كانت فى مصطفى النحـــاس باشا بالرغم من أنه لم يكن صديقا له وعندما سئل عن السبب قال كامل الشناوى : « كل ما هناك أنه يستحق شعرى ، واذا كانت الصداقة لرئيس الوزراء فالشـعر يجب أن يكون لزعيم الأغلبية » .

وعندما يعلم جبريل تقلا باشا صاحب الاهرام أن كامل الشناوى يسهر كـل ليلة مع صديقه محمد محمود باشا ، يخبط كفا بكف ويصرخ فى وجهه : « ومـــاذا تفعل بهذه الصداقة .. حاول أن تحصل منه على الاخبار أولا بأول » .

ويخرج من مكتب تقلا باشا الى سراى محمد محمود ، وفى مجـــالس الوزراء والزعماء لايكون الحديث دردشة أو دعابات فقط ، فالذين يصنعون الأخبــــار والقرارات ، يضطرون فى حياتهم وسهراتهم العادية الى الدردشة فى الأسرار ، وهى الكنز الذى كان يبحث عنه كامل الشناوى الصحفى ، ويلتقط من خلال الدردشة خبرا هاما ، أن أمين عثمان سوف يسافر الى القدس ليجتمع مع أحد المسئولين البريطانيين، وأن مفاوضات على مستوى عال ستدور بينهما بعيداً عن أعين الصـــحفيين ورقابة الشـــعب !

ويسرع كامل الشناوى الى الجريدة ومعه الخبر ، ويعيد تقلا باشا صـــياغة الخبر ، وينشره منسوبا الى مراسل الاهرام فى القدس ، ويحدث الخبر هزة عنيفة فى كل الأوساط السياسية والشعبية ، ويتلقى كامل التهنئة ، ويرتفع مرتبه بضـــعة جنيهات ، وينال مكافأة ضخمة ، أكدت عزمه الذى استقر أخيراً على أن يتحول بكـــل طاقته الى احتراف مهنة المتاعب والقلق ... الصحافة ..

ويدرك محمد محمود بذكائه وخبرته ، أن الشاب كامل الشناوى المحـــرر بالاهرام وصديقه وجليسه هو مصدر الخبر ، فلايفاتحه فى الامر الى أن تأتى جـولة أخرى يلقنه فيها درسا لاينساه .

ذات مساء وفى سراى محمد محمود وكامل الشناوى ينصت باهتمام ، يعلن رئيس الوزراء امامه خبرا ، أن جوبلز وزير الدعاية فى حكومة هتلر وصل الى مصر سرا ونزل بفندق سميراميس ، وانه التقى بمحمد محمود ، ودارت بينهما أحاديث خطيرة ، ويستأذن كامل الشناوى فى الانصراف مسرعا الى الاهرام .. ويدخـــــل الى مكتب تقلا باشا يزف اليه الخبر الخطير !

ويرفع رئيس التحرير المدرب سماعة التليفون ويتصل بفندق سميراميس ، ثم بجميع الفنادق التى يحتمل أن ينزل فيها الوزير الألمانى ، واتصل بالمطـــار

وبرجال السياسة والبوليس ، وبكل مكان له علاقة بمهمة أو بوصول جوبلز ، ولكن الجميع يؤكدون أن الخبر كاذب ، ويضطر تقلا باشا قبيل الفجر الى الاتصال بمحمد محمود باشا ، وما ان يسمع رئيس الوزراء صوته حتى ينفجر ضاحكا ، ثم أنهى المحادثة بكلمة ظلت ترن في اذن كامل الشناوى « عشان يتعلم الفرق بين الصداقة والصحافة » ، وفعلا تعلم كامل الكثير من هذا الدرس ، أن يكون حذرا ، حتى أصبح الحذر من أبرز صفاته الصحفية .

وحدث أن كتب كامل الشناوى خبرا عن اعتكاف عبد العزيز فهمي باشا في داره بسبب مرضه ، فسأله انطون الجميل : « هل استأذنت عبد العزيز فهمى باشا في نشر الخبر ؟ » .

قال كامل : أنا واثق من صحة الخبر .

وقال انطون : هذا خبر شخصي ، فلا ينبغى نشره الا بعد استئذان صاحبه ، فقد يتسبب عن نشر الخبر أن يزوره أصدقاؤه في داره ، وهو غير مستعد لاستقبالهم وربما أزعجته هذه الزيارات وضاعفت آلامه .

كان أنطون الجميل يؤثر الأخلاق الممتازة على الكفاءة الممتازة ، وكان يقول لكامل الشناوى « ان الصحافة تتطلب من الصحفى عقل فيلسوف ، وقلب شاعر ، وضمير قاض ، ولامانع ــ بعد ذلك ــ ان يكون الصحفى صاحب قلم .

ويقول كامل الشناوى رأيه في رائد مدرسة الأهرام الصحفية ابان الثلاثينيات : « كان أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام يحب الشعر والأمثال والاستشهاد بالكلمات المأثورة ، وكثيرا ما كان يبدأ مقالاته بحكمة معروفة أو أسطورة قديمة ، ويتخلل المقال بيتان أو ثلاثة من الشعر العربى أو ترجمة لبيت من الشعر الفرنسى ، ومثل لاتينى أو حكمة صينية ، وكان يتأنق في اختيار اللفظ والفكرة والمعنى ، وكان اذا تناول موضوعا سياسيا ، عرض وجهات النظر المختلفة بدقة وأمانة ، وترك للقارىء أن يختار ما يشاء مكتفيا بأن يعرف القارىء بوجهات النظر على اختلافها »

ويقول كامل الشناوى : « لم تكن الصحافة عند انطون الجميل سبقا صحفيا ، وانما دقة وأمانة وحرص على تجنب الاثارة والتهييج ، وكان يتلقى الخبر الهام فيبقيه عنده حتى يتحراه ، ثم يقارن بين مايترتب على نشره ، فاذا كان النشر يتعارض مع المصلحة العامة ، امتنع عن نشر الخبر مهما تكن اهميته ، وكان يكره العنف في المناقشة والحدة في الجدل ، كثير الاعتداد بكرامته وكرامة الاهرام ، فلايزج بنفسه ولابالاهرام في خلافات سياسية أو طائفية أو مذهبية ولا ينشر خبرا عن انسان الا بعد استئذانه »

وتعلم كامل الشناوى دروسا كثيرة في صحافة مدرسة الاهرام ، دروسا في الكتابة الصحفية . ودروسا في التعامل مع المصادر ، وكما أخذ عن الأهرام فقد اعطاها أيضا . كتب الخبر والتحقيق والمقالة والدراسات الادبية ، وقدم سلسلة من الاحاديث الصحفية التي أثارت ضجة حولها ، وأجرى الحديث الشهير مع أحمد لطفى السيد الذى قال فيه أستاذ الجيل : « انه في الساعات الأخيرة من حياته سوف يزرع شجرة » وكان قد بلغ من العمر نحو ثمانين عاما .

وفى عام ١٩٣٨ عين مصطفى أمين رئيسا لتحرير آخر ساعة ، فاختار كامل الشناوى محررا سياسيا لها بجانب عمله بالأهرام ، وفى عام ١٩٤٢ كان مصطفى أمين رئيسا لتحرير مجلة الاثنين فخصه بكتابة عامودأسبوعى تحت عنوان « سمعتهم يقولون » بجانب كتابته للمقالات في مجلة المصور ، وفى عام ١٩٤٤ اختاره مصطفى أمين رئيسا لتحرير آخر ساعة ، وبعد صدور اخبار اليوم كان يعد من ألمع كتابها

ثم عين رئيسا لتحرير الجريدة المسائية عام ١٩٤٩ ولكن حزب الوفد قرر اغلاقها رغم توزيعها ونجاحها الواسع · لأنها كسبت معظم القراء من البلاغ وهي جريدة وفـدية ومسائية أيضا ، ولأن كامل الشناوى لم يكن وفديا ، ثم عاد الى الاهرام رئيسا لقسم الأخبار ، ثم تركها عام ١٩٥٢ وعمل رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية وفي ديسمبر عام ١٩٦٢ عين رئيسا لتحرير جريدة الأخبار وظل بها حتى وفاته وكانت آخـر عهده في عالم الصحافة ·

****

● كانت قفزاته في عالم الصحافة تدهش اقرانه وتثير حسد من تخلف عـن سباقه ، فمن مجرد مصحح بلا أجر في « كوكب الشرق » عام ١٩٣٠ ، الى رئاسـة تحرير « آخر ساعة » عام ١٩٤٣ ·

كانت موهبته كشاعر لامع ومحدث ظريف تطغى على استعداده الصحفي ، بـل ان شاعريته وظرفه كانا مفتاح أبواب الصحافة والسياسة والمجتمعـات ، وتخاطفه أصحاب الصحف ، فكان يختار المكان الذي يروقه ، والمنبر الصحفي الذي تتوفر فيـه حرية الرأى والنشر ، وكان يحدد الأجر الذي يفي بمتطلبات بذخه واسرافه ، رغم أنه منذ أصبح رئيسا للتحرير كان يعطى بعض وقته للعمل ومعظم أوقاته للناس · وكان يتكلم أكثر مما يكتب ، وكان يعمل ويكتب وسط مريديه وحوارييه الذين لـم يكـن ينقطع سيل تدفقهم على مكتبه ، ويستنفد معظم دخله في ولائم العشاء التي كان يدعو اليها العاملين معه والمترددين عليه ، وعرف عن صينية عشاء كامل الشناوى الكثير من الطرائف ، فكانت تصحبه من دار صحفية الى دار أخرى ، وكانت تمتلىء بما لذ وطاب من صنوف الطعام والكباب والأسماك ·

كانت مشكلته الوحيدة أنه يكتب في الساعات التي يريد أن يكتب فيها ، بينما كانت الصحافة تطلب منه أن يكتب في الساعة واللحظة التي تحددها له ·

يقول مصطفى أمين : « كنت دائم الخلاف مع كامل الشناوى ، لإنه قليـل الانتاج ، فقد كانت المقالة التي لاتزيد عن عامود ، تستغرق منه عدة أيام ، وكنت أدهش لأنه راوية ومحدث ومبدع في الحياةووسطالناس ، وكثيرا مافكرت في أن أستأجر له شخصا يمشى معه ويسجل مايقوله ثم وأنشره موقعـا بامضاء كامل الشناوى » ·

لم يتعلم كامل الشناوى الصحافة في المعاهد المتخصصة في الصحافة ، ولكنه تعلمها في مدرسة الممارسة والتجربة ، وقد ظل تلميذا في هذه المدرسة حتى النهاية وكان يصف نفسه بالهواية الصحفية ، ومما لاشك فيه أن قراءاته اللامنهجيـة في دار الكتب وتكوينه الثقافي العصامي في صدر شبابه قد أفاداه كثيرا في عمله وعلاقاته بمصادره الصحفية ·

كان أساس ثقافته الفلسفة وعلم النفس والتاريخ والسياسـة ، ومختلـف الفنون والآداب العالمية · وجميع ما أنتجه الفكر العربي منذ العصر الجاهلي ، وكان يحفظ آلاف الأبيات للشعراء القدامى والمحدثين ، وكانت له ذاكرة أشبه بجهـاز التسجيل ، لكن كامل الشناوى لم يتوقف عند مرحلة وضع الأساس لثقافته ، فكـان يتردد على المكتبات لاقتناء كل جديد في الفكر ، وكان يهضم قراءاته لهائم يقدمهااو يعلق عليها ، وظل بنيانه الثقافي مفتوح النوافذ على كل الاتجاهات والافكار والتيارات ، وكان أصدق مصادر الأخبار الهامة لأنه كان صديقا لصناع الاحداث ، وكان هـو صانع بعضها ·

كان كامل الشناوى يجمع فى شخصه وفكره وقلمه بين جيل رائد للصحافة الحديثة والجيل الذى دخل عتبات الصحافة صغيرا ولمع مع التطور ، الأول كان قاعدة بناء والثانى كان سند البناء ، وهو مع الاثنين عنصر مزج وادماج ومحور التقاء ، ومركز اشعاع ، شاعرا لامعا بين الشعراء وصحفيا من أبرزهم وأكثرهم نفوذا وكان أيضا فنانا بين الاوساط الفنية ، وكانت رسالته أن يطلق شرارة الاندماج سواء بين الأجيال أو بين العناصر المتجانسة فى كل ميدان ٠

ولم يكن الطريق ممهدا أمام كامل الشناوى الصحفى ، ولكنه تمكن بذكائه وثقافته أن يستفيد من ممارساته وتجاربه فى الصحافة ، وأن يتخطى العقبات الواحدة تلو الأخرى دون أن يكرر نفس الخطأ الذى تعرض له من قبل ٠

يقول : « فى عام ١٩٣٥ كنت محررا فى روز اليوسف ، لم يكن لى عمل محدد، أحيانا أساهم فى تحرير الصفحة الأدبيه وصفحة الشباب ، واحيانا أكتب التعليقات الساخرة الخفيفة ، وأحيانا أحرر باب « من أدب القرآن » وهو باب كنا نستغله فى معارضة الحزب الذى كانت الجريدة تنتمى اليه ، دون أن نقول أننا معارضون ، فمثلا كان رئيس الحزب يدافع عن وجهة نظر الوزراء فى ارجاء اعادة الدستور فننشر أقواله ونضعها فى اطار نكتب فى صدره هذه الآية الكريمة « استغفر لهم أولا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ٠

وكنت الى ذلك الحين ، لا أكتب مقالات تحمل اسمى ، كنت أدخر ظهور الاسم ، لأكتب موضوعا جديدا أو حديثا فيه شىء جديد ، وفكرت ٠٠ فكرت أن أنشر عدة أحاديث مع بعض رجال السياسة اللامعين ، واخترت للحديث الاول « حافظ رمضان باشا » رئيس الحزب الوطنى ، وكان انسانا ذكيا ، واسع الثقافة والادب والتاريخ وبرلمانيا خطيرا ٠

وذهبت اليه فى بيته ووجهت اليه اسئلتى ، ودونت اجابته بامانة ودقة ، وحملت أوراق الحديث الى الأستاذ محمود عزمى والفرحة تكاد تقفز على ملامحى ، فقد استطعت أن أفعل شيئا ، واذا برئيس التحرير يقول لى : « هذا مقال بقلم حافظ رمضان وليس حديثا صحفيا ، أنا أريد حديثا يقوم على الحركة ، والأخذ والجذب بينك وبين حافظ رمضان باشا ، ووصفا لتلقيه السؤال وكيف يبدو وهو يجيب عليه » ثم فتح محمود عزمى درج المكتب ورمى فيه بالاوراق ، وخرجت من عنده وأنا أجرجر قدمى من الاحساس بالفشل وفكرت أن أتراجع عن مهنة الصحافة ، وألا أجرب حظى مرة أخرى مع الاحاديث الصحفية ، ولكنى جمعت كل قلبى وعقلى وتأملت خطوط ملاحظات رئيس التحرير ، وفكرت فى ضرورة البدء على هداها فى اعداد حديث صحفى خطير ، وفعلا حققت بارادتى هذه التجربة مرة أخرى ، وعاودت الحديث مع حافظ رمضان باشا وكتبت حديثه مرة ثانيه ونجحت الى الدرجة التى كان محمود عزمى يدرس أحاديثى الصحفية على طلبة معهد الصحافة آنذاك ، وكان الفارق بين أن أتراجع وبين اقدامى على التجربة ، هو أننى عرفت لماذا فشلت ، ودفعنى احساسى بالفشل الى اعادة التجربة » ٠

ولانه أشهر من أجاد الاحاديث الصحفية وكتابتها ، فقد استجاب له الرئيس جمال عبد الناصر وخصه بأول حديث له فى الصحافة العربية والاجنبية على مدى أربع ساعات متصلة ، وقد تناول الحوار بينهما الاتحاد القومى والوضع الاقتصادى والاجتماعى ومصير المعتقلين السياسيين ، وتمكن أن يعرف منه الكثير من الاخبار وتوقعات المستقبل ٠

والسؤال : هل كان كامل الشناوى مؤيدا لثورة ٢٣ يوليو ؟

والجواب : نعم • كان معها فى حتمية التغيير • وكان معها فى مواجهة الاستعمار والظلم والجهل ، وكان معها فى نزعتها القومية وانتمائها العربى •• وهو الشاعر الذى يحفظ تراث العرب بكل مافيه من نخوة واخوة وكرامة • ولكنه فى كل ذلك • كان ينطلق من مثاليته الفكرية ورمانسيته الشعرية العاشقة للجمال والخير والعدل والحرية !

يقول أنيس منصور : «كامل لم يفلح ــ وما كان يستطيع ــ أن يعقد زواجاشرعيا بين السياسة والادب ، وكل كاتب لابد أن يكون سياسيا ، ولابد أن يكون له موقف من القضايا الانسانية ، لابد أن يكون له رأى وأن يلتزم به ، وكامل الشناوى اختار أن يكون عاشقا للسياسة ، وأن يكون عاشقا للقضايا الانسانية ، ولم يكن زوجا قط ، فليس فى كل ماكتبه كامل الشناوى نثرا أو شعرا ما يدل على أنه من لون سياسى وانما هو صديق للساسة ، فالصداقة أولا والفن ثانيا ، لان حياة كامل الشناوى هى فى علاقته بالناس ، فالعلاقة هى أذرع تمتد حوله ، يعيش بها ولها وضدها أيضا » •

سأله أحد تلاميذه من الصحفيين وكان لاذع اللسان : كيف تستطيع أن تنافق كل هؤلاء الناس ؟ كيف تأتيك القدرة على أن تظل صديقا للجميع وأنت الفنان الذى ينفعل ويضطرب ويتألم ويصرخ أحيانا فى شعره وفى فنه صراخا رهيبا عنيفا سيظل يدوى أبد الدهر فى سمع الوجود ؟

ويبدو أن السؤال كان قاسيا على الكهل الذى بلغ الخمسين آنذاك ، فقال وهو يكبت فى نفسه غضبا ثائرا : تعودت أن أجامل الناس ، وماتسميه انت نفاقا ••• أسميه أنا مجاملة !

وفى سبيل هذه المجاملة رزحت نفس كامل الشناوى تحت أثقال من العذاب ، فهو عضو فى الحزب الوطنى ، ولكنه فى نفس الوقت صديق لساسة الأحزاب الأخرى وهو يكتب ضد بعض مواقف حزب الوفد ، لكنه يؤمن بأنه حزب الاغلبية ، ينشد العدل والعدالة الاجتماعية ويدافع عنهما ولكن نصف دفاع ، فلاهو بالاشتراكى العلمى أو الاشتراكى « الفابى » ولاهو مناضل يعرض نفسه للسجن والاعتقال وان مد يد المساعدة الى أسر المعتقلين من الثوريين فذلك أضعف الايمان ، وكان يخوض المعارك عندما يكون الجو ممهدا ويكون الصدام بعيد الاحتمال ، ولامانع من معاودة المعارك اذا ماتهيأت الفرصة وضمن الأمان • وهو مايفسر موقفه من احتضان التقدميين والأفكار التقدمية ابان رئاسته تحرير الجريدة المسائية • عندما ضمن صاحبها أحمد حمزه باشا حمايتهم وكان صاحب نفوذ اقتصادى وسياسى !

يصف أحد أصدقائه موقفه السياسى فيقول : « ذكاء كامل الشناوى ينتمى الى فصيلة « الذكاء العام » للشعب ، فلقد خاض الشعب المصرى عبر تاريخه الطويل آلاف المعارك ، وشهد عشرات الغزاة والمحتلين ، ولم يلن الشعب ولم يستكن ولم يهدأ ، بل ظل يقاوم ويناضل ، وذهب كل الغزاة ، وبقى الشعب •• ذلك لانه آثر ألا يدخل معركة حاسمة مع أعدائه قد تنتهى بابادته » •

وكامل الشناوى برغم مآخذ خصومه كاتب وطنى شريف ، اختار ان يقف مع الشعب ومع أمانيه وآلامه ، وطموحاته الى العدل والاستقلال ، وهل ينسى جيلنا حملته الصحفية الشهيرة التى تردد صداها فى طول مصر وعرضها عام ١٩٤٩ ، عندما كتب يعارض معاهدة « صدقى ــ بيفن » تحت عنوان « ألعنها •• ولا أوقعها » •

لقد أيدت الجريدة التى كان يعمل بها اسماعيل صدقى باشا فى فرض المعاهدة وكانت لاتزال مشروعا •• لكن كامل وقف فى وجه أصحاب الجريدة بقوة ، وانبرى



يعارضهم على صفحات جريدتهم ، ويدعو الشعب الى رفض تلك المعاهدة التى كانت قيدا جديدا يكبل مصر ٠٠ ولم تكتمل مؤامرة المعاهدة وماتت قبل أن تولد ٠

وكان خصوم كامل الشناوى في السياسة وغيرها ، يخشون مقالاته الهجومية وسخرياته اللاذعة كلدغ الثعبان ، فاذا ما التقى بهم بعد ذلك ، بادر الى ملاطفتهم بظرفه ونكته وحديثه العذب ، وكان هذا أسلوبه المتمكن فى انتزاع فتيل الغضب من خصومه قبل أن يحدث الصدام والانفجار ، وهل ينسى الوسط الصحفى مدى كراهية صلاح سالم لكامل الشناوى عندما كان وزيرا للارشاد فى بداية ثورة يوليو ، وكيف تحولت العلاقة بينهما الى صداقة ومحبة وثقة ٠

كان صلاح سالم قد تولى رئاسة مجلس ادارة جريدة الجمهورية فى الوقت الذى كان كامل رئيسا للتحرير ، وتوجس صلاح سالم من كامل الشناوى وفكر فى أن يختار اسما كبيرا يوضع فوق اسماء رؤساء التحرير ، فاذا بكامل يبادر بترشيح طه حسين لهذا المنصب ٠٠ وغدا كامل بعد ذلك كل شيء عند صلاح سالم !!

وفى عام ١٩٤٤ تولى الحكم الدكتور احمد ماهر باشا ،وكانت هذه أول مرة يصعد فيها احد المنشقين على الوفد الى منصب رئيس الوزراء ، وكانت مناسبة أقام لها أحمد ماهر حفلا ساهرا فى بيته أحيتـه أم كلثـوم وحضره الملك فاروق ، وكان الملك قد سمع بمهارة كامل الشناوى فى رواية الشعر والظرف وتقليد الاصوات ، فطلب أن يلتقى به كامل وكان من الحاضرين وأعجب برقته وحديثه الضاحك ايما اعجاب !

ولما علم الملك أن هناك اتجاها الى ترشيح كامل لعضوية مجلس النواب ، أمر بأن يكون ترشيحه فى دائرة « الزعفران » ، وهى دائرة تتبع أوقاف الخاصة الملكية، كان الملك يملك فيها الارض ومن عليها ، ونجح كامل الشناوى نجاحا ساحقا ٠

ولما وقع الاختيار على عشرين صحفيا للانعام عليهم بالرتب ، كان كامل واحدا منهم ونال « البكاوية » ، وكانت له سخرياته ونكته اللاذعة على الرتبة ، وكان يدخل مقهى وبار الأنجلو ، ويصيح فى جلسائه « وسع يافندى انت وهو لسعادة البيه » ٠

ثم نجد كامل الشناوى – بعـد ذلك – لايستسلم لمحاولات شرائه بالرتبـة ٠ حيث يبرز دوره فى معركة من معارك الحرية عام ١٩٥٠ عندما حاول الملك أن يمرر تشريعات الصحافة فى مجلس النواب ، ويحمل كامل الشناوى قلمه كالمدفع يتصدى للعدوان على حرية الرأى ، ويتزعم حملة القلم خارج مجلس النواب ، وكانت معركة رهيبة من معارك الشعب انتصرت فيها الحرية ٠

ويظلم البعض كامل الشناوى عندما يضعون كتاباته وأفكاره وسلوكـه تحت مجهـر القوالب السياسية والايديولوجية لانه فنان أولا قبل أن يكون سياسـيا ويظلمونه مرة ثانية عندما يتهمونه « بالمزاجية » ، فلم يعرف عن كامـل الكاتب السياسى أنه وقف يوما بقلمه ضد ارادة الشعب وضد أمانيه ٠ بل كان دائما مـع الجديد من الافكار والتيارات السياسية ٠٠ وكان مزاجيا فقط فيما يتعلق بذاته وعواطفه وعلاقاته بالمرأة والناس ! ٠

ولقد قيل أنه لم يكن يقبل على العمل الصحفى ولايعطى فيه كثيرا ، واذا صـح هذا ، فقد كان لكامل الشناوى طاقات وقدرات انسانية وثقافية تمثل عنصرا رئيسيا من عناصر محبة العمل فى أي مكان ذهب اليه ، لقد كان ينشر البهجة أينما ذهب ، وذلك يجعل الصحفى والكاتب والاديب وعامل المطبعة ينتج فى يوم واحد ماينتجه فى يومين بلا بهجة ، لقد جعل كامل من البهجة حافزا من حوافز الانتاج فى كل بيئة مسها وعمل فيها !

ويتردد سؤال ٠٠ هل كسبت الصحافة كامل الشناوى على حساب الأدب ؟

يقـــول الكاتب الأديب صلاح حافظ ، وهو من أخلص أصدقائه وتلاميـــذه :
« كان يمكن لكامل الشناوى أن يترك ثروة من المسرحيات والروايات والكتب لو لـم تستنزف طاقته فى الصحافة ، وقد كان هو الضحية الاولى لهذا الطريق الذى شـــقه لنفسه ، فغادر الحياة وليس له فى المكتبة الا ديوان واحد من الشعر ، على أن الادب قد كسب فى الواقع من كامل الشناوى أكثر مما يعوض هذه الخسارة ، فالصحافة فى بلادنا كانت ولاتزال تمثل المنبر الاول للادب والثقافة ، وستظل الى وقت طويل تقوم بهذا الدور الذى يقوم به الكتاب والمسرح فى البلاد الاكثر تقدما ، ومن هذه الزاوية فان كل ماكسبته الصحافة من كامل ، قد انتقل تأثيره بصورة أو بأخرى الى عالـــم الأدب ، وكثير من الادباء اللامعين اليوم ، أخذوا عن الانتاج الصحفى لكامل الشناوى كثيرا من أسرار الصياغة الفنية ، والذوق ، واساليب التعبير ، ونادرا مايعثر الناقد فى انتاجنا الادبى الحديث على نسيج يخلو من بعض خيوط مقترضة منه » .

لقد عالج كامل الشناوى خلال عمله بالصحافة كل ألوانها ، كتب المقال ، والقصة القصيرة ، والخبر ، والحديث الصحفى ، والتحقيق ، فاذا بكل هذه الألـــوان من الصحافة تتحول على يديه الى ألوان من الأدب .

كان الأديب فيه يفرض نفسه على السطور .. وانعكس تأثيره عـلى كـل هـذه الالوان من الكتابة الصحفية ، فلم تعد كما كانت قبل أن يطرقها .

لم يعد الحديث سؤالا وجوابا ، وانما صار حوارا ذكيا ، له بناء يدعمه وصـــفا وتحليلا وايحاءات .

ولم يعد التحقيق الصحفى بلاغا بالأحداث ، وانما صار رواية فنية ، تلقى الضوء على الانسان فى علاقته بالحديث ، وتحاول أن تتعمق الى ماتحت ســـــطح الحقيقة الظاهرة .

حتى أخبار الجرائم والمحاكم ، تحولت على يد كامل الشناوى فى « الجـــريدة المسائية » الى قصص انسانية جادة ، عميقة الدلالة ، الأمر الذى دفع معظم الصحف فى ذلك الوقت الى تخصيص « صفحة قضائية » تسير على نفس المنهج .

هكذا تنفس الأديب فى كامل الشناوى ، ولكن على صفحات الصحف والمجلات وباشكال الكتابة الصحفية وألوانها .

طاقته الروائية أطلقها فى التحقيق الصـــــحفى ، وطاقته المسرحية أطلقها فى الأحاديث ، وطاقته القصصية أنفقها فى صياغة الاخبار ، وطاقته الفكرية والفلسفية أفرغها فى المقالات السياسية والتعليقات .

فهل كان ذلك كله خسارة للادب ؟

****

● وكامل الشناوى قام فى الوسط الصحفى والادبى والفنى بدور آخر أجـل شانا ، كان بستانيا يزرع الورد ويسقيه ويرعاه ، كان عاشقا من أخلص عشـــاق النبوغ اذا وجد فى انسان لمسة منه ، عندئذ ينجذب الى حبه ويتغنى بنبوغه ، ويضع يد صاحبها عليها حتى ينطلق ويتقدم ، وما من موهوب فى مصر خلال ربع القرن الذى انتهى برحيل كامل الشناوى الا وكان له فضل « تعميده » قبل ان يعرفه الناس ، وسواء أكانت هذه الموهبة جمالا فى العقل والوجدان ، أو جمالا فى الصـــوت ، أو جمالا فى الوجه ، كان يتحمس لكل موهبة حماسا شديدا بلا حدود ، وتتحول الموهبة عنده الى أغنية يرددها فى كل مكان ، يتحدث عنها ويكرر الحديث ، ولم يكن يســأم التكرار حتى تأخذ الموهبة حقها وتتالق !

بالطبع هناك كثير من الكتاب والصحفيين يتعهدون بعض المواهب في وقت أو آخر ·· وتلك سنة الحياة ، لكن كامل الشناوى كان مختلفا عن الجميع فى فهم معنى « رعاية المواهب » ·· كان يفهم هذه الرعاية فهما علميا عميقا خالصا ··

الأديب الناشىء مثلا يحتاج الى كتب ، اذن فليمنحه عشرات الكتب ، هـــدية لاتـــرد ·

ثيابه ليست كما يجب ، يصحبه اذن الى الترزى ، ويكسوه كما يجب ·

ليس له مسكن · تخصص له اذن غرفة فى بيته يعيش فيها الى أن يجد مسكنا ·

لا أحد ينشر انتاجه ، ينشره اذن كامل نفسه ، فاذا رفضت الصحيفة أن تدفع دفع هو من جيبه · وأخفى السر عن الاديب الناشىء ·

وهذا ماحدث لصلاح حافظ فى أول لقاء له مع كامل الشناوى ، أعجب بالقصة التى قدمها له ، وأمر بنشرها فى صفحة كاملة من « الجريدة المسائية » على حساب صفحة الأدب ، ودفع له الأجر من جيبه الخاص ، وجعله يعتقد انها من خزانة الجريدة ·· وكان موقف كامل منه أنه صاحب موهبة ، ولايهم بعد ذلك اختلافهما الفكرى أو الموقف السياسى المتباين ، وكان حال صلاح مع كامل الشناوى هو حال الشـــاعر اليسارى كمال عبد الحليم الذى طالب بعض اعضاء مجلس الشيوخ باعدامه بعدصدور ديوانه « اصرار » ·· اشترى مئة نسخة من الديوان وسجل قصائده بصوته وبخلفية موسيقية لبتهوفن ، فكان يدير جهاز التسجيل كلما دخل على مكتبه الزوار ، وكانوا يعجبون بالقصائد ويمتدحونها ويعتقدون أنها لكامل الشناوى ·· فاذا به يفاجئهم باسم الشاعر المغمور ويوزع عليهم نسخا من ديوانه ، ويظل يردد أشعاره واسمه فى كل مكان يذهب اليه وفى كل سهرة من سهراته ·· حتى ينتشر اسمه ويشـــق له طريقا الى الشهرة ·

ولم يكن كامل الشناوى يفرق بين موهوب يسارى أو موهوب يمينى ، فالمهم عنده أن تكون الموهبة فذة وواعدة ، والمهم كذلك أن يكون مطبوع الموهبة وانســـانا ووطنيـا ·

يقول : « الفن الأصيل شجاع وعنيد ·· لأنه يستطيع وحده أن يقتحم الخلود ، ويتحدى الزمن · وهناك قاعدة قديمة تقول أن الكثرة تغلب الشجاعة ·· ويمكن تطبيق هذه القاعدة فى مجالات كثيرة الامجال الفن ·· والشعر فن ! »

والطابور الذى خلفه وراءه كامل الشناوى ·· طويل ·· طابور من المواهب الصاعدة والمواهب التى صعدت بالفعل سلم الشهرة والانتشار والابداع والخلق ·· ومن أسماء الطابور الذى شق لهم الطريق ، نور الهدى و عبد الحليم حافظ ، ونجاة الصغيرة ، وبليغ حمدى ، وسعيد أبو بكر ، وفى الصـــــحافة محمد حسنين هيكل وصلاح حافظ ، وكمال الملاخ ، واحمد رجب ، وسعيد سنبل ، وحمدى فؤاد ومـــن الرسامين طوغان ويوسف فرنسيس وجورج وايهاب ، وفى الأدب يوســـف ادريس ود· مصطفى محمود وكمال عبد الحليم ، ومحمد الفيتورى ، ومعين بسيسو و ··

يقول مصطفى امين : « لم يكن كامل الشناوى صـــحفيا فقط » ولا شـــاعرا فقط ، انه قبل هذا انسان فيه من « الانسان » صفة ممتازة ، وهى أنه كان يحب أن يمد يده لكل من يحبو على مسرح الصحافة أو الفن أو الأدب ، ان كامل هو «الامبرازريو» الذى اكتشف كثيرا من النجوم ، وأعطاها اهتمامه وتاييده وتشجيعه ، وفتـح لهـــا الأبواب للانطلاق ، وكثير من الكفايات الشابة التى نراها اليوم ولدت فى مكتبه وفى سهراته ، وفى صالونه الأدبى المتنقل ، ولكنه فى هذا التشجيع مثل قلبه وهـــواه ،

يسلط الانوار على الموهوب ، حتى اذا عرف واشتهر ونجح ، راح يبحث عن موهبة مدفونة ، ينفض عنها التراب ، ويخرجها من تحت الانقاض ، ان شاعر الحب لايستطيع أن يستقر على هوى واحد ٠٠ والا لما نظم طول حياته سوى قصيدة واحدة ! » ٠

وكما كان كامل الشناوى مفيدا للمواهب الشابة ، فقد كانت فائدته منهـا جمة ، كان يشم في وجدانهم وأفكارهم الشابة نسائم الجديد وبشائر المستقبل الزاهر ، ولذلك كان متجددا دوما ، يجلس مع الشباب وتكتشف أنه متجانس معهم ، ويجلس مع أبناء جيله وتكتشف أنهم سبقوه في العمر وسبقهم الى المستقبل ٠

يقول الدكتور عبد العظيم أنيس : « في كثير من الاحيان كنت أسال عن سر كامل الشناوى الذى استطاع ان يعيش بلا غربة عن كل هذه الاجيال ، فاحس أن سر هذا الرجل الذى لا سر غيره ٠٠ هو المحبة ٠٠ فلم يعرف الحقد طريقه الى قلبـه ، وهكذا عاش ابنا بارا لهذا الشعب ، مؤمنا بقضاياه ، محبا لتراثه متجاوبا دائما معه في كل قضية من قضايا الفكر والتطور والحرية ، ساعيا بالخير دائما الى النـاس ، فسعى جميع الناس بالخير اليه » ٠

وهكذا ظل كامل الشناوى الصحفى والاديب والانسان ، ابنا للحياة وعبـدا عاشقا لها ٠

كان من فرط حبه للحياة يصنع الاحياء ، وماتشجيعه للناشئين وأخذه بيد كل موهبة ، الا لون من تلك الصناعة ، فبدلا من أن يصنع الشعر كان يفضل أن يصنع شاعرا ، وبدلا من ان يصوغ قصة كان يصوغ قصاصها » ٠

كان يفضل ـ على حد تعبير الدكتور مصطفى محمود ـ : « ان تكون مادته دائما الحياة ذاتها ٠٠ لا السطور ولا القوافي ولا الكلمات٠٠فماذا تقول الكلمات في النهاية انها في غايتها لن تكون أكثر من خادمة للحياة ، فلماذا لايكون في خدمة السيد بدلا من أن يكون في خدمة العبد » ٠

وكان كامل الشناوى يردد : « ان الصحافة أخطر وسائل الاتصال والتثقيف في شعب نسبة الأميين فيه تفوق المتعلمين ٠ ولذلك كان اختيار الصحفى المناسب لهذه المسئولية واجبا خطيرا يقع على عاتق القيادات الصحفية ٠ فلا تجوز المجاملة عى حساب الواجب الوطنى والامانة الصحفية » ٠

ولان كامل الشناوى ظل عاشقا للحرية ٠٠ مدافعا عن حرية الرأى ٠ من هنـا كان بحكم منصبه رئيسا للتحرير يدافع عن رأى الآخرين كما لو كان يدافع عن رأيه وان اختلف مع هذه الآراء ومع أصحابها ، وكانت جريدة الجمهورية في عهـده منبرا لمختلف الآراء الوطنية والتقدمية حتى أقصى اليسار ٠

ويقال ان كامل الشناوى لم يكتب سياسة بعد ثورة ٢٣ يوليو ٠ وأن ماكتبهمن مقالات سياسية في هذه المرحلة كانت رؤيه فنانللاحداث وأدبا سياسيا وقد يكونلهذا الرأى بعض الصحة فقد انهارت العروش وتقوضت الحزبية والاحزاب وخرج الاستعمار من البلاد ٠٠ وتلاشت معالم الحياة البرلمانية والافكار « الليبرالية » وتبدلت القضايا والأجواء التى عاش فيها صحفيا ولمع ٠٠

لكن أهمية كامل الشناوى الصحفية ـ برغم ذلك ـ أصبحت أخطر ٠٠ انهـا أهمية وجوده نفسه ٠ فالى جانب مناخ الحماس والتفاؤل الذى كان يشيعه فيكلمكان يعمل فيه والذى يمثل دوافع العمل وحوافز الانتاج ، كانت خبرته أيضا مطلـوبة وجاهزة للاجيال الصحفية الجديدة التى تخرجت من الكليات والمعاهد دون أن تتسلح بالخبرة الصحفية والتجارب الميدانية ٠

ثم ان كامل الشناوى فوق هذا وذاك • كان يمثل أحد عناصر التوزيع للجرائد والمجلات التى يعمل بها • فكان يسحب قراءه وراءه حيثما انتقـــل وكتب ، وكـــان المعلنون من رجال الأعمال وأصحاب المجـــلات والمصانع والمنتجين السينمائيين يصرون على نشر اعلاناتهم فى اليوم الذى يكتب فيه • أو بجانب المكان المحدد لمقالتـــه فى الصحيفة •

وكان يعنى دائما بأبواب الأخبار وهو المخبر الهمام الذى تفوق على كل المخبرين فى عصره وأوانه • فكان يهتم فى الخبر بعناصره الاساسية ودقة مصادره • وحســن صياغته • وكانت هوايته صياغة الاخبار بنفسه حتى بعد أن أصبح رئيسا للتحرير •

وأكثر ما كان يبهره فى الرسالات السماوية جانب الأخبار وأنباء الأولين فيهــا ولغة الحديث عنهم وكان يرشدنا الى مواطن السحر والبلاغة فى لغة السير والأخبار التى أتى بها القرآن الكريم ، ومافيها من وضوح وتحديد وتشويق وغايات !

الفصل الثالث

شاعر الحب .. وطيش الكهولة



● وصف الاستاذ عباس العقاد كامل الشناوى بأنه « شاعر العصر وأوقع راوية للشعر على الاطلاق » وقد انفرد بين شعراء عصره برقة الكلمة المنمقة ·· التى جعلت نثره لونا من الشعر ، وجمال القصيدة المنظومة التي جعلت شعره العاطفي لونا من الموسيقى · أما شعره الوطنى فكان ايقاعا هادرا بالجمال والاقدام والأمل ـ ولعل قصيدته « أنا الشعب » التى شدت بها أم كلثوم توضح بجلاء خاصيته الشعرية المتميزة فى هذا المجال :

على باب مصر ، تدق الأكف ، ويعلو الضجيج
جبال تدور ، رياح تثور ، بحار تهيج
وتصغى ! وتصغى !
فتسمع بين الضجيج سؤالا وأى سؤال !!
وتسمع
فتسمع بين الضجيج سؤالا وأى سؤال !!
أين ؟ ومن ؟
وكيف اذن ؟!
نعم ·· كيف أصبح هذا الجلال
بأقصى مداه
·· حقيقة شعب
غزاه الطغاة ، وأى طغاة !
أمعجزة مالها أنبياء ؟!
أدورة أرض بغير فضاء ؟!

وتمضي المواكب بالقادمين
من كل لون وكل مجال
فمن عصر مينا الى عصر عمرو
ومن عصر عمرو لعصر جمال
وكل تساءل في دهشة !!
وكل تساءل في لهفة :
إين ؟ ومن !؟
وكيف اذن !؟
أمعجزة مالها أنبياء !؟
أدورة أرض بغير فضاء !؟

***

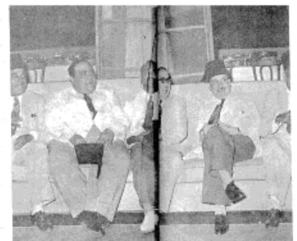
وجاء الغزاة
جميع الغزاة
فأبدوا خشوعا
وأحنوا الجباه
وكل تساءل في دهشة
وكل تساءل في لهفة :
أمعجزة مالها أنبياء !؟
أدورة أرض بغير فضاء !؟
والشعب بين الجموع وجوها
يرف عليها حنان الاله
ففيها الفكر والعبقرى
وفيها النقاة ، وفيها الهداة

***

« موسى » ، لشق عصاه الزحام
وذلك « عيسى » عليه السلام
وهذا « محمد » خير الانام
أمعجزة مالها أنبياء !؟
أدورة أرض بغير فضاء !؟
فأين تحقق ما كان حلما
ومن ذا الذى يأترى حققه !؟
وكيف تحرر من أسره
سجين الزمان !؟ ومن أطلقه !؟

***

لقد شاد بالأمس أهرامه
بأيد مسخرة موثقة
على ظهره بصمات السياط
وأحشاؤه بالطوى مرهقة !!





... وها هو يبنى بحرية
معالم آماله المشرقة
بسد منيع ، عجيب البناء
يبث الرخاء ، ويوحي الثقة
فأرزاق أبنائه مطلقة
وليس بهم سيد أو مسود
فكل سواء بلا تفرقة
أمعجزة مالها أنبياء !؟
أدورة أرض بغير فضاء !؟

***

وصاح من الشعب صوت طليق
قوى ، أبى ، عريق ، عميق
يقول : أنا الشعب والمعجزة
أنا الشعب لا شيء قد أعجزه
وكل الذى قاله أنجزه !!

***

فمن أرضى الحرة الصامدة
بنيت حضارتنا الخالدة
بقوميتى واشتراكيتي
بنبض العروبة فى أمتى

***

أنا الشعب ، شعب الذرى والقمم
زرعت النخيل ، صنعت الهرم

***

رفعت المآذن فوق القباب
بنيت المداخن لعلو السحاب

***

أنا الشعب لا أعرف المستحيلا
ولا أرتضى بالخلود بديلا
بلادى مفتوحة كالسماء
تضم الصديق ، وتمحو الدخيلا
أنا الشعب ، شعب العلا والنضال
أحب السلام ، أخوض القتال
ومنى الحقيقة ، منى الخيال
وعندى الجمال ، وعندى جمال

وفى قصائده العاطفية . يكاد المرء لا يحس أنه يقرأ شعرا ، وانما حكايةمغناة، حتى لكأن حروف المطبعة تذوب أمام العين لترسم مكانها علامات موسيقية يطل منهـا كامل الشناوى وهو يروى حاله مع الحب والمحبوبة .

فى قصيدته الشهيرة « لاتكذبى » يصور كامل الشـــناوى مأساته مـع آخـر محبوباته فى رقة وألم يعتصر قلبه ويسكبه دموعا ولوعة :

لاتكذبى ..
انى رأيتكما معا
ودعى البكاء
فقد كرهت الأدمعا
ما أهون الدمع الجسور اذا جرى
من عين كاذبة
فأنكر وادعى !!

***

انى رأيتكما
انى سمعتكما
عيناك فى عينيه
فى شفتيه
فى كفيه
فى قدميه
ويداك ضارعتان
ترتعشان من لهف عليه !!
تتحديان الشوق بالقبلات
تلذعنى بسوط من لهيب !!
بالهمس ، بالآهات ، بالنظرات
باللفتات ، بالصمت الرهيب !!

***

ويشب فى قلبى حريق
ويضيع من قدمى الطريق
وتطل من رأسى الظنون تلومنى
وتشد أذنى !!
فلطالما باركت كذبك كله
ولعنت ظنى !!

***

ماذا أقول لأدمع سفحتها أشواقى اليك ؟
ماذا أقول لأضلع مزقتها خوفا عليك ؟
أأقول هانت ؟

أأقول خانت ؟
أأقولها ؟
لوقلتها أشفى غليلى !!
ياويلتى ..
لا ، لن أقول أنا ، فقولى ..

***

لاتخجلى
لاتفزعى منى
فلست بثائر .. !!
انقذتنى ..
من زيف أحلامى وغدر مشاعرى .. !!
فرأيت انك كنت لى قيدا
حرصت العمر الا أكسره
فكسرته !
ورأيت أنك كنت لى ذنبا
سألت الله ألا يغفره
فغفرته

***

كونى كما تبغين
لكن لن تكونى .. !!
فأنا صنعتك من هواى ، ومن جنونى ..!!
ولقد برئت من الهوى ومن الجنون .. !!

****

● أجمع الشـعراء والنقاد على أن كامل الشناوى برغم القصائد الوطنية العديدة التى نظمها ، يستحق عن جدارة لقب « شاعر الحب » ، وذلك أن الحب كان دائما طعامه وهواءه ومحور حياته .

وعندما دعا الشعب فى قصيدته الوطنية الى كراهية الانجليز « تعلم كيف تكره »، فكأنما كان يحرض نفسه ، ويحاول أن يجبرها على شىء لا تعرفه ، فهو قد حـاول طول حياته أن يكره .. ولم يستطع !

وكان كامل الشناوى يكتب فى كل اغراض الشعر ، وصفا ، ومديحا ، وحماسا، ورثاء ، ولكن الحب استحوذ على معظم اهتماماته الشعرية .

ولانه لم يتزوج قط ، كان شعره أداته ووسيلته ، يستطعم به الجمال ويتنفس به الحب ، فاذا لم يسعفه الوحى والخيال شعرا ، استعان بلمحاته الشعرية ، وهى رسائل الحب التى كان يبعث بها الى آخر معشوقاته ! وكان يكتبهـا تحت عنوان « ساعات » فى الصحف التى عمل بها . وفى قصاصات أوراقه الخاصة التىصدرت بعد وفاته فى كتاب « حبيبتى » التى ضمت عددا من رسائل الحب التى كان يبعث بها الى آخر معشوقاته ! .

ولان كامل الشناوى صحفى لامع ، لذا كان شعره ونثره يجدان طريقهمـا

سريعا الى النشر والانتشار ، ليس فقط في وسائل الاعلام ، ولكن أيضا في صالونه الادبي الذي كان ينتقل معه في سهراته ومجالسه • ومن هنا كان قراؤه وأصدقاؤه يعرفون أولا بأول • آخر تقلباته ، بل ويكادون يتبينون اسماء محبوباته ، وما وقع بينه وبينهن من لقاء وصفاء ، وهجر وصد ، وانفصال وقطيعة •

ونثر كامل الشناوى الأدبي ألوان من القصص القصيرة جدا ، والخواطر اللماحة ، والتأملات الفلسفية ، والحوارات الذكية • وقد أضفى عليها من شاعريته موسيقى وعذوبة ورقة وأناقة واثارة •• حتى لكأنها نثر منمنم كالدانتيل البديع •

كتب يصف انفعاله بالجمال في احدى نثرياته الشعرية :

« الى أين يقودني الجمال ؟ وهل الناس جميعا مثلي : يعذبهم اذا رأوه ويعذبهم اذا احتجب عنهم ؟

« كم أعاني من انفعالاتي به ، انها تثير في نفسي القلق ، والريبة ، والرعشة ، وكم الهبتني هذه الانفعالات وأضرمت النار في دمي ونبضي ، وما حاولت يوما أن أفر منها ، فهي مثل الحياة تشقينا ، ولكنا نحرص عليها ونتشبث بها ، نمارسها لنحيا ، ونحيا لنمارسها !

« انني أحب الجمال ولو تحول الى خنجر يسكن ضلوعي ، يجول فيها ، ويتلوى ويقفز ! أحبه في فكرة ، كلمة ، لوحة ، نظرة ، اشارة ، شروق ، ضباب ، حقيقة خيال ، بحر هائج ، رياح عنيفة ، نسيم ضعيف ، نغمة تنساب من حنجرة ، أو آلة موسيقية ، أو كعب حذاء !

« ولاتدهش •• فقد اهتز كياني ، وأنا أسمع صوت حذاء عال يمر بجانبي ، ووجدتني بغير ارادة ، اتجه اليه بكلتا عيني •• كان يضم قدمين صغيرتين ، تمهدان لساقين رشيقتين تعرتا بجورب من الحرير •• يعلوهما قوام يتثنى بخفة في فستان يتحدى برد الشتاء •• وقد برز من القوام صدر جذاب يعلو ويهبط في خفوت كبقايا موجه ، أو ضوء شمعة تعرضت لنسمة عابرة •• وقد بدا على الصدر عقد من اللؤلؤ ، وضع فيه نهدان متمردان ! وأطل فوقه عنق ممشوق يحسن التعبير عن لفتاته بسحر ولباقه •• واستسلم العنق لوجه باهر القسمات ، اكتسى بحمرة الورد ، وبياض المرمر •• العينان زرقاوان ترفرف عليهما أهداب سوداء ، والخدان ينبضان بالحرارة كقبلة الفراق ! والأنف دقيق ينسحب الى الشفتين في كبرياء ، والفم ملء بالرقة والأذنان الرقيقتان انسدلت عليهما خصلات الشعر الناعم الأصفر لتغطى الأذنين وتحجب عنهما صيحات الاعجاب !

« اختارت الفتاة احدى الموائد • وجلست ، وانتقلنا اليها بنظراتنا وأنفاسنا ، كان فوق المائدة مصباح التف بغلالة زرقاء ، انه لايرسل أشعته في صمت كهذا المصباح الجاثم فوق مائدتنا •• ان أضواءه تكاد تصرخ ، وتعربد •• فالنور المنبعث منه يتمايل ، ويترنح ••

« كانت وحدها •• هكذا رأينا ، عندما مشت أمامنا ، وعندما جلست بالقرب منا •• وكنا سمعنا صوتها ، هل تحدث نفسها ؟ وكيف رمقنا مائدتها بأعيننا ، فوجدنا معها شخصا •• ولم نعترف بوجوده ، فحيث يكون الجمال ، لانستطيع أن نعترف بغير الجمال ! »

يقول مصطفى أمين في كامل الشناوى العاشق : « كان برغم بدانته سريع التنقل ، وخصوصا في حبه وهواه ، قلبه مثل برامج السينما التى تتغير كل اسبوع ، وكل رواية تعرض على شاشة قلبه هي « آخر صيحة » وهي « أقوى ما عرض حتى الآن » ، فاذا انتهى عرض الفيلم ، ارتدى الفيلم الجديد نفس الثوب ، وتحلى نفس



الأوسمة والنياشين ، وفي الفترة التى كان يحب فيها كامل الشناوى ، يصف المحبوبة بكل الأوصاف الحلوة والنعوت الضخمة • ثم ينسدل الستار عن المعشوقة فجأة • وتحل مكانها المعبودة الجديدة ، وهكذا كان قلب كامل الشناوى مثل جمهوريات أمريكا اللاتينية ، مليئة بالانقلابات والتغيرات » •

والانسان مطبوع على الحب ، طفلا وصبيا وشابا وكهلا وشيخا . وكامل الشناوى عرف الحب منذ كان صبيا وكانت آخر معشوقاته وهو فى معمعة الكهولة . ورغم ذلك قال فيها شعرا شابا ملتهبا • وسبها نثرا صارخا كضربات ملاكم •

عن موقفه من الحب .. قال كامل الشناوى : « الحب شوق وحرمان . لهفة دائمة . عذاب ولكنه يطاق . الانتصار فيه ليس كالانتصار فى كل الاشياء . فاذا وجدنا مانسعى اليه كان فى هذا نجاحنا .. أما هو فعلى عكس ذلك .. فاذا وجدناه وحصلنا عليه . فمعنى ذلك أنه خاب . والحب ضروره للانسان . والاديب أو الفنان انسان كبير . اذن فالحب بالنسبة اليه ضرورة كبيرة . ومن هنا كان لزاما على كل اديب وفنان أن يحب • وأحببت مرات ومرات ! »

وعن حبه الاول يقول : « لست أذكر على وجه التحديد كيف كانت قصة حبى الأول • كل ماأذكره أننى كنت صبيا لم أدخل بعد مرحلة الشباب • كان حبا ساذجا لم ينته الى غير الشوق والنسيان . كانت تربطنى بها أواصر قربى . كنا نلتقى فى منزلنا أو منزلها كل يوم • أحسست نحوها شعورا غامضا • ونجدته يدفعني اليها وفى نفس الوقت يبعدنى عنها . كنت اتمناها زوجة ... ولكنى كنت اتهيب أن أهمس لها بكلمة حب واحدة • كان الحديث يدور بيننا قصيرا جادا • وحركت هذه الحادثة شيئا حلوا جميلا فى قلبى كنت نسيته لان العيون حولنا كثيرة • كنت صبيا صغيرا لم يزل يخشى الحب .. وأفترقنا . و .. ولما كبرنا التقينا مصادفة ، جمعتنا المفاجأة المدهشة فى منزل الاسرة بعد سنين طويلة من عدم اللقاء • كانت حبيبتى قد تزوجت وانجبت • وفى لحظات هادئة صارحتها بما كان فى نفسى نحوها وانا صبى •قصصت عليها شعورى زمان . وضحكت هى الاخرى من هواجس نفسى ، وقالت أنها كانت تبادلنى نفس المشاعر والاحسيس فى ذلك الحين • ولكن الوقت قد فات • وهكذا دارت بى الايام دورتها . وكما احببت فى صباى احببت فى شبابى .. والى الآن مازلت اتشبث بالحب . ولم اكن فى شبابى سعيدا بالحب . ومن هنا يمكن الاجابة على السؤال : هل انا فى كهولتى مع الحب .. شقى أم سعيد ؟! »

ذلك كان اعتراف كامل الشناوى يوما عام ١٩٦٠ . حب الصبا المكتوم الذى ضاع • وشقاء شبابه بالحب .. فماذا بقى له من مؤهلات الحب فى كهولته ؟ •

ان يضيع الحب فى مرحلة الطفولة والصبا .. فذلك امر مفهوم فى سيرة كامل الشناوى .. فربما كان السبب يرجع الى بيئته الدينية ونشأته المحافظة فى الريف . وربما كان للبدانه والانطواء دخل فيما حدث . فمن منا لم يحب ولم يضع منه الحب فى ذلك العمر الغض ؟ !

ولكن كيف يشقى الانسان بالحب فى مرحلة الشباب والفحولة • واذا فشل مرة فى الحب • فما مصير تجاربه العاطفية مع غيرها وغيرها من المحبوبات ؟!

* * * *

•الشائع عن كامل الشناوى فيما روى عن نفسه ، وفى روايات الذين خالطوه فى مرحلة الشباب ، ان اول حب قاهرى فى حياته كان زمانه عام ١٩٣٠ ، ومكانه « المعادى » وكان اسم المحبوبة مدموازيل « س » وكان كامل الشناوى لايزال فى مقتبل العشرينيات •

كانت « س » آية في الجمال والرقة . رقة العود والصوت والسلوك . لكنتها تختلط فيها الكلمات العربية بالفرنسية فتتحول على شفتيها موسيقى وسحرا !

ذهب الى خالها يتلقى على يديه دروس اللغة الفرنسية استعدادا لدراسة الحقوق في السربون . والتقى بها عدة مرات على انفراد . وبحث عن الشيطان ثالثهما كما تعلم في الازهر .. ولم يجد أمامه سوى لوحة ربانية لا شرقية ولاغربية . ولكنها مزيج حضارى فريد ونبيل .. كانت قطعة من الفن والجمال . من الحقيقة والخيال . كلماتها تغريد . وسكناتها نسائم . ونظراتها ضياء الفجر ..

لقد غيرت « س » من نفس كامل العاشق أشياء كثيرة . ووضعت مكانها اشياء اخرى . طالب الازهر ابن احد كبار العلماء . وابن اخ شيخ الازهر ، اصبح شابا « اسبور » . خلع من قلبه العمامة قبل أن يخلعها عن رأسه . سمع منها لاول مرة عن نظرية « دارون » . وأسمعته السيمفونية الخامسة لبيتهوفن ، وعلمته اصول « الاتيكيت » . وفتحت امامه افاقا على دنيا جديدة !

ولمتخل مواقفه معها من طرائف . كان أول الامر يسير معها فيسبقها ويسرع ليجعلها وراءه كعادة الرجال مع النساء في عائلته . واذا قابلهما احد معارفهما ابتعد عنها .. فتناديه فيأتي خجلا كأنه ضبط في موقف شائن !

ورأى الرجال في عائلة « س » يقبلون أيدى النساء وفكر في ان يقلدهم .وعندما التقى بها نسى نفسه وهو يقبل يدها . فهم برفع يدها الى جبهته كما يفعل عادة مع والدته ووالده وعمه . ولكنه ادرك حرج الموقف بسرعة وتوقف ..

يحكى الاديب عباس خضر . وكان زميلا لكامل الشناوى في الأزهر .. كيف لعب هوى المعادى دوره الحاسم في حياة ابن الشيخ الشناوى : « اكثر الناس تأثيرا في تربية كامل الشناوى وتكوين شخصيته . والده . ثم حبيبة المعادى .. » كانت اسرة والدته على غنى ونفوذ . كان شقيق الوالدة محمد سعيد بك مدير الشرقية والغربية ، وهو من اوائل المديرين الذين حلوا محل المديرين الانجليز . وكان الصغير « كامل » يشعر باعتزاز وفخر بهذه الاسرة ذات النفوذ والغنى . ولكن الوالد كان حريصا على ان يجعله يدرك القيم الفاضلة التى تقوم عليها أسرة العلم والدين . كان يقول له : « اذا جاز للانسان ان يتباهى بشيء فأولى به أن يتباهى برجال يفيضون على الناس بالهداية والمعرفة . لا برجال يظلمون الناس .. ويأخذون أموالهم ، وكان لذلك اثره في نفس كامل من حيث تقديره للناس ونظرته اليهم . فكان أول ما يعجبه في الانسان ذكاؤه وكبرياؤه ولا يهم بعد ذلك ان يكون غنيا او فقيرا !

اما دور الانسه « س » محبوبة المعادى . فكان لها أقوى تأثير في مجرى حياة كامل الشناوى الشاب . لقد شغف بها وشغل حتى عن دروس خالها في اللغة الفرنسية وعن مواصلة الدراسة في فرنسا. وغرق في الشعر وغرق في الحب . وهجر الازهر بعد ان خلع العمامة . واختط له طريقا مختلفا في الحياة والعمل .. وقد صارح كامل حبيبته بأنه لا يفكر في الزواج . لانه كان يعتقد أن وجوده في الحياة مشكلة لم يصل ولا يطمع أن يصل الى حل لها .. فلا يريد أن ينجب مشاكل أخرى! كان يقول : « كثيرا ما سألت نفسي عندما أصبح شبحا محطما .. هل أواجه شيخوختى وأنا أتوكأ على عصا ؟ أم أتوكأ على زوجة ؟

ولم أتردد في أن اتمنى .. تمنيت أن تكون لى عصا ! » .

وكامل الشناوى تغزل في محبوبة الصبا بشعر مزيف لا يعبر عن نفسه .. كان تقليدا وترديدا لمعانى والفاظ الغزل التى قراها في شعر الشعراء . شكا من الهجر

وهى تلازمه . وعبر عن الغيرة ولم يكن هناك احد غيره . بعث اليها بالسلام علـى جناح النسيم وهى بجواره .

ويقول كامل الشناوى ان اول قصيدة نظمها فى حياته تعبر عن مشـاعره الحقيقية كانت فى حبيبة المعادى المدموازيل « س » :

المعادى أو نفحة من هواهـا
تودع النفس فى شذاها الشجونا
المعادى فقد تركت فـؤادى
فى رباها مشردا مجنونـا

* * * *

● فكرة الزواج اذن كانت عند كامل الشناوى مشكلة ٠ لانه اصلا مشكلة ٠٠ فكيف يخاطر باتجاب المزيد من المشاكل ويقذف بهم الى اقدار الحياة . هكذا كانت اجابته دائما كلما سئل عن سبب اصراره على العزوبية ٠٠ فهل كان صادقا ؟!

الواقع يقول عكس ذلك ٠٠ لان كامل الشناوى اقدم فعلا عـلى الزواج ذات يـوم ٠٠

كان ذلك عام ١٩٤٥ . وكانت الفتاة التى تقدم كامل الشناوى لخطبتها هى حفيدة شقيقة الاستاذ محمد التابعى الصحفى اللامع . كانت يومئذ فى السادسة عشرة من عمرها . وكانت بارعة الجمال . رقيقة . خجول . شديدة الانفة . منطوية على نفسها . ووافق اهلها . فكامل تربطهم به صلة قرابة . وهو قد وصل الى منصب رئيس تحرير آخر ساعة ومازال فى الخامسة والثلاثين . ولكن ما راى كبير العـائلة ؟

وأبرقوا الى محمد التابعى وكان يصطاف كعادته فى استانبول ٠ وأبرق اليهم بعدم الموافقة وعلم كامل الشناوى برأى التابعى ولم يفاتحه بعد عودته فى أسباب رفضه ٠٠

وكان التابعى يصطاف فى رأس البر بعد هذه الواقعة بسنوات ٠ ودعا الى « عشته » الفنان سليمان نجيب ومحمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم واحمد الصـاوى محمد وكامل الشناوى ٠

وفى احدى الامسيات كانا جلوسا على انفراد فى شرفة « العشـة » واحس أن كامل الشناوى متردد فى سؤاله عن أمر ما ٠٠ وأدرك بذكائه هذا الامر ٠

وبادره التابعى : تريد تسألنى لماذا عارضت فى زواجك من (٠٠٠٠) ؟

قال : نعم ٠

قال التابعى : انت يا كامل مولع بالسهر طول الليل ٠ تقوم الليل كله ٠ وتنام النهار كله ٠ فماذا تفعل زوجتك الشابة طول الليل ٠٠ ؟

وأنت طبعا لن تصحبها معك فى سهراتك هنا وهناك ٠ لانى اعرف أنك غيـور جدا ومحافظ جدا ٠٠ اذن فسوف تتركها فى المنزل ٠ هل تظن أن هذه الحياة يمكن أن تقبلها فتاة تعرف عن نفسها انها جميلة ٠ ثم هى شديدة الانفة والحساسية ؟ ماذا تكون النتيجة لهذا الزواج ؟

وصمت كامل طويلا ثم قال : أصبت ٠٠ الحق معـك ٠٠ ولكنى كنت أوثر أن تكتب لى برأيك هذا ٠ فاذا اقتنعت به عدلت عن طلب الزواج ٠ وانسحبت ٠

قال التابعى : لقد سالونى برقيا ٠ وكان مطلوبا منى أن ارد ببرقية ٠ ثم اننى

كنت أجهل يومها اين أنت ؟ هل فى القاهرة أم فى الاسكندرية هل أنت حانق علـــى يا كامل ؟!

ورفع كامل الشناوى رأسه وقال فى لهفة : أنا لم أحقد على أحد فى حياتى ٠٠ فكيف أحقد عليك ؟

وظل كامل يختزن بالألم ذكرى تلك الواقعة التى لم يعرف بها أصدقاؤه وكثير من أقاربه ٠ وبعد عشرين عاما تذكرها ٠ وتذكر كيف اضطر أهلها الى الاسراع بزواجها وكتب قصيدة يقول فيها : كل ما اذكره أنا انتهينا

وتولانى الضيـــــاع
حين أبصرت الوداع
لاتثر حولى ضجـــة
فلقد أصبحت زوجـــه

هل كان رفضه فى أول اقدام له على الزواج ٠٠ سببا فى تنحيته الفكرة بعــد ذلك ٠٠ واختياره أن يعيش أعزب حتى آخر أيامه !

ربما ٠٠ وربما اقتنع برأى أستاذه التابعى الذى وافق رأيه السابق فى نفسه٠ انه مشكلة ٠٠ وأن زواجه يعنى المزيد من المشاكل ٠٠

على أن كامل الشناوى وقد أصبح صحفيا ملء السمع والبصر ٠٠ وشـــاعرا ذائع الصيت ٠٠ فارقته عقدة الانطواء والعزلة ٠٠ ظل يبحث عن الحب ٠٠ الحب بأى ثمن ٠ كان كما المقامر الذى يلعب ويلعب لعله يعوض بعض خســارته ٠ وكأنه بالحب وفى الحب يهرب من شىء ٠٠ أو يبحث عن شىء ٠

وفى الأوساط التى كان يتردد عليها كامل الشناوى ٠٠ بدأ قلبه يتصيد الحب ٠٠ ينتقى المحبوبة ويحاصرها ٠٠ يدغدغ عواطفها ٠٠ بحلو الكلام ٠ ورقة الشعر ٠ وروعة الصوت ٠٠ وقد يغدق عليها المال والهدايا ٠ وقد يأخذ بيدها الى اجواء الشهرة ٠٠ وقد ٠٠ وقد تستجيب وتقع فى هواه ٠٠ ولكن سرعان مايدب الشقاق.

هكذا عاش كامل الشناوى العديد من قصص الحب والعشق. والالهام ٠ بعضها توافرت له مقومات الكمال والندية فى مقتبل شبابه ٠ ومعظمها تجارب طائشة ومتشابهة لاتتجاوز عواطف الصبا الجياشة ٠ حيث تتهيأ محبوبته فى كل قصـــة الى الالتقاء بالحب الكامل ، وارواء أنوثتها فى أحضان رجل أو رجال آخرين ٠٠

ولعل البيت الذى يقول فيه « اشترى الحب بالعذاب ٠٠ أشتريه فمن يبيع ٠٠ من يبيع ؟ » يكشف بوضوح أن طلبه للحب والقرب والوصال ٠ كان اكثر مما هــو معروض ، ومتاح فى مرحلة الكهولة ٠ وكان يصف نفسه بقوله « العجوز الطائش ٠ كالسهم الطائش ٠ كلاهما لايصيب الهدف ٠٠ ياويل من طيشى » :

نعم كان حبه دائما يندرج تحت باب « المستحيل » لانه كان يفتقد الى التكامل والندية ٠ والمتأمل لعبارات المناجاة والهمسات العاطفية فى نثره ٠ يتبين وبوضــوح حظه العاثر مع الجنس اللطيف ٠ مع ذلك الطراز « البرعمى » الذى كان يتحـــرق شوقا الى غرامه ٠ وقلة حيلته فى الوفاء بالتزامات الحب الكامل الذى يروى عطش المرأة التى تعيش ربيع العمر والجمال :

« اننى أعانى تناقضا رهيبا فى حياتى ٠٠ جسدى أرهقته الشيخوخـــة ٠ ومشاعرى لم تتجاوز بعد مرحلة الطفولة ٠ وتفكيرى فى عنفوان الشباب » ٠

وكان يخاطب نفسه قائلا : « احتشم ياقلبى ٠٠ فالحب طيش وشباب ٠٠ وأنت طيش فقط ! » ٠

كان الحب لكامل الشناوى وقودا للقلب • ومحركا لنبضاته • والهاما لخياله وابداعه • وسببا للتعلق بالحياة • وما الذى يبقى له أن يعيش من أجله سوى التعلق بالحب : « أحيانا تنتابنى حيرة لاأستطيع معها أن أحزن أو أفرح •• لأن الأيام التى تنقضى من عمرى تزيد من سنى ، وتجربتى وثقافتى • وانفعالى بالجمال • فكيف أحزن على النقص •• ولاأفرح بالزيادة ؟ •• اننى دائما ناقص وزائد » •

وكامل الشناوى كان يستعذب الألم فى الحب • ويرتشفه • ويعيشه • ويصطنع لنفسه من عذاباته عالما خاصا من فلسفته للحب • تمثلتها حياته وشعره وحواراته اللماحة :

سألنى : ألاتزال تحب ؟.. قلت : ربما •

ـ ألا تعترف أنك لم تظفر من الحب الا بالعذاب ؟

قلت : وما هو الحب ؟

ـ التقاء عاطفة بعاطفة •

قلت : ان هذا الالتقاء هو عود الثقاب الذى يشعل نار الحب فاذا اشتعلت النار التهمت الإلتقاء والتهمت أيضا عود الثقاب •

ـ قل لى أنت ماهو الحب ؟

قلت : الحب أن تتعذب وحدك ولاتفرض العذاب على سواك

ـ ومتى تتعذب وحدك ولاتفرض العذاب على سواك ؟

قلت : أنا فى العذب أنانى •• أستأثر به لنفسى •

ـ ما أسعدها •

قلت : ما أشقاها وما أشقانى •• فقد يصحو ضميرها ذات يوم فتعانى عذابى• وتتركنى وحدى بلا عذاب •

يوما زاره الممثل سعيد أبو بكر ومعه أحد أقربائه • رجل تجاوز الخمسين ثرى من أثرياء السويس ، جاء الرجل يسعى الى شاعر الحب يعرض عليه حاله مع حبيبته التى هجرته •• وخانته •• يسأله ماذا يفعل معها ؟ وماذا يفعل مع نفسه ؟

كانت تصغره بأكثر من عشرين عاما • رقيقة وجذابه ومثقفة • وكان قد بذل فى سبيل حبها وقربها وزواجها الآلاف •• وطلب النصيحة والمشورة من كامل الشناوى •

وفوجئنا باجابته : « هى لم تفعل الا الصواب • فالغدر شيمة حواء • واذا لم تكن قد فعلت مافعلت فهى ليست بالمرأة الكامله الأنوثة • المشبوبة العاطفة • لقد فازت بالحرية وتركت لك الألم •• يابختك !»

وذلك أيضا كان موقفه من الانسانة التى تهجره أو تكرهه أو تخونه • كان لايكف عن مواصلة حبه لها • مادامت قد وقعت فى بؤرة الضعف من قلبه وذابت فى أعصابه ووجدانه • بل ربما كان ذلك أدعى لاضرام النار فى القلب العجوز • فيتوهج • ويضىء •• فى حواره مع حبيبته يقول :

سألتنى : هل تحب الجمال ؟

قلت لها : اننى فيه •

قالت : أى أنواع الجمال أحب اليك ؟

قلت : الجمال الذى يكرهنى •

قالت : وهل أنا جميلة ؟

قلت : وأحبك •

وكامل الشناوى عرف « الحب الكامل » وشرب منه وغرق فيه .

ولعل أعمق قصة حب لكامل في حياته وأبعدها أثرا كانت فى السابعة والعشرين من عمره . وهى التى أطلقت ملكاته الشعرية من عقالها العاطفى . وفجرت مشاعره المكبوته فلم يهتم لا بالتقاليد الموروثة ولا بالشهرة أو المكانة الاجتماعية ..

كان ذلك عام ١٩٤٧ وكان لايزال يملأ الدنيا أملا وشعرا وغناء عـــذبا حالما . كانت غانية ، وكان اللقاء فى كباريه بديعة مصابنى . ذهب الى هناك يستروح مـــع أصـــــدقائه عناء العمل الصحفى . فوجـدها تتهاوى الى مائدته . وكان الصحفيون آنذاك لهم من الأهمية فى هذه الأماكن مالتجار الحرب والقطن والعمد وجنود الحلفاء من بريق جاذب . ونظر الى وجهها الملء بالأصباغ . والى يدها التى حرقت أصابعها السجائر . وترامت الى أنفه رائحة الخمر تفوح من فمها ورغم ذلك وقع فى هواها وأحبها ..

ظل يتنقل معها بحبه من كباريه الى آخر . ثم يصحبها فى آخر الليل بعيـــدا عن الأضواء . وظل على هذه الحال عامين . وأدرك أخيرا أنه غارق فى الحب الكامل . وأن غانيته مرحة اكثر مما يجب وطروب مع من يدفع أكثر . وثار لكرامتـــه وأدرك شقاءه وتعاسته وقرر أن يهرب . وعلى نفس مائدة اللقاء .. شربا معا نخب الفـراق .

وكانت له كعادة الشعراء الأوائل وقفات وزيارات للاطلال العاطفية ، وكثيرا ماكان يحلو له أن يقلب فى ألبوم ذكرياته العاطفيه .. ويحن الى ماضى الفحولة والعطـــاء المتبادل .

صحبنى ذات مساء الى احداهن . لبنانية الاصل ، أوربية الاسم وترجمته بالعربية « زهور » . كان اللقاء فى بار أنيق فى أحد الممرات الجانبية من شارع شريف . تحمل مسحة من الجمال الغارب . وبصمات السهر وأعمال الليل . شعرها الذهبى أصبح كالح الصفرة ووجهها مصبوغا بالمساحيق . وقوامها رغم اكتنازه مازال يتقن فن التثنى . ولكن عينيها ظلتا برغم الزمن شابة فى الثلاثينيات . تلمع فى الضوء الخافت بريقــا وسحرا وذكاء .. و ...

« ازيك يا كامل بك » و « ازيك يا زهور » .. وذكريات وضحكات كان صداها يصلنى فى المكان الذى جلست فيه بعيدا .. ولم أسأله عنها ولا عن ذكرياته معها . ولكن سهرة جمعتنا بالفنانة تحية كاريوكا فى شقته التى استأجرها بالاسكندرية صيف ١٩٦٣ فى الأزاريطة كشفت عن هوية « زهور » وعـــــلاقتها العاطفية بكامل الشناوى .

وكان قد فرغ من الشراب . ومن لعب « البوكر » مع جلال معوض وليلى فوزى وصلاح ذو الفقار وحرمه والسيد بدير وشريفة فاضل .. كان سعيدا بالصحبة الحلوة ونسمات البحر تندى مجلسه . عندما طلبت تحية كاريوكا منه أن يروى قصـــيدة العيون .

وكانت تحية كاريوكا تعرف الكثير من غرامياته مع الغانيات والفنانات . وكان يحترمها ويخشى لسانها . وذاكرتها . ولكنه تململ وحـــاول أن يشدنا الى حديث آخر .. واذا بتحية تسأله : ماشفتش « زهور » ياكامل بك .. مش فتحت بار ..

و .. كأنه لم يسمع سؤالها .. وتربع على الكنبة . وفي نبرات متهدجة بالألم والذكرى بدأ يروى قصيدة العيون :

لا وعينيك يا حبيبة روحي
لم أعد فيك هائما فاستريحي
سكنت ثورتي ، فصار سواء
أن تليني ، أو تجنحي للجموح
واهتدت حيرتي ، فسيان عندي
أن تبوحي بالحب أو لاتبوحي
وخيالي الذي سما بك يومـــا
ياله اليوم من خيال كسـيح !
والحنان الذي غمرتك فيـــه
ضاع مني.. وخانني في جروحي
والفؤاد الذي سكنت الحنـايا
منه .. أودعته مهب الريح
...
...
لاوعينيك !
ماسلوتك عمري
فاستريحي ..
وحاذري أن تريحي

وفهمت كما فهم الجميع .. فقد كانت القصيدة تعني « زهور » واحـــدة من قصص الهوى الشهيرة التي عاشها الشاعر مع الغانيات ، ابان ميعة الشباب الواعد بالامل والحب الكامل ؟

لكن هذه القصيدة لم تكن الوحيدة التي تغنى فيها كامل الشـــناوي بحبيبته « زهور » ، فقد جمعتني الصدفة بصديق شبابه المصور منير فريد ، ووجدته يحتفظ بمسودة قصيدة أخرى كان قد نظمها وحبه لها في الرمق الأخير :

آن ياعين أن تفيض الدموع
آن يا قلب أن تقر الضلوع
آن ياليل أن يطيب الهجوع
كم شقينا به وكم قرعينا
ووصلنا فراعنا بصدوده
وبكينا فكان يضحك منا
ساخرا من عهودنا وعهوده
من نذير اليه يخبر أنا
قد نسينا حتى احتمال وجوده
خبت النار يا حبيبي بقلبي
فتفنن كيف شئت هجرا ودلالا
لست بالموت حتى لتبعث شعري
شعلة من دم كما كان قبلا
ته دلالا كما تشاء الآنا

واغمر الكون رقة وحنانا
لن تراني المعذب الولهانا
لن تراني يقبل الدمع خدي
لن يثير الفراق شجوي كعهدي

واذا كانت « زهوز » أعمق « حب» لكامل الشناوي ، فانأشهر قصة حب على هذا الصعيد كان مع الفنانة كاميليا ·· مارلين مونرو الشاشة المصرية · ذات الجمال الصارخ وعشيقة فاروق ملك مصر · والتي أحبها كامل الشناوي وفتن بها وظل يعشقها الى ماقبل أن ينتهي عمرها القصير بفترة قصيرة ··

كانت قصته مع كاميليا على كل لسان · فجمالها وشهرتها كانت دائما تفضح لقاءهما في أي مكان ذهبا اليه ·· فكان شعر كامل الشناوي في أوصاف جمالها الفريد · كأنه فزورة سهلة الحل ·

وقد يعتقد الكثيرون أن أغنية « أنت عمري » كانت أول لقاء فني بين عبدالوهاب وأم كلثوم · وهذا غير صحيح فقد سبق هذا اللقاء · لقاء فني آخر ·· موضوعه « كاميليا » ·

كان ذلك عام ١٩٤٥ · وكانتالمناسبة عيدميلاد صديقه الاستاذ حسن الأعور·· وكان بين المدعوين أم كلثوم وعبد الوهاب وتوفيق الحكيم ومصطفى أمين وفكرى أباظة والدكتور عبد الوهاب مورو ·· وكامل الشناوي وصديقته كاميليا ·

حاولت أم كلثوم أن تداعب كامل الشناوي ·· فاتهمته بأنه يتحيز صحفيا لكاميليا ويحابيها باهتماماته الصحفية وحاول أن يقطع عليها طريق التريقة ·· فاعترف أمام الجميع بأنه متحيز فعلا لكاميليا ·· ولكن أم كلثوم احرجته وقالت : « اذا كان هذا صحيحا فقل فيها شعرا » ··

وبادر عبد الوهاب وقال : وأنا مستعد أن الحن هذا الشعر فورا ·
وقالت أم كلثوم : وأنا سأغني اللحن في الحال ·
ووافق الجميع ·· ولم يجد كامل الشناوي بدا من أن ينتحي جانبا ونظم أبياتا من وحي اللحظة غزلا في كاميليا :

لست أقوى على هواك ومالي
أمل فيك ·· فارفقي بخيالي
ان بعض الجمال يذهل قلبي
عن ضلوعي··فكيف كل الجمال

وقرأ عبد الوهاب القصيدة ولحنها على العود · وغنتها أم كلثوم · واستعادها الحاضرون مرات ومرات حتى مطلع الفجر ، ولم تكن كاميليا تفهم اللغة العربية الفصحى فكان توفيق الحكيم يترجم لها الابيات الى الفرنسية ·

والمتتبع لقصة كامل الشناوي العاطفية مع كاميليا · يلاحظ أمرين لهما ماوراءهما ·
الأول : أنه والملك فاروق · كانت لهما علاقة بالفنانة كاميليا في فتراتمتقاربة فهل كان ذلك ماتحمله آخر قصائدة في كاميليا حين افترقا ·· الشعور بالكبرياء والاحساس بالخطر ؟
ياكبريائي لقد كلفتني خطرا

فيه المنايا مطلات بأنيـــــاب
تمرد الليل لاأغفو به أبـــــــدا
حتى ارى الفجر مسفوحا على بابي

والأمر الثاني : أن علاقاته العاشقة بالغانيات وغيرهن في هذه المرحلـــــة من الرجولة والفحولة ، كانت لاتتوسم ملامح معينـــــة في المحبوبة أو تكوينا بعينـــه والسمة الوحيدة التي جمعت بينهن آنذاك • الجمال ذو المسحة الأوربية • والسلوك المتحرر فحسب •

وكامل الشناوى ربطته بالمطربة اللبنانية نور الهدى قصة حب هادئة أواخـــر الأربعينيات •• وقد لعب دوراً هاما فى شهرتها وتألقها الفنى فى عالم الغناء والسينما عندما قدمت الى مصر مع والدها •• لكنه لم يواصل قصته معها بعد أن تعرف بالفنانة كاميليا • وظلت العلاقة بينه وبين نور الهدى قاصرة على التبنى لموهبتها والاعجـــاب بصوتها •

ويوما فتح والدها الباب لكامل الشناوى •• وتهادى من داخل الشقة صوتهـا يغنى •• وقال كامل لوالدها :

- خير ان شاالله •• نور مالها •• عيانه ؟

وقال والدها : صحتها منيحة والحمد لله !

قال كامل الشناوى وكان يحبها آنذاك : أصل صوتها من بعيد كأنه صـــوت أم كلثوم !

****

● وتمضى مرحلة الشـــباب النزق والعربدة • وتأتى الكهولة مبكرة •وكان قد استنفد معظم « الكوته » على حد سخريته • كان قد استهلك من صحته وطاقته الكثير• عملا وسهرا وعشقا ومالا وطعاما وشرابا • ولم يعد يقوى على الحب المتبـــادل •• المكتمل •

ولأن قلبه ظل نابضا بالحب متوهجا بالحياة والشعر • اذا به يرتد فى تجاربه العاطفية الى مشاعر الصبا والمراهقة • واذا به يبحث فى كل محبوبه عن ملموازيل « س » فاتنه المعادى • عودها النحيل • رشاقتها كعصفور الربيع • صوتها الهامس كحفيف الخمائل • لحظها • سكناتها • رقتها •• •

ولأنه لم يكن من الممكن أن يستعيد حبه الأول • فكان يبحث عنها أو عن بعض منها فى امرأة أخرى •• وهكذا كانت السمة الغالبة فى كل محبوبات كهولته : النحولة التى تصل الى الضعف والهزال • كراهيته المرأة البدينة والممتلئة التى لا تغرى قلبه الرقيق • وانما تثير مصارعا أو ملاكما •• لقد كره بدانته فأولى به أن يكره البدانةفى المرأة ؟

كانت المرأة « الترانزستور » موضع رضاه • وسببا الى الشوق واللهفـــة • لأن المرأة الهزيلة فيها فن • فيها علاقة انسانية • انها تشكو • فى حاجة الىمساعدة• الى حب • الى شفقة ••الى انسان • وكل هذه نداءات انسانية يستطيع أن يلبيهـــا ويتجاوب معها • أما المرأة القوية فلا تريد أحدا الا لتسحقه •

كان كامل الشناوى يطلق على هذا اللون والشكل فى محبوباته « كوكيـــت » و « منيون » وهى كلمات فرنسية تحمـــل نفس الاوصاف التى كان يبحث عنهـا فى المرأة •• بل أن صالح جودت نظم قصيدة بعنوان « منيون » أهداها الى نجـــاة الصغيرة ارضاء لصديق صباه •• وكان عبد الوهاب قد بدأ يلحنها بالفعـــل ولكنه



توقف بعد وفاة كامل الشناوى . يقول مطلع القصيدة على لسان الفتاة « المنيون » تخاطب حبيبها البدين :

أحبه . أحبه .. ويزدهينى حبه
«وفرته» تعجبنى ..و «قلتى» تعجبه
كأننى فى أصبعه حينما أقربه
سيجارة تؤنسه . تدفئه . تلهبه
كأننى عصفورة . زقزقتى تطربه
يضمنى فى يده . ويحتوينى جيبه
اكاد من تيهى به آكله .. أشربه

وكانت علاقة كامل بهذه الاحجام والأنماط الأنثوية التى عرفها فى كهولته لاتتجاوز الحب الروحى-لا الحسى على حد وصف الشاعر العربى القديم :

أهوى الملاح . وأهوى ان أجالسهم
وليس فى حرام منهم وطر
كذلك الحب . لا اتيان معصية
لاخير فى لذة . من بعدها سقر

ولكن هل نجح كامل الشناوى فى كهولته العاطفية مع هذا الطراز البرعمى من النساء ؟

عندما صدر ديوانه « لاتكذبى » .. كان صرخة ضد خيانة المرأة . كتب أحد الشعراء مقالا يعلق فيه على الديوان تحت عنوان « شاعر يحب الخائنات » . أحصى أحد الكتاب عدد محبوباته فى الديوان بأكثر من قصائده الثلاثين وصفحاته التى بلغت ١٠٦ صفحات .. وكتب مقالا يقترح فيه على كامل الشناوى تغيير العنوان من « لاتكذبى » الى « لاتكذب » .

وعندما طلب كامل الشناوى من الفنان يوسف فرنسيس أن يرسم له غلاف ديوانه ـ فى طبعته الأولى ـ قال له : « أريد أن ترسم لى امرأة ساحرة الجمال ،لامثيل لها . ولا وجود لها أيضا . ولكنى أريد كل من يشاهد الرسم . أن يجزم بأنها واقع، وانها حقيقة . وأن هذه المرأة المجهولة لها اسم . ولها عنوان لا أحد يعرفه سوانا » .

وعندما شاهد أصدقاؤه غلاف الديوان .. تعجبوا .. فهم يعرفون كل ملهماته .. وحاولوا أن يعرفوا منه اسمها .. فتركهم فى دهشتهم ولم يجب . وأوعزوا الى عبد الحليم حافظ ان يطلب منه مقابلتها ليعرض عليها بطولة فيلم .. ووعده كامل بالاتصال بها .. ولم تكن الصورة أكثر من خيال .. خيال المرأة المنشودة فى أطياف الشاعر الكهل .

وكامل الشناوى الذى ذاعت شهرته فى نظم الشعر منذ عام ١٩٣٢ ، أى ٣٣ عاما حتى صدور ديوانه ، كان اجمالى مانظمه على مدى هذا العمر لايزيد على ٣٣٠ بيتا معروفا للقراء بمعدل عشر أبيات فى السنة الواحدة .

لقد ضاع الكم عنده لحساب الكيف ، لكنه استطاع بهذه الأبيات المحدودة أن يدخل التاريخ ، ويتربع على عرش الشعراء الرومانسيين فى هذا العصر ، على أن أول بيت فى ديوانه . كان بداية لنهاية أكبر حب . وأشهر حب فى كل مراحل حياة كامل الشناوى :

لاتكذبى انى رأيتكما معا
ودعى البكاء فقد كرهت الأدمعا

ما أهون الدمع الجسور اذا جرى
من عين كاذبة فأنكر وأدعى

والحديث عن بطلة قصيدة « لاتكذبى » كثير ، ومتناقض ، فمن قائل أنه ضبطها متلبسة بالحب مع صباح قبانى مدير تليفزيون دمشق ، أو الشاعر نزار قبانى ومن قائل أنه المخرج عز الدين ذو الفقار ، والكثيرون يجزمون أنه كاتب وأديب شاب يعتبره النقاد أقدر من كتب القصة القصيرة فى مصر والعالم العربى .

ورحل كامل الشناوى ولم يفصح لسانه بتفاصيل الواقعة ، ولا بأسماء أبطالها ، ورفض كل محاولات استدراجه ، وان كان قد هجاها وسبها ولعنها نثرا كلما كتب بابه الاسبوعى « ساعات » : « هل ألعنها أو العن الزمن ؟ كانت تتخاطفها الأعين ، فصارت تتخاطفها الايدى » .

« انها كالدنيا .. لاتبقى ولاتتجدد الا اذا خرج من حياتها ناس ، ما أكثر الذين شهدتهم وهم يغادرونها .. وما أكثر المواليد الذين رأيتهم وهم يطرقون بابها !؟ » .

ويعود يسترضيها ويسترحم قلبها : « افهمينى على حقيقتى ، انى لا أجرى وراءك ، ولكنى أجرى وراء دموعى ، وأنفاسى ، وخلجات نفسى ، أريد أن استردها بعد ماخسرته على مائدة الحب ، تماما كما يفعل المقامر الذى يخسر أمواله ، ويبرر خسارته بسوء الحظ ولا يخطر بباله أن من يلعب معهم لصوص .. وأنهم كلما لاعبوه تضاعفت خسارته ، العبى مرة ولن أبالى سوء حظى .. ولكن لاتسرقينى ! » .

ثم يتخيل لقاءه وحواره معها ..
قالت : متى ستكتب قصة حياتى ؟
ــ عندما أمارس حياتى .
قالت : أكتبها الآن اذن .
ــ كيف ؟ وأنا لاأعيش ولكنى أموت ؟
فصاحت غاضبة : هل تعتقد أن حبك لى موت ؟
وقلت لها : اهدئى .. لاترفعى صوتك حتى لايسمعك الموت ، فيغضبمنى .
ولكن ماهى حكاية قصيدة لاتكذبى ؟

ربما كانت تلك التى شهدت بعض احداثها .. والتى لاتختلف فى تفاصيلها عن غيرها من الروايات التى ترددت حولها .. الاختلاف فقط فى اسم المتلبس بالخيانة مع أشهر محبوبات كامل الشناوى الى جانب انفعالاته الذاتية التى ضمنها قصيدته الشهيرة « لاتكذبى » تصوراته الخيالية للموقف الذى جمعها مع الرجل الآخر !!

كان ذلك ــ على ما أذكر أوائل عام ١٩٦٢ ، صحبته فى ذلك اليوم الى « جروبى » ، ودفع فاتورة حساب بمئة وخمسين جنيها ، واذا بثلاثة عمال يحملون أمامنا صناديق « الجاتوه » تورته بيضاء من عدة أدوار .. لم تقع عيناى على مثلها من قبل .

كانت المناسبة عيد ميلاد مطربة مشهورة « منيون » صغيرة الحجم رقيقة الصوت ، وفى شقتها بالزمالك ، كان الحفل الذى دعت اليه عددا محدودا من الأصدقاء والصحفيين والفنانين .

وجاءت لحظة اطفاء الشموع .. واذا بمحبوبة كامل الشناوى وملهمته تختار كاتب القصة القصيرة وتمسك بيده ليساعدها فى قطع التورتة الضخمة بالسكين . وكأنها كانت تقطع فى أوصال قلب الشاعر الكبير .. وحاول طوال الحفل أن يستر ألمه واخفاقه .. وهو الذى دخل على المدعويين منذ قليل هاشا باشا يكاد يرقص

طربا ومرحا .. وحاول أن يكون ظريفا وهو المطبوع على الظرف والسخرية . لكن قلبه المرهف لم يحتمل وانصرفنا وكان لايزال فى الليل ساعات .. وذهبنا الى شقة عبد الرحمن الخميسى فى حي معروف .وطلب لحما . وطلب سعيد أبو بكر . وأطل الخميسى من البلكونة ونادى سعيد أبو بكر وكان يسكن فى العمارة المقابلة . وقال لهالخميسى ـ وكان مفلسا ـ « تعال حالا .. كامل بك هنا . عوزك ضرورى . هات معاك ثلاثة كيلو كباب وزجاجة ويسكى » .

ورغم أن سعيد أبو بكر كان حصيفا فى انفاق المال . الا أن صداقته الوثيقة بكامل الشناوى كانت تبدل منحرصه كرما.. وجاء ومعه الكباب وزجاجة الويسكى. واستيقظت فاتن الشوباشى زوجة الخميسى .. ووصل بليغ حمدى .. وأصبحت الجلسة متألقة .. والجو مهيأ للفرح والحوار والمؤانسة ..

ومضت ساعة وكامل الشناوى لم يتناول سوى قطعة من الكباب . ولم يرفع كأسه الى فمه سوى مرة واحدة مجاملة لأصدقائه . ساهما .. شاردا .. وفجأة استأذن فى الانصراف وأصر على أن يغادر المكان وحده لأمر هام و « خاص » .. ووعدنا بالعودة بعد ساعة .. وخرج معه « فكرى » سكرتير الخميسى وتابعه ليحضر له « تاكسى » .. وانتظرناه .. ولكنه لم يعد ..

بعد أيام عرفنا القصة .. قصة ذهابه الى منزل المطربة الصغيرة .. دق الباب، فتحت الخادمة . لم يستأذن فى الدخول كعادته و .. و .. رأى كل شيء .. المطربة وكاتب القصة القصيرة .. و .. و ..

لا أحد يعرف كيف كانا .. وكيف كانت المواجهة .. ولكن القصيدة « لاتكذبى » قالت كل شيء . وفضحت المستور . أو هكذا اراد كامل الشناوى أن ينتقم منهما شعرا !

والمعروف ان احسان عبد القدوس كتب قصة الشاعر الكبير مع محبوبته فى جريدة الأهرام تحت عنوان « وعاشت بين أصابعه » . ويقال أنها توسلت الى احسان أن يغير من بعض تفاصيل القصة بعد أن نشر منها فصلين لانها فوجئت بلعنات الناس تنهال عليها فى التليفون وفى خطابات الذين قرءوا القصة وعرفوا العذاب والآلام التى عاناها كامل الشناوى فى حبه لها من طرف واحد . وكان حبه لها كما صوره بدقة فى كلماته التى قال فيها :

« انها تحتل قلبى ، وتتصرف فيه كما لو كان بيتها .. تكنسه ، وتمسحه وتعيد ترتيب الاثاث .. وتقابل فيه كل الناس .. .. شخص واحد تهرب من لقائه .. صاحب البيت ! » .

ويقال أيضا .. أن مصطفى أمين هو الوحيد الذى حكى له كامل الشناوى تفاصيل القصة وأنه كتب القصيدة فى بيته . وكانت دموعه تختلط بحبر القلم الذى يكتب به . وبعد دقائق أمسك التليفون وجاء صوت المطربة الصغيرة .. وقرأ عليها القصيدة وهو ينتحب .. وعندما انتهى .. قالت وكأن الأمر لايعنيها : « كويسة قوى .. ممكن أغنى القصيدة دى !! » .

بعد ذلك كتب كامل الشناوى فى باب « ســاعات » جانبا من القصة بعد أن غير فى بعض التفاصيل : « كان المفروض أن أكون معهم ، أشاركهم الاحتفال بعيد ميلادها . فهى صديقة ، وهم أصدقائى . ولكنهم نسوا أن يدعونى الى الاحتفال . وتداركوا نسيانهم فذكرونى فى سهرتهم . وقدموا اليها هداياهم . وكانت سيرتى أبرز ما فى الهدايا . وضعوا امامهم الطورطة .. ومع الطورطة مزقوها بالسكين . ثم أكلوا .. أكلوا الطورطة .. وأكلوا سيرتى !! » .

ورغم أن الخيانة مزقت كامل الشناوى نفسيا الا أنها اضرمت النارفى قلبهاكثر فأبدع اجمل قصائده الذاتية واكثرها صدقا وشعورا ٠٠ وكانت قصيدته « حبيبها » التى غناها عبد الحليم حافظ :

حبيبها ، لست وحدك
حبيبها ٠٠ أنا قبلك !!
وربما جئت بعدك
وربما كنت مثلك !!

***

فلم أزل تلقانى
وتستبيح خداعى
بلهفة فى اللقاء
برجفة فى الوداع
بدمعة ليس فيها
كالدمع ٠٠ الا البريق !!
برعشة هى نبض
نبض بغير عروق !!
حبيبها وروت لى
ما كان منك ومنهم !!
فهم كثير ٠٠ ولكن
لاشىء تعرف عنهم !

***

وعانقتنى ، وألقت
برأسها فوق كتفى
تباعدت وتدانت
كاصبعين بكفى

***

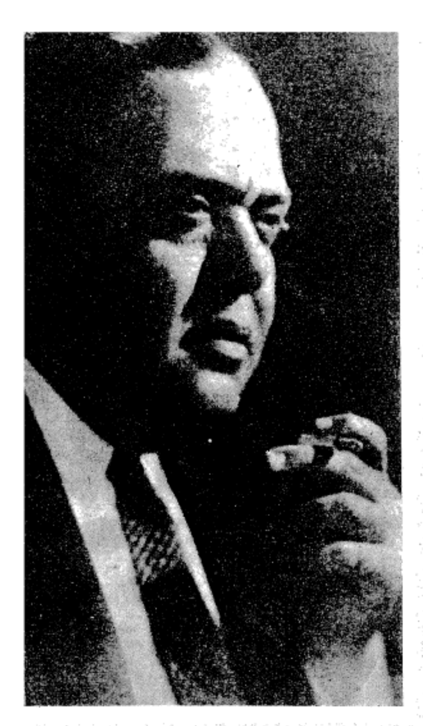
ويحفر الحب قلبى
بالنار ، بالسكين
وهاتف يهتف بى :
حذار يا مسكين !

***

وسرت وحدى شريدا
محطم الخطوات
تهزنى انفاسى
تخيفنى لفتاتى !!

***

كهارب ليس يدرى
من أين ، أو أين يمضى ؟
شك ! ضباب ! حطام



بعضى يمزق بعض !!

***

سالت عقل فاصغى
وقال : لا ، لن تراها
وقال قلبى : أراها !!
ولن أحب سواها !!

***

ما أنت يا قلب ؟ قل لى :
أأنت لعنة حبى
أأنت نقمة ربى ؟!
الى متى أنت قلبى ؟!

ومرت شهور من القطيعة • وحاول بعض الأصدقاء أن يصلوا ما بينه وبين المطربة • وبينه وبين عبد الحليم حافظ • وكانت ثمة جفوة بينهما سببها تلك المطربة •

والحكاية أن كامل ـ من أجلها جند لها ألحان عبد الوهاب وبليغ •• وأعتبر عبد الحليم ذلك تحيزا ضده •

وكان عبد الحليم قد سافر مع سعاد حسنى فى بعثةصوت العرب الفنية لاحياء عدة حفلات فى المغرب العربى وأوربا •• وعاد عبدالحليم ليجد الاشاعات تملأ جو القاهرة حول قصة زواجه بسعاد حسنى • وبدأت الاشاعات تنتشر حتىعلى صفحات الجرائد والمجلات • حول انشغالهما فى أوربا باختيار جهاز الزوجيةوملابس الفرح واتهم عبد الحليم كامل الشناوى باطلاق هذه الاشاعات •

على أية حال • فقد كانت مناسبة عيد ميلاد سعاد حسنى كفيله بتصفية الأجواء والذين تجمعوا فى الحفل كلهم اصدقاء ومتعارفون • كان بينهم احسان عبد القدوس وسليم اللوزى وأحمد حمروش وحرمه • والخميسى وفاتن الشوباشى • ولويس جريس وحرمه سناء جميل وعبد الحليم حافظ وبليغ حمدى وصلاح عبد الصبور وعدلى فهيم وجمال حمدى ونيرمين زوجته وأنا • وكان هناك أيضا شقيقتان لسعاد حسنى ونجاة الصغيرة •

أقبلت سعاد تحمل « التورته » المضاءه بشموع ثمانيه عشر ربيعا • وتجمعت من حولها الرؤوس وفى نفس واحد أطفأنا الشموع • وغنى لها عبد الحليم بالانجليزية « هابى بارث داى تويو » ••

تبادل الجميع الدعابات والنوادر والامنيات الحلوه •ورغمأنالسهرة كانتملائمة تماما لصولاته وجولاته • الا أن كامل الشناوى ظل ساهما • غارقا فى بئر أحزانه وذكرياته •

القى صلاح عبد الصبور بعض أشعاره • وغنى عبد الحليم ونجاة بعضامنقصار الأغانى • وهجم الخميسى على المطبخ كعادته قبل أن يحين موعد الطعام • وأخذ ياكل امامنا متلمظا عابثا ، وداعب احسان الخميسى وفتح النقاش حول سنه • ولم يجد كامل الشناوى بدا من أن يخرج عن صمته وقال : مبلغ علمى أن الخميسى توفى له ابن بالشيخوخة !!

وضج الجميع بالضحكات • وعاد كامل يسال احسان : بالمناسبه أيهما أكبر• أنت أم الخميسى ؟

واعترف احسان لأول مرة ·· أنه يكبر الخميسي بسنتين · ثم طلب احسان من كامل الشناوي أن يروى آخر أشعاره فاعتذر ، لكننا ألححنا عليه بالسؤال ·

وفي شجن وانفعال كان يهتز له جسده وتتبدل ملامحه ·· ألقى قصيدة « لاتكذبي » كاملة لأول مرة ·· وكانت عيناه كعادته عندما يضحك أو يتألم ·· تذرف دموعا·· كانت كأنها دم يتفصد من قلبه ·

استأذنت نجاة الصغيرة في الانصراف وانفضت السهرة ·· وخرج يواصل السهرة مع عبد الحليم حافظ في كفاتيريا فندق سميراميس · وليلتها أهدى القصيدة الى عبد الحليم ·· وغنى لاتكذبي بعد ذلك بنفس لحن عبد الوهاب الذى كان قد أعده لنجاة الصغيرة ··

وتم الصلح بعد ذلك بينه وبين مطربته ، ثم عادا الى الخصام والفراق · لكنه لم يتوقف عن تعقبها في محاوراته ومناجاته لها في باب « ساعات » ·

« لماذا تحاولين أن تدمرى يأسى منك ، بعدما تبدد أملى ؟! أنك لاتريدين لى أن استريح ! لقد أصبح التنكيل بطمأنينتي هواية تمارسينها بخفة وبراعة !

أى خاطر شقى أغراك بأن توقظى تليفونى من غفوته التي استمرت ثلاثة شهور ؟

لقد احسست وانا استمع الى صوتك في التليفون ·· أنك تحرقيننى بنبراتك التى تشعل النار في مشاعرى كلما سمعتها أو تذكرتها !

ولكنك لن تستطيعى أن تحرقى قلبى ·· فلقد احترق ·· ولم يبق منه الا الرماد !

دعى تليفونى ·· انك لاتديرين أرقاما ، ولكنك تديرين راسى وتلهبينه ··
هل تريدين بعدما أحرقت قلبى ·· ان تحرقى راسى أيضا ؟
ترفقى بى ياطفلتى ·· يا حبيبتى ·· يا حريقى !! »

****

● كان كامل الشناوى قدترك على مكتبه عشرات الخطابات التي كان يزمع أن يبعث بها اليها · ويبدو أن كبرياءه منعه من ارسالها في آخر لحظة · وترك أيضا مسودات لرسائل بعث بها اليها ·· وقد ضمها مأمون الشناوى مع بعض خواطر شقيقه في كتاب « رسائل حب » ، وقدمها بكلمات قال فيها :

« ترددت طويلا قبل أن أشرع في تقديم هذه الرسائل ··

فصاحبها الشاعر الفنان كامل الشناوى لم يكتبها لتنشر على الناس ، وانما كتبها لتقرأها واحدة من الناس ·

كتبها واحتفظ بأصولها لديه ··

ولعله لم يرسل بعد بهذه الرسائل ··

ولعله بعث بها كلها ·· ولكن لاشك ان ثمة رسائل أخرى كثيرة ذهبت الى من وجهها اليهم دون أن يحتفظ بأصولها ··

لقد حسمت ترددى واقدمت على نشر هذه الرسائل ، بعد أن رفعت منها الأسماء وبعض الوقائع التى ربما قد تشير ولو من بعيد الي من عناهم بها ·

ان كامل الشناوى الذى احتل مكانا بارزا في تاريخ الأدب والشعر في هذا العصر والذى عاش حياته حبا لكل مافى الحياة من جمال وخير · وأسفا على كل ما في الحياة من قبح وشر ، والذى ذرع العمر محبة تمشي على قدمين ، وانسانية لم تتوفر لغير قليل من البشر ، لاينبغى أن نترك رسائل الحب التى كتبها بدم قلبه نهبا للضياع أو النسيان وان نشرها لواجب يدفعنى اليه حبى له ، وحبى للفن ، وحبى للحياة والاحياء ··

وبعض هذه الرسائل أجد نفسى في حل من نشرها · بعضها نشرته من ألفه الى

يائه ، وبعضها اكتفيت بشذرات منها .. وكلها راعيت فيها علاقة الشـــقيق ، وحب الصديق .. فقد كان لى خير شقيق وأوفى صديق » ..

في احدى هذه الرسائل الى مطربته الصغيرة .. يقول كامل الشناوى :

« حبيبتى ..

اغفرى لى هذه الحماقات .. اغفرى لى حبى .. ووفائى .. واصفحى عن قلبى المسكين . فقد أحب بلاقصد .. ولا عمد .. ولا سبق اصرار ، وانسى كـــل التفاهات الكثيرة المتعددة التى طالما خدشت بها أذنيك معبرا عن ألمى وغيرتى !

فما كان لى أن أتألم . ولا أن أغار ؟ وما كان لى أن أدع شعورى بالألم والغـــيره يطرق سمعك الرقيق الذى ماتعود غير كلمات الرياء والخداع والثناء ..

لاتظنى بى السوء او الشر .. فما كنت سيئا ولا شريرا !

كل ما هنالك اننى أردت أن أرفع روحى الى سمائك فوجدتنى فى الهـــاوية .. ولست أدرى هل أخطأت الطريق الى السماء فهويت .. أم أنك لم تكـــونى قط فى السـماء ؟!

انى اكاد افنى خجلا وحياء كلما تذكرت كلمات الطهر والبراءة والقداسة التى اتعبتها من طول مامرت بشفتى ، ولم تستطع الكلمات ولم تستطع شفتاى أن تجعلها تتجاوز فمى الى أذنيك ..

لقد كنت أطمع فى أن أصبح فى مكان الاعزاز من نفسك .. واخجلتاه من هـــذا الغرور .. ولكن يعزينى أنه لم يدم طويلا .. فلقد عرفت فى وقت قصير أنى لن أكون فى هذا المكان .. لا لانه لايوجد فى قلبك .. بل لان قلبك ليس له وجود ! ظننت أنى قد اكون صديقا .. فانك تحسنين لقائى وتبتسمين لى وتشدين على كفى بقوة واندفاع .. وهذه معاملة الأصدقاء .

واسترحت قليلا لهذا الوهم الذى فلسفت به عواطفك.. ثم اذا بى أراك تحسنين لقاء الناس جميعا . وتشدين على أكفهم جميعا بقوة واندفاع .

ما أكبر حزنى .. لقد تخيلت أن هذه الابتسامات . وهذا الحنان وهذه الرقـــة تخصيننى بها وحدى ، ولم أدرك انها صورة معروضة أمام جميع الانظار .. وكتـــاب منشور للقراء .. أنت كالوردة لاتضن بعبيرها على من يزرعها فى حديقته ، ولا عـــلى من يسرقها من حديقة الجيران !

طالما اتهمتك بالدهاء فى المعاملة ولباقة التصرف وكياسة السلوك .. أبدا لست كـــذلك ..

انما أنت دمية جميلة صنعت هكذا ولاحيلة لها فى نفسها .. ولاضير عليك وانما الضير على أولئك الذين ظنوك مخلوقا يحس ويعقل .. ولكن كيف تكونين دمية ؟ وهذا الجمال كله .. أيكون من صنع بشر ؟ أأنت من صنع انسان ؟؟ كلا بل خلقك الله كمـــا خلق الشيطان والافعى ..

ولقد أحببت من أجلك كل شيطان وكل أفعى .. ولست آسفا .. والحزن الذى سيطر على نفسى .. سأعرف كيف أمسحه بدموعى ..

....

....

حبيبتى ..

لقد أحببتك من قلبى .. وكرهتنى من قلبك !

منحتك دمى ووقتى وعقلى .. ثم كشفت لك صدرى لاتلقى أوسمة رضـــاك .. فرشقت مكان الاوسمة سهاما مسمومة ..

لقد فتحت لك ذراعي لتملئي بوفائك مابينهما من فراغ ·· فاذا أنت تملئين هـذا الفراغ غدرا وحقدا ··
····
····
حبيبتي ··
كيف بكيت من عتابي ؟
لأول مرة في حياتي أرى القسوة تبكي !
أذهلني ان أرى الروح الكثيفه تستشف الألم وتتأثر !
لعلك مظلومة ·· ولكن لماذا تلجئين للصمت وراء الدموع ؟
لماذا لاتتكلمين ·· فربما قاومت الأقدار التي كتبت لك الغدر وكتبت لي الوفاء ؟
اصارحك بأني ضعفت أمام دموعك ·· ضعفت أنا وبقيت المشكلة قوية كما هي بل أقوى ··
····
····
حبيبتي ··
أتعجبين حقا من أنني أعيد سماعة التليفون الى مكانهـا بمجرد الاســتماع الى صـــوتك ··
الاتعرفين السبب ؟
اذن فلأصارحك ··
فمازلت على خطتك الهابطه وأسلوبك الملتوى ··
انني أسمع صوتك في التليفون فيخيل لي أنك تخاطبين شخصا آخر ·· لا صدق ·· ولا عاطفة ·· بل لاصوت ·· وانما هي أصداء حديدية في آلة من حديد ··
····
····
حبيبتي ··
التي عذبتني سنين وسنين ·· أنك تفكرين بعقلك · ولا أدرى هل أنت ذكيــة أو غبية · كل ما أدريه أن عقلك كبير وشرير ·· فهو يريد أن يجعل من القيم والمعــاني طريقا تدوسينه بقدميك الرشيقتين ·· وتصلين به الى غايتك ··
وما هي هذه الغاية ؟ ان يحبك الناس جميعا ·· وان تكرهيهم جميعا !
صدقيني انني لا أغار الا من انسان تخصينه بحبك ·· وأنت لاتخصــين بالحب الا ذاتك ·· فهل أغار منك ؟
صدقيني ·· لا !!!
····
····
حبيبتي ··
وعدتني بزيارتي ·· ولكن كعادتك أخلفت وعدك ·· واعتذرت بأنك مريضة · وتشاء الأقدار أن أراك في نفس اليوم وبعد الموعد بقليل هناك على شاطيء النيل ·· في المكان الذي أعد للأحباب والعشاق ··
أى شيء أنت ؟ أى جناية ؟ أى جريمة ؟ أى مأساة ؟ ·· معذرة أيتها المــلاك ·· فأنا وحدي الجريمة والجناية والمأساة ·· »

ويوما ما كان في حالة من حالات ضعفه معها · حاول أن يدللها · يسترضيهـا

عن ذنب لم يرتكبه . يستغفرها الصفح والرضا ، واستمرت مكالمته التليفونية معها ساعتين . ولم نسمع شيئا بالطبع !

وفى نفس اليوم جاءته نوبة الاغماء بعد « حلة العدس » الشهيرة وأصبح بين الحياة والموت. وأمام غرفته بمستشفى قصر العينى. تجمع أهله وأصدقاؤه وكان بينهم احسان عبد القدوس وهيكل وفتحى غانم والخميسى والملاخ وموسى صبرى وبليغ وعبد الحليم . وخرج الدكتور أنور المفتى وبشرنا بالامل .. « الأمل فى حياته ٥٪ والباقى على الله » . ولمعت فى رأس احسان فكرة أن يتصل بمطربته الصغيرة .. وتأتى الى قصر العينى . وتدخل عليه غرفته . وتجلس على أطراف سريره . ويلمحها بعيونه الغافلة . وهو بين الحياة والموت . وينبض قلبه بالحب ويتشبث بالحياة ..

● ذات يوم مشمس . والوقت صباحا . وبوكيهات الورود تصطف فى ممرات مستشفى الكاتب وكأنها أحباء تتمنى له الشفاء . كان يرحمه الله يقرب من سريره « بوكيهات » الورود بقدر محبته لأصحابها . أما الذين أرسلوها دون أن يكلفوا أنفسهم زيارته . فكان يصرفها الى خارج غرفته .

وجاءت محبوبته الفنانة « المليون » ودخلت غرفته على استحياء وخجل . ولم يكن قد رآها منذ زارته فى قصر العينى . ونهض من رقاده شابا متلهفا . وغادرناه . ثم خرجت بعدنا . ولكنها ظلت بجواره على « الكومودينو » بورودها الأبيض والأحمر القانى .

كانت قبل ذلك خجلى أن تواجهه على سرير المرض . وهى التى ألقت به اليه أو أسلمه له حبه لها . أرسلت تسترضيه بورودها . فأمر بوضعه فى الممرات . ارسلت صوتها على أسلاك التليفون ، وبثها الشاعر الرقيق من روحه مرحا وثناء وحبا وغرها الثناء وجاءت اليه .

وزاره بعد قليل الموسيقار محمد عبد الوهاب . ووجده نشطا متيقظا فرحا . لم يستفسر منه عن المرض والعلاج . ولكنه سأل : عامل ايه مع الحب يا كامل ؟

– انا مش عامل مع الحب . هوه اللى عامل فيه يامحمد .
– وعامل فيك الحب ايه يا كامل ؟
– اهتم الأطباء ببيوت الداء . وأهملوا القلب . فيه الداء نفسه !
– سلامة قلبك يا كامل .
– دواء القلب كان هنا من شوية .
– طيب مبروك يا كامل .. مبروك علينا قلبك .

وكان كامل الشناوى قد كتب قبل لقائه الاخير بمحبوبته يقول « ان الحب مثل القانون . يحمى البرىء ويتعقب المجرم . وقد كان يحميها فأصبح يتعقبها .

تعالى .. لاتخافى أن تذكرينى بالماضى .. اننى عندما أراك لاأغوص فى أيام ذهبت . ولكنى أتسلق مابقى لى من أيام !

ليس فى حياتى ماض وحاضر ومستقبل . حياتنا فترة واحدة هى الماضى .

الأمس مضى . واليوم يمضى . والغد سيمضى ، تعالى ولا تترددى !! فلم يبق من عمرى مايسمح بأن تترددى !! » .

وغادر كامل الشناوى المستشفى عام ١٩٦٤ .. وظل يراودها عن قلبها وحبها ووصالها نثرا وشعرا ورسائل ومكالمات .. وكان يلتقى بها .. وكان يفترق عنها .. وكان فى ذلك كله يعيش الحياة العاطفية ويتنفس الحب وينفعل ..

وفى تلك المرحلة الاخيرة من حبه لها ومن حياته ·· كتب ثلاث قصائد ·· الاولى يبكى فيها أطلال حبه وكانت بعنوان « ظمأ ودموع » ·

أحببتها وظننت أن لقلبها
نبضـــا كقلبى
لاتقيده الضلوع !!
·· أحببتها
·· واذا بها قلب بلانبض
·· سراب خــادع
·· ظمأ وجوع !!
فتركتها ··
لكن قلبى لم يزل طفلا
يعاوده الحنين الى الرجوع
واذا مررت ··
ببيتها
تبكى الخطا منى !!
وترتعد الدموع !!

والقصيدة الثانية كانت تجسد مأساته العاطفيه معها ·· بعد أن تقطعت بينهمـا أسباب اللقاء ·· ولم يبق له منها سوى رؤى وأحلام اليقظة :

أنا لا أعرف حـــــدا لهواها !
أنا لا أعرف حـدا لهـوايا !!
·· كم يريني النوم منها عجبا !
فتنـــــــة يقظى
وروحـــــا ، وســـــجايا !!
ضـــمها صـــدرى
ومســت شـــعرها ·· راحتى
وارتعشـــت شــــفتايا !!
وعليهـــا من ذراعى وثـــاق
شــــــده قلبـــى
وأرختــــــه يـــــدايا !!
فاذا ما نفضــت عينى الكــرى
لم أجد بين ذراعى ســوايا !!

ثم كانت قصيدته الثالثة « رفات » وفيها يرثى حبه الذى دفنه في بئر الحرمان والذكريات :

قد خلت منك حياتى
وخلت منى حيـــاتك
ما نرى منك ومنى
رفاتى ، ورفاتك !!

● فى الفترات المتقطعة التى كانت تمر بعلاقة كامل بالمطربة الرقيقة ·خصاما · وهجرا · وصدا · كان يستوحش الحب ·· ويفتش حبه ·· ويبحث عن بديـــل يشغل قلبه ويحرك شاعريته ·· وكان يقول : « ان قلبى لايطيق أن يتسكع فى ضلوعه بلا عمل ! ولذلك فهو حريص على الايعتزل الحب ، حتى لايتعرض للبطالة · »

سأله مرة الفنان عبد الغنى أبو العينين مداعبا : المزاج الأيـام دى عامـــل ايـه يا كامل بك ؟

وضحك قائلا : اسباجتى !

وكانت المرة الأولى التى سمعته فيها يشبه المرأة بالطعام . وكان يعنى حبــه الطائش لمضيفة شابة فى كفاتيريا الهيلتون .

كانت مصرية الجنسية ايطالية الأصل . تتأرجح لهجتها بين جنسيتها وأصلها فى حيوية ظل بنات الأبيض المتوسط .

كان يعجبه فيها كبرياؤها . وودها . ورقة صوتها . واخضرار عينيها . وقد بدأ مايمنحه اياها من « البقشيش » خمسين قرشا ثم خمسة جنيهات وكانت تــرد البقشيش دائما فى أدب وحياء .

كانت تعتز باختياره لمائدة تقع فى منطقة خدمتها كل ليلة . حتى أنهـــا طلبت من ادارة الفندق العمل دائما فى « وردية » الليل . حتى تحظى بثنائه ومداعبـــاته وشعره ..

كتب فى محبوبته المضيفة قصيدة بعنوان « الكفاتيريا » ... مطلعها :

مرت بنـــا كالطيف تســـألنا
ماذا تريد ؟ فلذت بالصـــمت
ودنت لتســـألنى عـلى حـدة
عمـــا أريد ، فقلتها : أنت !!
غضـــبت وألقت نظرة نزعت
قلبى وشـــدته الى فمهـــا
ياليته يقـــــوى يقبلهـــا
ياليته ينســـاب فى دمهـــا
......
وأردت أرضيها . فقلت لهـــا :
هل تعرفين . ومن أكون أنــا
أنا ياصـــبية شـــاعر هرم
قد جاء يستوحى الشباب هنا
......
أريـد الهامـــة جـــــديدة
بقـــدر ما أنظم القصـــيدة
وقصـــيدتى مـــازلت أنظمهـــا
وأظـــل طول العمر أنظمها

ولم تكن مضيفة الكفاتيريا على صورة الجمال الذى يستهوى كامل الشناوى . كانت ممتلئة بعض الشىء ولكن حبه لها كان يكمن فى سلوكها الرفيع . ويبدو أنها ذكرته بلمحات من فاتنة المعادى وسلوكها الأوربى . وكبريائها ..

وكان دائما يفاخر بكبرياء محبوبة الكفاتيريا . وكان يراهن أصدقاءه عـلى أنها ترفض « البقشيش » على مائدته .. وكانوا يجربون دفع الحساب والبقشيش . فتاخذ الحساب وتترك البقشيش .

ولم يستمر الحب .. كان كما طعام الكفاتيريا . تتناوله سريعا . وتترك مكانك لغيرك . وكسب أحد أصدقائه الرهان ذات ليلة . عندما قبلت حساب الطلبات والبقشيش معا . وتخلت عن كبريائها . ثم انتقلت فجأة الى عالم السينمائيين بعد « غدوة » تناولها على مائدتها ضابط سابق فى سلاح الفرسان أصبح ممثلاسينمائيا شهيرا ..

وعندما دخل علينا يصطحبها ــ وكنا نسهر فى منزل عبد الحليم حافظ بالعجوزة ــ تطلعت العيون الى كامل الشناوى وضحك قائلا : « انها لم تكن « غدوة » وانما « غزوة » للفارس القديم » .

وفي صيف عام ١٩٦٣ . وشقة كامل الشناوى المطلة على البحر . كعبة لاصدقائه وأهل الفن والصحافة والشعراء والظرفاء . كان الخميسى يزوره يوميا فى قمصان الشباب الملونة . منطلقا . معربدا . يلتهم بهجة الحياة وملذاتها . وكأنه توقف عند سن العشرين ولم يتزحزح .

وزارت كامل الشناوى شاعرة بدينة معروفه لم تزل عذراء برغم اعوامها التى تخطت الاربعين .. جاءت ومعها الجمال الذى يستهويه . شاعرة مبتدئه تعمل معيدة بكلية الآداب بالاسكندرية .

كانت شابة . آية فى روعة الجمال ورقته وذكائه . هيفاء ناحلة . ملونة عيونها بزرقة البحر . وشعرها بلون الرمال .

كانت تطمع بزيارتها أن تخطو بتجربتها الشعرية الى مزيد من تجارب الشاعر الكبير .

ويوما بعد يوم .. لم يرض أن تقتصر التجربة على الشعر . طاش سعيدا بها ولها بعذوبتها . ولكنها بلباقتها ووقارها المبكر لمحت باعتذارها عن الحب .

وكتب بعد أيام يحكى لقاءه معها :

« فى مشاعرى همس جديد ، لذيذ ، غامض .. أحاول أتبينه فتحجبه عنى ثرثرة التجارب ، وفضول الذكريات !

هل هو حب ؟ هل هو نزوة ؟

أننى مشدود من قلبى وعقلى اليها ، الى جمالها العبقرى ، وأنوثتها الذكية ، وملامحها الموهوبة المثقفة !

قالت لى أنها تثق بى فى كل شىء الا عندما أتحدث عنها .

وسألتها : لماذا ؟

قالت : لأنك تجاملنى على حساب الواقع ..

قلت : أخشى أن تتهمينى بالمبالغة اذا قلت انى أجامل الواقع على حسابك !

قالت : هذا خيال ..

قلت : بل هذه حقيقة ، وما تظنينه خيالا أو مبالغة ليس الاحرارة ، لانى أعبر عن الحقيقة بأسلوب دافىء ! » .

ويوما دخل الخميسى على مجلسه معها .. بصخبه واقتحامه الشجاع للمجهول .. بشبابه الذى يقاوم الزمن . ويلمح على مائدة صغيرة فى الصالون عددا من زجاجات الأدوية الكثيرة الخاصة بكامل الشناوى . وفتح كل زجاجة وأخذ منها بعض الحبوب وابتلعها فى جوفه . ثم بدأ يروى أمام الشاعرة الشابة بعضا من تجاربه الشعرية وحكايات مثيرة معظمها لم يحدث قط . ولكنها فنية الحبكة مشوقة التفاصيل ، وانبهرت الشاعرة بالخميسى و .. لم تكرر زيارتها لكامل الشناوى بعد ذلك ..

وكنت أجلس معه نرقب أمواج البحر وهي تعربد في الافق في اليـــوم الثالث بعد يوم وعدتفيه وخلفت موعدها • وكان قد كتب في نفس اليوم بعض سطور في باب « ساعات » •• « عقارب الساعة تنتقل ببطء وكسل ، في خاطرى عقـــارب من الشباك تجرى ، وتقفز ، وتلدغ ، لقد ذهب الوقت المحدد للقائنـــا • ولم تجىء ! ياخجلى مما صيرنى اليه زمنى ، كل شىء يذهب ، ولاشىء يجىء ! » •

وفهمت ما حدث بالضبط • ولأنى تعودت ألا أقتحم عليه حياته بالفضول أو الملاحظة سألته عفوا : أيها أكثر سعادة لك • الحب • أم الصحة • أم الشهرة ؟

قال بعد لحظات : « كنت أود أن أكون الخميسى • ألوى ذراع الحياة كلمـــا عاندتنى • ولكنها دائما تلوى ذراعى » •

وضحك كأنه ينهى أحداث فيلم من الموجة الجديدة •

ولكن يبدو أن القصة لم تنته فقد كتب بعد ذلك يصف الخميسى ويفضح سره : « عرفته منذ ثلاثين عاما •• شاعرا شابا خواطره ذكية مشرقة ، ووجهه غبى الملامح •• ممتقع اللون •• وكان يغيب على فترات من الزمن ، فاذا التقيت به أدهشنى أنه يزداد على مر الأيام قوة ونضارة • وقابلته اليوم •• فخيل لى وأنا أصافحه أنه ليس هو •• ان عمره الذى تجاوز الخمسين قد اختبأ في قوام شاب رياضى مفتول العضلات ، الملامح الغبية صارت ذكية ، واللون الممتقع أصبح كحمرة الخجل •

وقلت له : أنت ابن فلان ؟

ضحك وقال : أنا فلان نفسه •

ما أعجب صديقى •• أنه مثل الأجل •• يكبر •• فيصغر ! » •

وقد عرف كامل الشناوى الخميسى عام ١٩٣٨ •• فاعجب به واختاره صديقا، وواقعا لأحلامه التى كان يتمناها لنفسه • وقدمه الى الصحافة لأول مرة محررا بأخبار اليوم ثم انتقل الى جريدة المصرى •• وانتشله من احتراف كتـابة الاغـانى لشعراء مشهورين مقابل ماتيسر من المال ، والتمثيل مع فرقة المسيرى التى كانت تجـــوب القرى والكفور والموالد ••

وكان — يرحمه الله — يقول ساخرا أنه تعب من حسد الخميسى دون جـدوى • فقد كان مثله الأعلى فى الفحولة والهمة والشباب ومجابهته الحياة بقلب شجاع •• يصنع الحب ويستأثر به ويرتشفه حتى الثمالة !

وقصص الحب الرومانسى التى تندرج تحت باب « المستحيل » كثيرة فى حياة كامل الشناوى وكلهن يحملن بعضـــا من الملامح « الترانزيستور » التى كانت عليها مدموازيل « س » فاتنة المعادى •• حبه العذرى الأول •

عرفت منهن مطربة لبنانية غندورة • كانت يوما تغنى « دويتو » مع زوجهـــا المطرب اللبنانى ، راقصة « منيون » تحمل لقبا فرنسيا كانت تعمل بفرقة رضـــا ، وفنانة اسكندرية « بلوند » سمعنه يحادثها مرتين كل يوم •• عندما غابت عنه أسبوعا تستجم فيه من عناء السينما فى بلاج « السخنة » ••

وقد بدأت علاقة كامل بهذه الفنانة بعد سوء تفاهم وشجار فى شقة عبد الحليم حافظ بالعجوزة •• ولكن العلاقة بينهما تحولت بعد ذلك الى صداقة وتفاهم واحترام متبادل •• وتحولت شقتها فى باب اللوق الى صالون أدبى لكامل الشناوى •• ينتظم فيه أهل الفن والأدب والصحافة •

فنانة أخرى سمراء • ذات عيون فى لون الخضرة النضرة • كانت يومـــا مذيعة للأطفال فى البرنامج الاوربى • ثم انتقلت بعد ذلك على يد صحفى شهير متخصص

فى المجتمعات والآثار الى عالم السينما · حيث تزوجت بمنتج كبير ·

كانت فنانة مثقفة · غاية فى الرقه · وكان كامل يتردد عليها ويحاورهـــــا وهو فى قمة النشوة والانطلاق · ويوما دخل عليهما الزوج المنتج ووجد كامـــل الشناوى يجلس بجوارها ويتهامس معها ·· وثارت غيرته ·· وكانت النهــاية ·· نهاية احدى قصص الحب الطائش للشاعر الكهل ·

قصة أخرى ··

عندما أضاءت شاشة التليفزيون المصرى لأول مرة ·· ورأى صورتها الجميلة · وسمع صوتها الرقيق · وحوارها الودود مع ضيوفها ·· قرر أن يتعرف على هـذه المذيعة ·وسعى اليها · واكتشف أنها تقول الشعر بالفرنسية · وأن شعرها مرهف الحس ، وتطوع لترجمته الى العربية ·· وهكذا وجد طريقه اليها والقـــرب منهـــا والحوار معها · وكانت والحق يقال نعم الصديقه ·

فى قصيدته « أضواء » التى غنتها المطربة ندا والتى استوحاها الشاعر من قصيدة كتبتها المذيعة الشاعرة بالفرنسية يقول :

هـــذه الأضـــواء كـــم أكرههـا
قيـــدت حـــريتى قيـــدا عنيفـا
ابعـــدوها ·· ابعـــدوها انهـــا
شـــبح يبـــدو لعينى مخيفـــا
قبضـــة تمســـك ســـاقى ويدى
قفص يحبس عصـــــفورا ضـعيفا

***

ليتنى أحيا حياة مثل افكارى طليقه
أنشـــق الـــوردة فى ظـــل حديقة
لاتشى اذنى سوى همسة انسام رقيقة
وصدىخطو حمامشق فىالأرض طريقه
أنقر الأرض بنظرات وخطوات رشيقة
قدمىفى الرمل غاصت وتعرتكالحقيقه

***

فى ثنـــايا العشـــب أندس بأنفى
أنشق الراحة فى العشـــب الرطيب
وعـــلى ظهرى أســـتلقى وألقى تعبى
وأوارى فى الثرى عقلىالسريع الغضب
فبعقلى ضقت بالناسوضاق الناس بى
جنتى تلك ففيها أنا·لا أذكـــر نفسى
ليس لى يوم ولا أعرف ماذا كان أمس
نشوة تملأ روحى وفراغ ملء رأسى

***

عندما تصبح لى الجنـــة وحـــدى
أزرع الجنـــة احساســـا ونبضـــا

أرتدى الثـــوب الـذى أختـــاره
لا الـذى تفرضــه الاذواق فرضـــا

***

لا حـــزام فـــوق خصرى
لا قيـــود حـــول شـــعرى

***

وبوجهى الأبيض الخالى من الأصباغ ٠٠ من أية زينة
وبشعرى الثائر اللامع كالاشراق فى السحب الحزينة
وبأزيائى وأفكارى التى نفضت عنى التفاهات اللعينة
سوف أحيا فى حياتى حرة تغمر الروح ارتعاشات السكينة
واذا جسمى طليق هارب مثل روحى من حماقات المدينة

وكلما كانت المذيعة الرقيقة تظهر على شاشة التليفزيون ٠ كان يأمر كل من فى المنزل بالصمت والتوقف عن الحركة ٠٠ وكان يبعث بقبلاته اليها فى الهواء كلمـــا فتحت فمها بالحديث ٠ وكان يقول عنها : « كلما رأيتها ٠ أيقنت ان الله فرغ عـــلى التو من خلقها »

٠٠ وفى هذا المعنى كتب يصف انفعاله بجمالها ورقتها وذكائها :

« كلما رأيتها تخيلت ان الله خلقها فى هذه اللحظة ٠ فهى دائما ناضرة ، جديدة ، متألقة ، كشمس تتهيأ للاشراق !

انها تمثال من ظلال ، وأحاسيس ، وأضواء تفننت الطبيعة فى صنعه ، وبعـدما دارت حوله ، واطمأنت الى روعته ، أزاحت عنه الستار ، لتفتن الناس بالتمثـــال ، وبالقدرة التى صنعت التمثال !

مالهذا التمثال الرقيق لايكتفى بالوقوف أمام عينى ٠٠ انه يتحرك فى مشاعرى يهزها ، ويثيرها فاهيم به ، ولكنى لا أستطيع أن أوجه اليه كلمة من كلمات الغزل ٠

ان المؤمنين بالله يحبونه ، ولكنهم لايغازلونه ٠٠ وقد اصبحت فى سن لاتسمح لى بغير الايمان ! »

وهكذا عاش الشاعر الكبير كامل الشناوى الحب ٠ فى براءة الصـــبا ٠ وميعة الشباب ٠ وفتوة الرجولة وطيش الكهولة ٠٠

كان دائما وفى معظم حبه عفيفا ٠٠ حسيا ٠٠ يهوى الجمال ٠ يقتـــرب منه وسرعان ما يحترق كالفراشة كلما اقتربت من الضوء الملتهب ٠٠ ولكنه بالحب ٠٠ حب الجمال ٠٠ عاش وأبدع أروع أدبه وفنه ٠٠ كان يقول « أن ولعى بالجمال لايقف عند حد ٠٠ فأنا أحب الجمال فى الطبيعة ، والفن ، والاخلاق ، والمرأة ٠٠

وهذه الاشياء تعبر بصدق عن جمالها ٠٠ أما المرأة فهى وحدها القادرة على التعبير عن الجمال باغراء !

والصدق يعطينى صورة مستقيمة للجمال ، والاغراء يعطينى صورة ملتوية ٠٠ ولكن هذا الالتواء يشدنى من مشاعرى ، ويلوينى معه !

بين الناس من يسمى هذه التجربة حبا ، وبينهم من يسميها وهما ٠٠ ولقـــد عشت التجربة أياما ، ولا أدرى ان كنت أحب ٠٠ أو كنت أتوهم ؟! » ٠٠

على أن كامل الشناوى الذى أفنى حياته لاهثا وراء الجمال فى المرأة ٠٠أو بمعنى أدق التواء الجمال فى المرأة ، والذى كان فى حقيقته وظروفه التى رواها فى شعره ونثره

ورسائله ·· ليس أكثر من اغراء وفتنه لعوب ، كان له أبعد الأثر فى حياته وصـحته وانفعالاته وأحساسه الدائم بالاحباط وفى هذا المعنى يقول :

ذكريات رسفت فى أدمعى
وشجونى
وتمشت فى دمايا !!
ذكريات حطمتنى
ذكريات لم تدع من أجلى بقايا ··



الفصل الرابع

وفى الليل خوف وحديث وضحك!



● على مدى ربع قرن أو يزيد .. كان خلالها نجم ليل القاهرة بلا منافس . ليل الصحافة والأدب والفن . ليل الجلسة الموحية . ليل الشعر . وليل النكتة الساخرة والحوارات الذكية والقفشات اللاذعة والمقالب المحبوكة التى لاتنسى .

وكانت صالونات ومقاهى ومنتديات مابعد منتصف الليل . دائما على أهبة انتظاره . يبث فيها من روحه روحا ومرحا ورقة وصخبا .. فقــــد كان يرحمه الله محدثا ومؤانسا من أبرز وأظرف ظرفاء زمانه !

وكانت كلماته كأنها الصحف السيارة . ما أن يصوغها بوجدانه ويطلقهـــــا لسانه . حتى تنتقل الى حيث يريد لها أن تنطلق . وتنتشر وتؤثر .. فى المليان .

ولذلك . كان لسانه نارا على أعدائه . وكان فرحا وبردا وسلاما على أحبائه ومحبيه .

وعلى كثرة مافاض قلبه شعرا نابضا بالحياة . أو نثرا يتعقب الحياة . فلم تكن دوافعه الى التعبير الفنى . سوى اشراقة حب . يمتطى اليه بساط الـــوحى والالهام . أو الدهشة من تقلبات الناس وتقلبات الزمان . وربما تنفيسا عن استفزاز بالقبح .. أو هجاء مقذعا لخصومه ثقلاء الظل ، وربما كان عبثا مع الذين عبثت بهـــم الأقدار و ..

ذلك هو كامل الشناوى . وذلك كان ليل زمانه ..

رأيته أول مرة فى حياتى أوائل الخمسينيات . ذات أمسية صحفية فى كازينو بديعة مصابنى الصيفى الشهير وكنت آنذاك أتحسس طريقى الى احتراف الصحافة .

جذبنى الفضول الى مجالسه الليلية . ماكان يردده الوسط الصحفى عنها فى الصباح .. من روايات ونوادر مثيرة للخيال والتأمل والضحكات .

صحبنى الى مجلسه الزملاء على جمال الدين وحمدى لطفى ويوسف فكرى والرسام طوغان . واخترنا مائدة على مقربة منه . وكان كامل الشناوى يتصدر مائدة كبيرة .. حافلة بالمشاهير والنجوم .. بالطعام و « الابرتيف » وصنوف الطعام والشراب .

لم يكن متصدرا المائدة بجسمه المهيب فحسب .. ولكن أيضا بصيته وصوته « الباريتون » وضحكاته المجلجلة التى كانت تركض الى أسماعنا بين الحين والحين . فتجذب اليها الأسماع والابصار ..

كانت عيون « السهرانين » فى الكازينو معلقة بمائدته وما يجرى حولها ، ولهم العذر .. كان معه محمد عبد الوهاب والمطرب عبد الغنى السيد وعازف الكمان أنور منسى .. وآخرون وأخريات .. والحديث سجال متصل ..

وفجأة ..

اذا بالجلبة تدخل حديقة الكازينو فى ركاب مطرب شعبى . كان يوما أحد المنشدين فى تخت عبد الوهاب . وكان قد عاد بعد غيبة طويلة من العراق أدمن خلالها الخمر وغرق فى الضياع .

وما أن يلمح المطرب المخمور أستاذه محمد عبد الوهاب . حتى ينهال قذفا وسبا علنيا فى الموسيقار الرقيق .

كان يترنح وسط الموائد . وهو يردد اتهاماته التى لاأول لها ولاآخر . ولا أصل ولا فصل .. وكيف أن عبد الوهاب يغار منه .. وكيف أنه لايكف عن قطع عيشه فى الاذاعة وفى غير الاذاعة و ..

انطلقت الضحكات هنا والقفشات هناك . ثم تدخل المتدخلون لتهدئة المطرب المخمور .. و « تشعشع » الخمر فى رأسه أكثر .. ويرتفع صوته أكثر .. وجلبته أكثر .. ثم جاء دور « الجارسونات » عندما بدأ فى سب كل الزبائن .. والى حيث ألقت !

انتهى المشهد المفاجىء . وأوشكت آثاره على التلاشى . وعاد الزبائن الى حديثهم وشرابهم .. ولكن ضحكات كامل الشناوى ظلت تؤجج حولها الضحكات .. وتلك كانت هوايته فى اثارة الشد والجذب بين العقلاء والمجانين .. بين اليقظين والمخمورين . بين الوعى واللاوعى .. بين الخير ونقيضه .

وانكب بصدره على المائدة . وكتب بضع كلمات على فاتورة الحساب . ثم بدأ يلقى شعرا هجائيا فى المطرب المخمور :

ما أصعبه
ما أرهبه
ما أعجبه
ما أغربه
ياليت انسانا بمد الكف كان هذبه
وعلى الرصيف وضبه
وشده واغتصبه
ونال منه مأربه

وضحك عبد الوهاب وقال : « الله ياثيدى الله » ولعلعت الضحكات حول الموائد بينما كامل الشناوى يطوى فاتورة الحساب باصابعه ويلقى بها أرضا .. والتقطتها .. دون أن يشعر .. واحتفظت بها حتى الآن .

ومنذ ذلك الصيف البعيد .. وانا أحتفظ بكل مايقع في يدى من « أشعار المهلاتء التى كان يكتبها من وحى اللحظة على فواتير الحساب وعلب السجائر ومناديل الكازينوهات والكفاتيريات .. وبعد سنوات من كتابتها . كنت أقرأ عليه بعض هذه الأشعار . وكان يسألنى عن مؤلفها .. وكنت أقول له .. أنت . وكنت أذكره بالمناسبة التى قال فيها هذا الشعر أو ذاك .. وكان يضحك قائلا : « افتكرته لواحد من بتوع الشعر الجديد » .

ويوما سألنى بذكاء : انت ناويها يا أبو حجاج ؟

وأجبت فى دهشة : ناوى على أيه يا كامل بك ؟

قال فى بسمة رضا : ناوى تكتب عن أيامك معى ؟

ودعوت له بدعاء كان يحبه : ربنا يمد فى عمرك ١٠٠ سنة ياكامل بك .

ذلك أنه حتى ساعاته الأخيرة .. كان يتشبث بأذيال الحياة ويعض عليها بالنواجز .فهولم يشبعبعد من مباهج الدنيا ومسراتها. ولم يعنيه فى قليل أو كثير أن يتبدد انتاجه الفكرى والشعرى وسخرياته الذكيه فى اجواء مجالسه وسهراته . كما يتبخر الندى مع أول ضوء للصباح !!

وكان أحمد رجب ممن يحبهم كامل الشناوى ، فهو على شاكلته ساخر وظريف وكاتب يركز أفكاره ويختصر كلماته . وكان دائما يلح على استاذه أن يدون كلماته وآراءه واشعاره التى يتبدد معظمها فى ليل القاهرة وان يصدرها فى كتب ومجلدات، لكن الحاحه ذهب أدراج الرياح .

واقترح أحمد رجب أن يتردد عليه فى منزله . ويجمع مالديه من الأوراق المبعثرة فى مكتبه . وأن يبوب مافيها من أفكار وأشعار .. ووافق ..

وذهب أحمد رجب الى منزل كامل الشناوى . نشطا . متحفزا لانجاز هذا العمل .. واذا بالشاعر الكبير يحدثه عن ذكرياته .. ويحكى له عن تلك المذيعة التليفزيونية التى تعلق بها . رقتها . صوتها . شاعريتها . وكيف أنها مهذبة السلوك لدرجة أنها تطرق باب « درج» مكتبه قبل أن تفتحه ..

ويمضى الوقت وكامل يراوغ أحمد رجب ويحاوره .. حتى جاء موعد ظهور تلك المذيعة على التليفزيون .. وغاب كامل بوعيه عنه .. و.. ضاعت المحاولة هباء .

وكتب أحمد رجب فى اليوم التالى يلوم كامل الشناوى على أفكاره المهددة ..

وكتب كامل الشناوى يرد عليه « انت على الاقل تصغرنى بعشرين عاما . وستعيش بعدى كثيرا . وعندما تحترق سيجارة حياتى ويرشف القدر آخر نفس فيها . فاهرع الى بيتى وخذ ماتجده من أوراق وانشره على الناس . وما اقوله لك ليس مداعبة . ولكن وصية أسجلها هنا علنا وعلى رؤوس الاشهاد » .

وعندما رحل كامل الشناوى . بر أحمد رجب بوعده . وحاول تنفيذ شروط الوصية . وطارد شقيقه الشاعر مامون الشناوى على صفحات الأخبار . وفى المساكن التى يأوى اليها والمجالس التى يختبىء فيها والمكاتب التى يتردد عليها .. و .. مازالت مطارداته مستمرة .

على أن ضمير مأمون قد استيقظ ـ على ما يبدو ـ فجاة واصدر أربعة كتب جديدة من مؤلفات كامل الشناوى وأوراقه المبعثرة ، وأضاف الى ديوانه « لاتكذبى » قصائد جديدة لم تنشر من قبل ، وبقى الكثير والكثير جدا ، الذى يستحق التسجيل من ذاكرة أصدقاء وتلاميذ الشاعر الكبير ، الذين شهدوا لياليه الطويلة وسمعوا أحاديثه وتأملاته الفلسفية وأشعاره التى كان ينفعل بها وينظمها من وحى الموقف واللحظة !

****

● تمضي سنوات الخمسينات صاخبة الايقاع .. حافلة بالأحـــداث والخطوب اللاهثة . تنهار الملكية وتتربع الجمهورية على عرش مصر .. وتتبدل هياكـل الحكـم وتنسدل الستائر على عهد الصراعات الحزبية . وتسقط نجوم وتلمع نجوم جديدة فى عوالم السياسة والفن والصحافة ، ويظل كامل الشناوى كما عهده تلاميذه وحواريوه فارسا مبارزا لايشق له غبار ولايتزحزح عن مكانه .. مجددا لأسلحته وأساليبه فى حلبة الصراع من أجل البقاء والحضور الانسانى الغامر .

وفى تلك السنوات العجاف كان يغلف أحزانه لتقلبات الزمن وأحوال الحياة والناس .. بالموافقة والتوافق والانسجام . كان يخشى أن يصبح سـلفيا أو متهما بالحنين للماضى والا فاته ركب المستقبل وتخلف عن مكان الصدارة ، ولذلك ظل كامل الشناوى دوما .. جديدا ومتجددا يسبق عصره وشبابه !

كانت بديعة مصابنى قد جمعت تحويشة العمر من جنود الحلفاء وأثرياء الحرب واختفت فجأة عن عيون السلطات وتربص الضرائب . وتظهر فجأة أيضا مربية للفراخ فى بلدة « شتورا » بلبنان .

وتنهال المعاول هدما فى مبنى كازينو بديعة الصيفى . وتنشق الارض عـــن ناطحة معمارية لاحد أمراء البترول تتحول بعد ذلك الى فندق « الشيراتون » .

وتمتد يد التطور الباطشة الى مطعم (الباريزيانا) الشهير فى شارع الألفى .. ويلفظ زبائنه وعشاق مآكله ومشربه « على الحساب » . وترتفع لافتة جديدة عـــلى واجهته ايذانا بافتتاح معرض للموبيليا .. وتستولى حكومة الثورة على فندق وملاهى ومباهج « حلمية بالاس » بمصر الجديدة . وتسكنه مكاتب عليها موظفون وضباط ومسئولون .. ويغلق بار اللواء بالضبة والمفتاح وتنهض مكانه عمارة اللواء ببـــاب اللوق ، وتختفى شرفة فندق الكونتننتال خلف صف طويل من المحلات التجارية .. و .. كان فندق شبرد القديم بشارع ابراهيم باشا قد تلاشى الى ذرات متفحمة اثر حريق القاهرة المشبوه .

وهكذا شيئا فشيئا يندثر العديد من المنتديات التى اعتصرت رحيق ليالى كامل الشناوى وشهدت أسعد لحظات سمره وذكرياته التى لاتنسى . ولكنـــه لايستسلم للزمن . يخلع عنه رداء ذكرياته القديمة . لينسج ذكريات جديدة.

فى خضم هذه التحولات التى شهدتها مصر على كل صعيد . كتب يقول : « تمهلى أيتها الايام .. لاتدفعينى فى طريقك بهذه السرعة المجنونة . اننى لا أجـــرى . ولا أمشى ولكنى أحفر بخطواتى القبر الذى سيضمنى .

ما اشبه طريق حياتى ببيتى ، نصفه مفروش والنصف الآخر خال من الأثـــاث التفت ورائى فأجد الايام تغطى طريقى . وانظر أمامى فأرى الطريق عاريا الا من يوم أراه ويوم لا أكاد أراه .

ياشقوتى من طريقى .. يثير خوفى كلما تقدمت خطوة . ولا أستطيع أن ارجع الى الوراء فهذا محال .

هل أقف مكانى واتجمد حتى لا أصل الى العراء الذى ينتشر كالظلال القاتمـــة ؟ ان الوقوف والتجمد كليهما موت ، وأنا لا أخاف الموت لكننى لا أسعى اليه » .

ومنذ أن بلغ كامل الشناوى الخمسين من عمره ..ولم يفارقه الاحساس بالزمن.. حدته ، وسرعته ، ومتغيراته .. وأدرك أن بقاءه على حلبـــة الصراع مع الزمن وفوق قمة الحياة أمر يحتاج منه الكثير .. الحضور .. والتجدد .. والمزيد من الأصـــدقاء .. والمزيد من الحب .. وأدرك ان الهجـــوم افضل وسيلة للدفاع .. وقرر أن يقهر الزمن وأن يصوب نحوه سهامه ليلا .. وأن يترك عناء نومه للنهار !!

ولذلك فان مناجاة كامل لليل وفى الليل وتألقه في أجوائه ٠ كان انعكاسا لتلك المؤثرات التى طالما حومت فى رأسه وهزت مشاعره ٠ وأثارت شجنه وأحـــزانه ٠٠ كتب يوما وهو فى أسر المرض والتزام الفراش مضطرا :

« أيها الليل ، يا حبيبى ٠٠ الم يعد لنا مكان نلتقى فيه الاغرفة نومى ؟!
أين الشوارع ، والملاهى ، والفنادق ؟
اخرجنى من بيتى كما كنا نفعل أيام الشباب ٠٠ وأسهر معى حتى أرى أصدقاء عمرى ٠٠ السحر ، والفجر ، والصباح !
أيها الليل يا حبيبى ٠٠ أترك عناء نومى للنهار !! » ٠

وعندما بلغ عامه الثالث والأربعين ٠ تلفت حوله فوجد أن كثيرا من أحبائه وقرناء جيله قد رحلوا الواحد تلو الآخر ٠٠ فما باله وقد أرهق جسده وأتعب قلبـــه وبدد مشاعره واستهلك نبضه ٠٠

وفى هذه المرحلة من حياته ٠٠ كتب كامل الشناوى ونظم الكثير من نثره وشعره الفلسفى المتشائم ٠٠ الواعى لهذه الحقائق والمعانى ٠٠

كتب يصف انطباعاته وأحاسيسه فى عيد ميلاده :

« قفى أيتها الايام ، انك لاتقطعين طريقا ، ولكن تقطعين عمرى ٠٠ اســـتريحى واريحينى ، فقد ظللنا نجرى معا أكثر من ثلاثة وخمسين عاما ٠٠

ولكن ٠٠ كيف نتوقف عن المشى ؟ ان معنى ذلك أن نموت ، وأنا أتشبث بحياتى وهى مهما ترهقنى ٠٠ أحبها ، اننا نبكى منها ، واذا هددتنا بالتخلى عنا ، بكينا عـــلى انفســـنا !

ما أعجب العمر ، انه الشيء الوحيد الذى اذا زاد نقص ٠٠ وفى هذا اليوم ينقص عمرى ، فقد أضافت اليه الأقدار عاما جديدا !! » ٠٠

ويوما بعد يوم فوجئ كامل الشناوى بمؤشر خطير ٠٠ ساعة جيبه المنضبطة التى عاشت معه ذكريات الشباب والكهولة ، بدأت تتباطأ حينا وتسرع الخطى أحيــانا وانزعج لهذا الحدث أشد الانزعاج ٠٠ حاول أن يصلح من عقوقها لعلها تعود الى الانتظام فى ركب الزمن وايقاعه ٠٠ ولكن عبثا ذهبت محاولاته ٠٠ ودون أن يخبر أحدا بحث عن ساعة جيب تكاد تتطابق أوصافها مع ساعته القديمة ٠ وشبكها فى « كاتينة » الساعة القديمة ، وأوهم نفسه بأن شيئا لم يحدث ٠٠ وهكذا كان حاله دائما عندما يواجـــه الحقائق التى لاتروقه ولايجد فى ارادته أو عقله أو فكره حلا لها !!

قال يصف حاله مع ساعته العاقة :

« أصبحت ساعتى مثلى ٠٠ أصابتها الشيخوخة ، فقدت توازنها ، تريد أن تسير فتقف ، تحولت دقاتها المنتظمة الى سعال متقطع !
كل يوم يبذل الساعاتى معها ٠٠ مايبذله الطبيب معى ولكن الزمن أقــــوى من الساعاتى ، ومن الطبيب !
حاولت التخلص منها ٠٠ فماذا أصنع بها ؟
٠٠ آه من يوم أرى فيه الناس يحاولون التخلص منى ٠٠ لأنى أصبحت مثـــل ساعتى !! »

وعندما توفى يوسف حلمى المحامى صديق صباه وشبابه وكهولته ٠٠ انزعج وكثيرا ما كان ينزعج فى كهولته لمفاجآت الموت ٠٠ وخاصـــة موت أصدقائه ومعارفه وأبناء جيله ٠٠ وكتب يوما بعضا من عباراته الفلسفية الحائرة :

« اذا كانت الحياة حقيقة ، والموت حقيقة ، فأين ــ نحن البشر ــ من الحقيقتين ؟
هل نحن أحياء ننتظر الموت ؟ هل نحن موتى تركنا مرحلة الحياة ؟

ولكن ·· لماذا نسأل عما لاجدوى في أن نجهله ، أو لا نجهله ؟
ليتنى أعجز عن استخدام هذه الكلمات : «لماذا » و « كيف » و « فيم »و« علام »
فانها شواكيش تطرق راسى كلما حاولت أن أعرف من أنا ·· ؟ ومن أين ·· ؟ والى أين؟»
و « الى اين ؟ » كانت احدى قصائده الحائرة امام الموت والمجهول :

الى أين نمضى أيها الدهر
بعد ما تصير هباء
لاضجيج ، ولا صمت ؟!
وينسل منا الحب والخير والهوى
وينسل منا الشر والغى والمقت ؟!
الى أين يمضى شيبنا وشبابنا ؟!
الى أين يمضى الومض والنبض والصوت ؟! .
·· وفى أى قبو منك
خبأت من مضوا ؟
وأبعدت مثواهم
فراحوا ولم يأتوا
وفى أى يوم نلتقى بهم .
·· أجب !!
فقد هدنا شوق ·· وعذبنا كبت

وحول « ثم ماذا ؟ » عبر كامل الشناوى فى قصيدة أخرى عن تأملاته الفلسفية :

ثم ماذا يا دهر ؟
هل من جديد
أجتنى منه لوعتى وعنائى ؟!
هات ما قدر القضاء علينا
ولتفض كأس عيشنا بالشقاء !!
لست أخشى القضاء
ان قصد العدل
ولكن ···
أخاف ظلم القضاء !! .
ورضينا بالظلم
··· لو أن دهرى ينتهى ظلمه
بهذا الرضاء !!
سخريات هذى الحياة
وسر ··
لم يزل غامضا على الأذكياء
أى معنى للورد
يولد فى الروض صباحا
وينتهى فى المساء ؟!
والجمال الذى تحول فيه
·· نبض قلبى جمرا من البرجاء !! .
كيف يخبو ضياء
·· حتى كأن لم

يك بالامس بالوضىء الرواء ؟!
•• وترى دمعه الحنين اليه
حول الدهر سيرها للرثاء
رب ليل ظللت أرشف فيه
كل ماشئت من رحيق اللقاء
وأتى الصبح بالخطوب التوالى
•• من عذاب ، ولوعة ، وجفاء

***

•• أين قلبى ؟!
فقدته فى غرامى
أين عينى ؟!
أذبلتها فى بكائى !!
ورجائى
أضاعه لى دهرى
•• فى شبابى
يارحمتا للرجاء !!

***

لسواء على عشت سعيدا
أم قضيت الحياة فى بأساء !!
فالزهور التى ذوت ظامئات
كالزهور التى ذوت فى الماء !!
والطيور التى تغرد فى الأيك
•• سرورا
مصيرها للبكاء !!
عشت فى عالم
تهيج شجونى
كلما قيل عالم الأحياء !!

***

علمونى كيف الغباء لأحيا
هانئا بينهم حياة رخاء !!
وامنحونى بعض الرياء لعلى
أرتوى غلة ببعض الرياء !!

****

● فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات كانت القاهرة قد بدأت تعـرف لأول مرة موضة « كافيتريات » الفنادق الفخمة التى تفتح أبوابها ليل نهار •• وكأنها كانت أحد أحلامه وأمنياته التى طال انتظار تحقيقها ••

فى البداية اختار لنفسه مائدة فى كافيتريا « الهيلتون » يطـل وراء زجاجهـا

البللورى ميدان التحرير .. وليلة بعد ليلة بدأت تتقاطر عليه وفود من أصـــدقائه وتلاميذه وحوارييه .. من مشاهير الفن والصحافة والأدب .. وصعاليكها وبلهـــائها أيضــــا ..

وقد هجر كامل الشناوى كفاتيريا الهيلتون بعد انتقال محبوبته المضيفة الى عالم السينما والسينمائيين . واحس براحة غامرة فى كفاتيريا « نايت أندداى » بفنـــدق سميراميس . فكم من الذكريات العزيزة عاشها صحفيا وعاشقا وجليسا فى بهو الفندق « الاستيل » العريق . وكم كانت فرحته بطعامه الفرنسى « المسبك » يعـــوض به « مسلوقات » الهيلتون الامريكى .

وفى ليلة الافتتاح قال لنا فيما يشبه الاصرار : « سوف نجعلهم يتخففون شيئا فشيئا من « ارستقراطية » الفنادق الكبيرة الى بساطة المقاهى » وقد كان له ماأراد .

استطاب له السهر فى الكفاتيريا شتاء . وفى « تراس » الفندق المطـــل عـــلى النيل صيفا . وكانت المقاعد تتزايد حول مائدته على امتداد ساعات الليل الى خمسين مقعدا فى بعض الاحيان .. ولاتنقطع «الطلبات» لضيوفه وجلسائه مابين طعام وشراب . وعلى حسابه فى معظم الأحيان . وكان يلتهم أطباق « الايس كريم » على امتداد الليل بشغف طفولى بعد أن أقلع عن الشراب فى المنتديات العامة . فقـــد كانت من لـــذائذ الحياة وكان يعتبر نفسه انسانا « لذائذى » على حد تعتبره .

وكان كامل الشناوى لايطيق الثقلاء ومدعى الثقافة وأنصاف الاذكياء أو أنصاف الاغبياء . وكان دائما مدججا بالحيل المبتكرة والمبيدات الكلامية الســـاخرة . التى اثبتت مفعولها الأكيد فى « تطفيش » مثل هؤلاء المتطفلين على مجالسه .

كان الجارسون يأتى الى مائدته .. ويسأل كامل الشناوى جلساءه واحدا واحدا عما يجب أن يشرب أو يأكل . ثم يتخطى من لايقبلهم فى مجالسه .. فلا يوجه لهـــم السؤال . أما اذا كان المتطفل « ارجوزا » بشريا أو مخمورا خفيف الظل . أو غائبـــا عن الوعى . أو فاقدا للاتزان الاجتماعى . فاهلا به وسهلا .. وعلى الرحب والسعة .

وذات سهرة .. أقبل على مجلسه واحد منهم .. كان يضع على رأسه طربوشا مترباً كأنه خارج من مقبره . وكان يرتدى بدلة كاملة برغم قيظ الصيف .. تلتصق بجسده النحيل فى خوف وخجل . فصارت وكأنها جلد طبيعى يكسو عظـــامه . متساقط شعر الرأس والحاجبين اثر اصابته بمرض « الثعلبه » .

أقبل علينا ورائحة الخمر الرخيص تسبقه الى أنوفنا وكأنها هاربة من أمعائه . ودون سلام أو كلام .. امتدت يده مباشرة الى أكواب البيرة المعدنية المتناثرة عـــلى المائدة . وأخذ يعب منها فى جوفه الواحدة تلو الأخرى حتى أتى عليها جميعا . ونحن فى دهشة من أمر ذلك الغريب .. بينما كامل الشناوى فى قمة نشوته وضحكاته المرحة بهذه المفاجاة السارة و .. أدركت أنها ليلة ليلاء !!

صفق ينادى الجارسون . طلب له مقعداً . وطلب له زجاجة بيرة . وثانية .. و .. خامسة . وكأنه أفاق من تأثير الخمر الرخيص . اذ بدأ يتفرس فى وجوهنـــا ثم تساءل : « مين دول يا كامل بك ؟ » . بينما الجميع فى حيرة من أمر هذا الرجل .

عندئذ قدمه الينا كامل الشناوى : الاستاذ « .... » رئيس تحرير « حبس » جريدة « ... » والزعيم المزيف للشباب الوفدى ..

وصفق تحية له .. فصفقنا جميعا .. ثم قدمنا اليه واحدا واحداً .. بليـــغ حمدى . أصبح اســـمه الدكتور زكى البتاتونى الطبيب فى قصر العينى . وقـــال القادم المجهول : « طبعا .. طبعا .. مين يجهل الدكتور البتاتونى .. ده ياما عمللى

غسيل معدة بنفسه . صلاح عبد الصبور أصبح على الابراشى المهندس فى البلدية . وقال « الله يرحم والدك كان من الصالحين . ازيك يا على .. والله كبرت وبقيت راجل .. وازى عمك .. لسه عايش فى عزبته فى الفيوم ؟ . وجاء دورى فى توزيع الاسماء وأصبحت يوسف السباعى وقال المخمور : شبه أبوه الخالق الناطق .. كان من زملاء المهنة وأرباب القلم .. و ..

و « رئيس تحرير الحبس » مهنة مشروعة عرفتها الصحافة العربية ردحـــا من الزمن . ابان عهود الانجليز والسراى والقلم السياسى فى وزارة الداخلية الذى كان يتعقب عناصر الحركة الوطنية آنذاك . وكان وضع اسم رئيس تحرير الحبس بمثابة تمويه وتعمية لاعين السلطات عن رئيس التحرير الحقيقى . وعند المساءلة أو التحقيق حول مقالة أو خبر ضد الملك أو الحكومة أو الانجليز .. يساق رئيس التحرير المزيف الى الاعتقال أو غياهب السجون .

ولن أجد وصفا أدق . ولا أصدق مما كتبه كامل الشناوى عن ذلك الرجل فى لمحاته الشعرية فى بابه « ساعات » فى جريدة الجمهورية :

« عندما رأيناه أول مرة فى هذا المكان الهادىء . انتابنا الفزع . تصورناه جثة تسللت من قبور الموتى . صيحاته صراخ . وهمساته أنين .. تتكسر الألفاظ فى فمه من كثرة ما يضغط عليها بحلقه وأسنانه . فى صوته فحيح أفعى وعواء ذئب . وخوار ثور يوشك أن يهيج .. فاذا وصل الى أذنيك أحسست أنك تسمع حشرجة أنفاس وهى فى الرمق الأخير !!

اذا انتصب قائما فهو شبح . واذا تهادى فى مشيته فهـــو نعش ليس وراءه مشيعون .. واذا جلس مكانه فهو ضريح .. لايرتدى ملابسه ولكن يلتف بها كمـا لو كانت كفنا .. يرى عربة الزمن وهى تنطلق فيلعنها ويقول فى خيلاء بلهـــاء : لو شنقونى ماركبت هذه العربة !

توقف عن المعرفة . والمتابعة . وتعطل جهاز عقله . فهو مازال يتحدث عـــن المندوب السامى البريطانى . ويطالب بالجلاء . ويعجب كيف سمحت الحكومة بهدم ثكنات قصر النيل . لأنه لايدرى أن الانجليز خرجوا من بلادنا .

أحيانا يصغى . وينظر . ويقرأ . ولكنه لايعى .. ولايرى .. ولايفهـــم .. الألفاظ التى يستعملها ينخر فيها السجع والسوس . وتراب القاموس . الأسـماء التى يرددها تسبقها دائما كلمة « المرحوم » أبرز معانيه انه بلا معنى .

يقاسى محنة السقوط فى الماضى . وعبثا حاولنا أن ننتشله من محنته . كنـــا نشده الى اليوم فينزلق منا الى الامس . ندفعه الى الأمام فيظن أننا نصفعه فيثـــور لكرامته وينهال علينا بالصياح والعويل !

كل مافيه غابر . متلكىء . عتيق . الأمثلة الركيكة التى يحفظها . الشعر التافه الذى يترنم به . الطربوش الواسع الذى ينكفىء على وجهه كمظلة . أو يسـتقيم فوق راسه كظرطور .

كلما اختلط بنا احسست بالضيق والانقباض . ولا ادرى ماذا أصنع به ؟ هل أسخر منه ؟ أم أبكى عليه ؟ ثم ابكى عليه » .

من هنا كانت خصائص « رئيس تحرير الحبس » مؤهـــــلات كافية ليدخـل هذا الرجل الغابر الغائب عالم كامل الشناوى . ويصبح مادة دســـمة للضـــحك والسخرية وشعر المهملات !

أليست لديه ملكة التصور والخيال .. أليس بطلا يعيش مجدا غابرا لم يتحقق أليست لديه بطولات «دون كيشوتية » مقطوعة الصلة بالحقيقة . فهو مازال يعتقد

ونحن في الستينيات ان زعيمه قد سافر الى الاسكندرية ويقيم في « سان استيفانو » ويدير الحكومة من « بولكلي » . أليست لديه ملكة التصور والخيال . وموهبة الغموض الغيبوبة . أليس الفنان هو الانسان الوحيد المسموح له ببعض الجنون .

وبدأ يرحمه الله يدير لعبة الصراع بين الوعي واللاوعي . بين العقل والجنون. لتمتد ليالي هذا الرجل معنا أسابيع وشهورا ..

ويستضيف كامل الشناوي الدكتور لويس عوض الى مجلسه . ويقدم له ذلك الرجل على أنه أستاذ في التاريخ المعاصر . ولكنه اعتزل الجامعة والناس بعد أن لاقى صنوف التعسف والظلم من زملائه بالجامعة .. تماما كما حدث للدكتور لويس عندما كان أستاذا للأدب الانجليزي في كلية الآداب .. وفتح كامل الشناوي أبواب النقاش بينهما حول مقالة أثارت موجة من التعليق والنقد . كان الدكتور لويس عوض قد كتبها حول دور الجنرال يعقوب ابان الحملة الفرنسية على مصر .

وبدأ الدكتور لويس في عرض وجهة نظره بالحجة والمنطق وهو يتناول ماكتبه في مقالته عن الدور الحضاري للجنرال يعقوب وانه لم يكن على الاطلاق عميلا أو جاسوسا .. والرجل المخمور يجادله بلا منطق ولاوعي .. هاذيا ومخرفا .. ويشتد وطيس النقاش بين الوعي واللاوعي .. بين العلم والخرافة .. واذا بكامل الشناوي ينفجر من أعماقه بالضحكات المتواصلة .. حتى تأتيه نوبة « الزغطة » . وعندئذ يكتشف الدكتور لويس انه كان ضحية لأحد مقالبه التي لاتنتهي معه .. ويضحك مع الضاحكين !

وكان جلساء كامل الشناوي يحاولون عبثا ايقاظ ذلك الرجل المخمور الذي دفن عمره في غيبوبة مفتوحة العينين . وأهدر آدميته بأوهام غامضة وغباء صريح .. غير أنه لم يكن سلبيا ازاء مايفعلونه ، ليس فقط بالقذف والسب العلني .. بل والأدهى من ذلك أنه كان يعبث بعقولنا بالفعل . ويشوشها ويتهمنا بالجهل والجحود وانكار فضل الزعماء والكتاب والمناضلين من أمثاله .

وأشهد أن كامل الشناوي كان يقظا دوما لحمايته من محاولاتنا هذه .. وكان يقول لجلسائه : « وما الذي يبقى له اذا أفاق من أوهامه وغيبوبته المخمورة . وقد تغير زمانه وولى رجاله . دعوه بالله في أحلامه السعيدة وأمجاده الكاذبة » .

والغريب من أمر هذا الرجل . أنه عندما يشعر بانتهاء السهرة وموعد دفع الحساب . وأنه لامزيد من زجاجات البيرة . كان يثور ويحدث صخبا وجلبه تصل الى الادوار العليا في فندق سميراميس . وكان المرحوم أحمد حسني وزير العدل الذي يقيم بالدور العلوي يستيقظ في تلك اللحظة ويتصل بشرطة النجدة . حيث يحمل الرجل المخمور الى سيارة الاسعاف في الطريق الى قصر العيني لاجراء عملية غسيل معدة . وكان يرفض أن يحمل على نقاله .. ويصر على أن يحمل فوق الاعناق .. ويستجيب رجال الاسعاف لطلبه وعندئذ يدوي صوته كزعماء المظاهرات في الماضي « اليوم حرام فيه العلم .. الاستقلال أو الموت الزؤام » ..

وكنت أسال نفسي : لماذا لاينتقل كامل الشناوي بمجلسه الليلي الذي يضم الصحفيين والأدباء والفنانين الى مكان آخر ويتجنب هذا الرجل الموهوم . ولم أجد تفسيرا لذلك سوى رغبته الجارفة في السخرية من الحياة . وفضح متناقضاتها وزيفها وكسر رتابتها . وربما كان يجد في تصرفات مثل هذا الرجل وأمثاله .. بعض أسرار الغموض « الميتافيزيقي » للوجود ربما .. فقد كان رأيه دائما ان الانسان يبلغ قمة السعادة حينما يفقد القدرة على الفهم والتفكير .. فما دام يفكر فمعنى ذلك أنه يجري وراء السعادة ولايصل اليها .

ويوما سأله احسان عبد القدوس بأدب ورقة المخاطبة بين التلميذ واستاذه .. عن سر غيبته عن مجتمعات الفن والصحافة .. وعن سر تعلقه بذلك الرجل المخمور .. وفي اليوم التالي كانت اجابته :

« أفكاري التي تؤرقني تتمنى أن تغفو على وسادة . اننا في حاجة الى كل الناس .. حتى لوكان هذا الانسان تافها .. أو أحمق . ان الناس هم الأردية التي نلبسها في الحياة . فبينهم ربطة العنق التي تزين الصدر . وبينهم الحذاء الذي يحمي القدمين من الحفاء ، ولقد شعرت وأنا أبحث عن ذلك الرجل بأني اسير حافي القدمين . فلما عثرت عليه فرحت ، ومددت يدي اليه في حرارة . صافحته بصوت مسموع . وخيل الى أنني وجدت الحذاء الذي وضعت فيه قدمي . وأن رنين المصافحة ليس الا قرقعة حذائي وأنا أمشي في الطريق » .

****

● على المناديل الورقية التي تحمل اسم « سميراميس » . كانت آخر سهراته الصاخبة مع رئيس تحرير « الحبس » بعد أن عايش مجلس كامل الشناوي الليل أسابيع وشهورا . كانت سهرة حافلة بالخطابة « وشعر المهملات » بمناسبة انتخاب الزعيم الاوحد الذي يستحق ثقة الشعب . الزعيم القادر على اعادة الدستور واخراج الانجليز الذين كانوا قد رحلوا عن مصر منذ عشر سنوات !!

كان من شهود السهرة المرحوم محمد أحمد محجوب وزير خارجية السودان آنذاك وهو شاعر مرموق . والمذيع الشاعر مأمون أبو شوشة ، والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي وعدد كبير من الأصدقاء .. و .. عشرات المتفرجين من زبائن الكفاتيريا .

وعلى عادته في ترتيب وقائع السهرة .. قدم الى وزير خارجية السودان ذلك الرجل المخمور ضاحكا : « أقدم لك زعيم حزب زمش .. وهو ليس اسما حركيا .. ولكن زمش .. اختصار لعبارة زي ما انت شايف ! » .

وكان الرجل المخمور قد تجرع عددا من زجاجات البيرة .. واخذ يهذي بعبارات متقطعة عن موقف الانجليز من النحاس باشا عندما قرر الذهاب الى السودان .. والتفت اليه كامل الشناوي وقال له بلهجة تتسم بالجدية والحسم : « اسمع يا أخينا اليوم جد لاهزل ، فاما أن تؤكد زعامتك للشباب الوفدي أمام الزعيم السوداني .واما انك غير جدير بما تدعيه من مجد غابر .. هذا هو زعيمنا ـ مشيرا الى الفنان سعيد أبو بكر وعليك أن تنتزع منه الزعامة . والا أوصدنا اذاننا عن سماعك . وشحت جيوبنا عن دفع ماتتجرعه كل ليله من زجاجات البيرة » .

ويقف الفنان سعيد أبوبكر وكأنه على خشبة المسرح . منددا بالزعيم الموهوم . معددا لباعه الطويل وتاريخه العريض في قيادة المظاهرات الوطنية . واعتقاله .. وسجنه .. ثم اختتم خطبته بالدعوة الى تحكيم الشعب بينهما .

وتثور ثائرة الزعيم الموهوم . وبعد مقدمة طويله شكر فيها الجماهير التيجاءت لتاييده .. هاجم سعيد أبو بكر .. وتحداه أن ينافسه في معركة انتخابية فاصلة .

وعلى الفور بدأ كامل الشناوي في توزيع الأوراق على جلسائه وعلى رواد الكفاتيريا الذين كانوا يتابعون المشهد . ثم جمعت الأوراق في جردل معدني . وتولت لجنة محايدة فرز الأصوات . وكانت النتيجة بالطبع . فوز زعيم حزب « زمش » بكل الأصوات .. حتى صوت منافسه سعيد أبو بكر .. وهلل الجميع وصفقوا له ..

ويقف الزعيم المنتخب على أحد المقاعد صامتا . وكأنه يتطلع الى جموع الشعب

المحتشدة ليسمعوا قوله الفصل فى قضية الساعة .. ثم يحمد الله ويثنى عليـــه از وفقه في كسب المعركة الانتخابية . والفوز باجماع الشباب الوفدى فى تلك الظـــروف العصيبة التي تعيش فيها البلاد .. ثم يصف غريمه سعيد أبو بكر بممالأة السراى والعمالةللانجليز .. ويهذى .. ويهذى .. ثم يختم خطبته بهتـــاف مدو : « مصر والسودان لنا . وانجلترا ان أمكنا » .

ويدعو كامل الشناوى صديقه محمد أحمد محجوب الى تحية الزعيم الموهـــوم بفوزه الساحق فى الانتخابات وينظم بيتين من شعر المهملات :

قهرت كل المرشحينا
فخذ يدىوأعطنى يمينا
وأخطب لنا وقل كـلاما
يمله الناس أجمعينـا

وينبري كامل الشناوى الى التهنئة ويقف مستندا بكلتا يديه على المائدة كعـــادة شعراء أحزاب الماضى ويلقى قصيدته الحماسية :

اى مـولى صرت عبـده
أيهـا الفاقـد رشـده
ما الذى أعطاك « ينى »
ما الذى ضيعت عنـده
كلمـــا ألقـــاك ألقى
عاقـلا أخلف وعـــده
يا أمينـا فى عهـــوده
ضيع الخمـار عهـــده
أنـت فى الأوزان كسر
أنت فى الأحـرف شده
ليتى أبكـى عليـــــه
ليتنى أحتار بعـــده

ويقدح الشاعر مأمون أبو شوشة قريحتهويلقى قصيدة زجلية يهنىء فيهاالزعيم المخمور :

الكاس فى الكاس
والقرعة فى راسي
وأخوك تربـاس
غلبـان محتاس
آل ايه بيقول .. كان مرة زعيم
وزمانه قديـــم
ومقامه عديـــم
وحقيقته بهيـــم
وعامل آل ايه مصطفى نحاس
وزعيم آل ايه كل الأجناس
المجـد اهوراح
والخلق ارتـاح
وفاتوا لو جـــراح

خلقة سـفاح
وضحية بغية الحق يا بوليس
مجنون بماهيه
وأغل هديـة
تاخده مطيه
ويستجيب الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى لنداء الواجب الوطنى المزيف ويقول:
المجاديف
المجاديف تولول
تهلـــل
وتنـــادى
انت عيـل
ماهنا شخص مضلل
ومضــــلل
أيـــن راح
ياريــــاح
يا أغاريد الصباح
أسألوا « ينى » فينى يعرفه
شاربا من دون قرش ·· يصرفه
فاذا أذن الليل رواحا يقذفه
والرصـــيف
الفوانيس البغايا تلقفه
هو في الصبح فلان نعرفه
وهو في الليل رزيق ننسفه
وكانت آخر قصائد التهنئة لأحد رواد الكفاتيريا قدمها الى كامل الشناوى اسهاما فى السهرة فتولى القاءها بنفسه :
الصراصير والعناكب ·
انت راكب
وتمثلت فى المرايا محارب
انتهى عهـد الأجـانب
فهو شـارب ثم شـارب
عبر البحر دون قـــارب

ثم كان الختام المعتاد للسهرة والفجر يوشك أن يبزغ وسيارة الاسعاف تصل دون أن يستدعيها أحد ـ الى باب سميراميس · والزعيم يحمل على الاعناق · بينما وزير العدل يرقب المشهد من شرفة غرفته بالدور العلوى ويضحك ·· ويضحك الجميع ·

وانتظرنا قدومه فى المساء · يوما وأياما ·· وافتقده كامل الشناوى وقلق عليه وكتب يقول :

« أخيرا اختفى ، وظننت أنى لن أذكره حتى بالنســيان ، واذا بى أبحث عنـه · كما لو كان صديقا انقطعت أخباره ·· أحسست أن عقليتى تريد أن تتثاءب ، وتتمطى، وتسترخى على أريكة من جنونه ·· ومن أفكاره التى تعيش فى غيبوبة ! » ·

وكما افتقده كامل الشناوى افتقده رواد الكفاتيريا بشـــدة · وظننا مكـــروها أصابه · وركبت مع كامل الشناوى سيارة صلاح عبد الصبور ·· وبحثنا عنه فى كل

بار وخمارة وبوظة ٠٠ وأخيرا وجدناه فى بار شعبى رخيص يواجه مسرح الأزبكية اسمه « خمسة باب » !

كان يشرب كوبا من الشاى وسط السكارى والمخمورين ٠٠ وعندما رأى كامل الشناوى تهللت أساريره بالبكاء ٠٠ و « أنا خلاص خفيت يا كامل بك ٠٠أنا لازعيم ولا حاجة ٠٠ بطلت الخمرة خلاص ٠٠ نفسى اشتغل ٠٠ نفسى اشـــتغل ٠٠ نفسى أنسى خيانتها ! »

وفى اليوم التالى كان هذا الرجل يرقد فى مستشفى الانجلو على نفقة كامـــل الشناوى ٠ وعرفنا بعد ذلك أنه شفى تماما من الخمر وكابوس الزعامـــة وأمجـــاده الوهمية ٠٠ وتوسط له ـ يرحمه الله ـ فالحقه بوظيفه مفتش تحقيقات باحـــدى المؤسسات العامة ٠٠ فقد كان الرجل محاميا ٠٠

كان كامل الشناوى كمعاوية ٠٠ اذا قسا بالشمال ٠ امتدت يمينه بالصـــفح والاحسان ٠٠

وأذكر فيما أذكره عنه ٠ أن بليغ حمدى هبط علينا ذات مساء برجـــل فى منتصف العمر ٠ شاربه كثيف كما البالطو الذى يرتديه ٠ وجهه الصارم المـــلامح كنبرات صوته ٠ نصف عقله غائب ونصفه الآخر لايكاد يحضر حتى يغيب ٠٠

عرفنا أنه سينمائى مظلوم ومضطهد ٠ والحقيقة أنه كان عاطلا بسبب ادمانه للخمور والكيوف و ٠٠ تهللت أسارير كامل لهذه الهدية البشرية التى وقعت عليه من السماء ٠ لذلك القادم الجديد من وراء الوعى ٠ وأجرى معه عدة اختبارات عقلانيه ٠ أدرك بعدها أن الرجل مشكلة انسانية لا أكثر ولا أقل ٠ وليس حالة فنية دراميـــة يمكن الزج بها فى صراع مع العقلاء ، وان همومه وأزماته تثير الاشفاق أكثر مما تثير الرغبة فى السخرية والضحك وتبديد رتابة الحياة ٠

وتوسط كامل عند بعض الأطباء لعلاجه ٠ الا أن ادمانه للخمر كان يفوق رغبته فى الشفاء ٠ وتوسط له عند أصدقائه السينمائيين ٠ فكانوا يكلفونه باعمال ويعطونه أجره مقدما ٠ وهم يعرفون سلفا أنه لن ينجزها ٠٠ وأصبح حالة مستعصـــية تثير الأسف والغيظ معا ٠ ولم يجد فى النهاية ازاءه سوى الاستسلام لصحبته ٠

وذات سهرة فى بيت الفنانة نادية لطفى ٠ لم يكن ثمة مفر من أن يصطحبـــه معه ٠٠ فقد جاء مع بليغ حمدى الذى كان يعطف عليه ٠ وكان كامل الشناوى فى تلك الليلة فى قمة تالقه ٠٠ شاعرا ومحدثا وظريفا ووفيا لليل ٠ وبينما الجميع آذانا صاغية لصوته يتهادى ويتهدج بالشعر ٠ اذا بنظرته الثاقبة تقع على السينمائى المدمن ويـده تمتد الى أحد أدراج « الباهى » ويضع شيئا فى جيبه ٠

وكأن شيئا لم يكن ٠ يتدفق شعرا ومرحا ٠٠ متغابيا عما حدث ٠ ثم يهمس الى بليغ بكلمات ٠ يستأذن بعدها فى الانصراف مع صديقه السينمائى المدمن بحجـــة انه على موعد هام فى بار « زوزو ماضى » فى شارع شريف ٠

وتحاول نادية لطفى أن تستبقيه ٠ ولكن الخميسى يمزح قائلا : « طبعـــا ٠٠ طبعا ٠٠ حتى الميعاد بالاماره مع « الجنرال نابليون » وهو اسم الكونياك الذى كـــان يحتسيه بليغ ٠٠

ويضحك كامل ويقول : « ياجماعه ربما كان وراءه الهام بلحن جديد ٠٠ أوحب جديد » ٠ وما أكثر قصص الحب فى حياة بليغ ٠ حيث لعب الشاعر الكبير فيها دور المحفز لهمته العاطفية والمنقذ ــ أيضا ــ من وقوعه فى التهلكة العاطفية ٠ وعنـدما كان حبه للمطربة وردة الجزائرية فى بداياته ــ كان شديد الضيق من شقيقها الذى كان يفرض نفسه على اللقاء حتى عندما يحفظها الحانه ٠ ونصحه كامل الشناوى أن يرتدى

بالطو ويضع فى جيبه الخطابات العاطفية التى يكتبها لها • وكانت وردة تمد يدها الى جيبه وتأخذ خطابه أو تضع خطابها دون أن يشعر شقيقها •

على أية حال فقد مضت السهرة بعد ذلك • بهجة وفنا وشعرا ! • وفجأة يضحك كامل الشناوى من وراء قلبه ويسأل نادية لطفى : « هل ضاع منك شيئا الليلة ؟ »

وتجيبه فى ذكاء رقيق : نعم • فقدنا من سهرتنا بعض الأصدقاء الأعزاء !

ويعود يسألها : هذا عن السهرة •• فماذا عن الباهى ؟

وتمر لحظات وهى فى دهشة من سؤاله •• ثم تخطو نحو « الباهى » وتفتح ادراجه •• تتسع دهشتها وتقول : « أيوه صحيح •• كان فيه عشرة جنيه ؟ » •

وتنفجر ضحكات كامل الشناوى المصنوعة •• ويقنعها بأن ماحدث ليس أكثر من مقلب مدبر •• ويرد اليها العشرة جنيهات من جيبه الخاص و •• « أبقى خلى بالك يامدام •• المال السايب يعلم السرقة » •

وهكذا تخلص كامل الشناوى من هذا المازق بلباقته وانسانيته • ودون أن تعرف نادية لطفى بحقيقة ماحدث • ودون أن ينال من كرامة ذلك الفنان البائس الذى دفن موهبته فى كؤوس الخمر ودخان الادمان •

وتلك كانت حقيقة كامل الشناوى • رحيما بارا بمن يستحقون العطف والمساعدة • مداعبا للأراجوزات البشرية • والغائبين عن الوعى • قاسيا مع البلهاء والفاقدين للحس الاجتماعى السليم •• وكانت مقالبه أو سخرياته مرآة تفضح عيوب البشر وأخطاءهم ••• وتناقضات الحياة وغموضها • ووسيلته الى اغتيال ساعات الليل • سهرا وأنسا ومرحا •

****

● وقد عرف كامل الشناوى الليل فى طفولته فكرهه • لأنه كان يعنى العزلة فى البيت • والقراءة الاجبارية • والامتناع عن ملاعبة أطفال الجيران فى الليالى المقمرة أو ليالى رمضان • ولكنه فى صباه وشبابه فى حى السيدة كان الامر مختلفا • عشق الليل والسهر والناس ••

فى الليلة الختامية لمولد السيدة زينب • كان يصحبنا فى جولة على الأقدام فى جنينة « ماميش » وشارع الخليج وشارع السد الجوانى والسد البرانى حيث عاش أجمل سنوات فتوته وشبابه • وكنا نزحم معه أمواج البشر ونحن نتفرج على حلقات الذكر وسرادقات التواشيح والمديح والغناء الشعبى وسيرك الحلو ••

وأذكر فى ليلة من هذه الليالى عام ١٩٦٢ وكنا فى قمة النشوة ونحن جلوس حوله فى أحد المقاهى المطلة على ميدان السيدة يروى ذكرياته عن حياته فى ذلك الحى •• هنا كان يقف عم اسماعيل بائع الكبده بالشطه كل مساء • وأشار الى مكان يقع عند مدخل حى طولون •• وروى كيف تعرف على محمد عبد الوهاب أمام عربة عم اسماعيل •• وكان قد جاء للقاء الشاعر محمد الأسمر مع أحمد رامى • وعزم عليهما عم اسماعيل بأطباق الكبدة • وقبل رامى الدعوة وأكل • بينما تأفف عبد الوهاب معتذرا بانه لايتناول طعام السوق ؛ وخصوصا « الحاجات الحراقة » عملا بنصيحة أحمد شوقى أمير الشعراء •• ويومها قال عم اسماعيل غاضبا : « الرجل ده ميهوبش ناحية العربية تانى ! » • فقد أعتقد ان محمد عبد الوهاب يتعالى على المكان والطعام !

وسمعنا ــ بهذه المناسبة ــ رأيا جديدا لكامل الشناوى فى محمد عبد الوهاب بمناسبة هذه الواقعة الطريفة •

قال : (هذا هو الفرق بين عبد الوهاب وأم كلثوم • عبد الوهاب يصدق عليه

المثل القائل « اللى يخاف من العفريت يطلع له » • يخاف البرد • والعدوى • ولذلك أصبح يخاف من مواجهة الجماهير •• ومخالطة الناس •• ولكن أم كلثوم ولدت فى القرية •• وعاشت وسط الناس • وأكلت من طعام الموالد والأسواق •• ولذلك عاشت مطربة أطول من عبد الوهاب لأنها لم تكن تهاب الناس !!)

وعندما سألناه رأيه فيهما قال : « كلاهما قمة لم يصعد اليها أحد غيرهما • وليت القمتين قد التقيتا فى شرخ الشباب • اذن لابدعا للنـــاس فنا أعظم وأخلد • ولكــن المشكلة انهما ظلا فترة طويلة يتنافسان على عرش الغناء • وكل منهما يحاول أن يجذب اليه جمهور الآخر • فغنت أم كلثوم للجنس الخشن وغنى عبد الوهاب للجنس الناعم!»

وفجأة • قطع حديثه ووقف قائما ، وسبقنا الى السيارة • وركبنا معه •وعندما وصلنا الى آخر شارع المبتديان قال معتذرا لنا :

ـ آسف •• لم أستطع بذنوبى أن أسمع الفجر من مئذنة السيدة زينب !!

وقلنا له : ولكنك ياكامل بك تحب الآذان •• وقد سمعنا فى بيتك تسجيلات نادرة لأذان الشيخ على محمود ومحمد رفعت ومحمد سلامة •

فعاد يقول : « تذكرت والدى فجأة •كان نائب رئيس المحكمة الشرعية عندما سكنا حى السيدة وكانت أوامره المشددة لى دون بقية اخوتى بعدم السهر فى أيام مولــد السيدة • ولم يكن ذنبى أن عصيت أوامره • كنت أعشق السهر فى تلك الليــالى الفريدة وسط حلقات الغناء والصوفية والمجاذيب والسهرانين فى رحاب أم هاشم • وكنت أتسلل مع الفجر الى منزلنا ويشعر والدى بوقع أقدامى على السلم • وكــان نومه خفيفا ــ يرحمه الله ــ ويخرج من غرفته ليجدنى أمامه • وعلى الفور كنت أتحول من الصعود الى الهبوط • وكان يسألنى : على فين يا كامل ؟ • وكانت اجابتى حاضرة: نازل أصلى الفجر حاضر فى السيدة ويقبلنى وهو يقول : ربنا يفتح عليك يابنى !

وفى بعض الليالى كان يشعر بحركتى وانا افتح باب غرفتى • وعندئذ أطـــل برأسى الى اسفل السلم وأنادى بأعلى صوتى : مين اللى طالع ؟ فيسأل والدى : ميــن يا كامل وأقول : متهيألى سمعت صوت طالع !! ويخرج من غرفته ليتأكد بنفسه • ثم يقول وهو يربت على كتفى : مفيش حد يابنى •• روح نام ! »

وقد تفتحت مواهبه فى اجادة فنون السخرية فى مجتمع القاهرة بعد أن استقر المقام بالأسرة فى حى السيدة زينب •

كان والده الشيخ السيد الشناوى منزعجا لأن ابنه يهوى التمثيل وكان يخشى أن يصبح « مشخصاتى » • وكان له صديق حميم هو الدكتور محجوب ثابت رئيس حزب العمال آنذاك ــ وكان يزوره فى منزله بالسيدة كل أسبوع • ثم انقطعت زيارته فجأة عدة اسابيع • وقلق الشيخ وتوقع أن يكون السبب مكروها أو مرضا ••

وخطر للفتى كامل الشناوى • أن يدبر مقلبا • وجمع أصدقاءه فى جمعيــة المسرح التى كان يرأسها • ووضع على وجهه « المكياج » وذقنا مستعارا وطربوشا على رأسه وتوكأ على عصا على طريقة الدكتور محجوب • ثم قصد زيارة الشيخ الشناوى وسط حاشية من أصدقائه •• تماما كموكب الدكتور •

وصعد الموكب الى غرفة الاستقبال وجاء الشيخ الشناوى وسلم وجلس ثم دار الحديث عن الصحة والأحوال • وفرقعت « القافات » على لسان الدكتور المزيف • وكان الدكتور محجوب يتكلم دائما بالقاف • حتى أن الصحافة الفكاهيــة فى ذلك الحين • كانت تكتب اسمه مسبوقا بلقب « الدقتور » •

ومرت ساعة قدمت فيها القهوة والحلوى • واذا بالوالد يكتشف صوت ولــده

بين القافات المتتابعة • وهجم على عصاه وانتزعها منه •• وأسرع كامل الشـــناوى وأصدقاؤه بالجرى على السلم •

وذكريات كامل الشناوى فى حى السيدة •• كتاب عامر بالعديد من قصـــص المعاناة والحب والامل •• والضحك والسخرية •• فقد كانت مرحلة ظهـــور مواهبـه وتفتحها وصقلها ••

● وكامل الشناوى ليس مقطوع الجذور بالظرف والنكتة والمقالب • فكل أفراد أسرته ظرفاء وأبناء نكتة وأصحاب مقالب • ولكنه كان أبرزهم جميعا بثقافته وخبـرته وذكائه وظروفه الخاصة بالنشأة والتكوين • وويل لمن يقع فريسة وسط آل الشناوى •• فاذا لم يكن بينهم غريب عنهم •• فويل لهم من بعضهم البعض ••

يذكر المعتز بالله الشناوى ـ وهو أخ غير شقيق وأكبر سنا من كامل ـ يوم تخرج محاميا • وأعدواله لافتة ضخمة كتب عليها « المحامى امام المحكمة الشرعيـــة » فتسلل كامل ليلا الى اللافتة • وأزال كلمة «امام» وكتب بدلا منها كلمة «وراء» وظلـت اللافتة هكذا عدة أيام قبل أن يتنبه المعتز ويشكوه الى والده • لكن كامل نجا مـــن العقاب عندما فسر تصرفه بأنهم يسكنون فعلا خلف المحكمة الشرعية وليس أمامها • وزعم أن هذا هو المعنى الذى يقصده •

ويذكر مأمون الشناوى يوما أراد فيه كامل أن يشترى كعادته مجلة « اللطائف المصورة » فلم يجد معه نقودا • ولكن مأمون لم يبدد مصروفه بعد ولم يكن ممـــن يقبلون على شراء هذه المجلة • فذهب اليه كامل قائلا :

ـ ألم تعرف ؟ مجلة اللطائف نشرت صورة جميع تلاميذ مدرستكم •

وأسرع مأمون يشترى المجلة ليرى صورته • وبالطبع لم يجد صورة أى مـــن تلاميذ مدرسته • ولكن المهم أن كامل فاز بالمجلة مجانا •

ويذكر عبد الرحيم الشناوى فترة نصح فيها الطبيب كامل الشناوى أن يأكل كل يوم طبقا من اللبن والتين المجفف • واعتاد عبد الرحيم أن يتسلل مع شقيق آخر ويلتهما نصف الطبق فى غفلة منه • وحار كامل وقرر أن يكتشـــف اللص • فانتهز ساعة الافطار • ووضع يده على فمه متوجعا • ولما سأله اخوته مابه أجاب :

ـ اسنانى ! مازالت تؤلمنى بالرغم من « كمدات » اللبن والتين التى استعملها كل يوم •

ـ أى كمدات ؟

ـ الموجودة فى غرفتى • كل ليله أبلل قطعة من القطن • وأضعها على أسنانى • ثم أعيدها الى الطبق وأكرر العملية !

ولم يكن بحاجة الى أن يكمل حديثه • فاللصان عجزا عن الاستمرار فى تناول الطعام • ونهضا يلفظان مافى جوفيهما • كاشفين بذلك عن جريمتهما •

ودخل الشيخ سيد الشناوى يوما على كامل • ووجده يلعب الورق مع عدد من أصدقائه الصبية فصاح غاضبا :

ـ ايه ده ؟ •• بتلعبوا قمار ؟

ولم يتردد كامل لحظة • كان يعلم أن والده ظل طول حياته من البيت للمحكمة وبالعكس • فلا علم له بالقمار ولابغيره من المحرمات •• وأسرع يجيب :

ـ أبدا يا بابا •• ده بوكر ••

ـ صحيح ؟ اوعى يكون قمار ؟!

ـ والله العظيم بوكر ••

واقتنع الوالد الطيب •• وغادر الغرفة وهو لا يعلم أن طفله ضحك عليه •

● نمت ملكات الظرف فى كامل الشناوى ، وصقلت مواهبه الضاحكة وأجاد فنونها بعد أن أصبح صحفيا وشاعرا مرموقا · حيث انفتحت امامه مغاليق المجتمعات وقلوب البشر ·· وكانت صداقته للباشا الظريف حفنى محمود شقيق محمد محمود باشا زعيم الدستوريين مضرب الامثال فى الثلاثينيات والاربعينيات ·

وكان محور هذه الصداقة · عشق الليل والسهر وحبك المقالب وزغزغة البشر · وكسر المالوف فى التقاليد أو السلوك الاجتماعى · وكانت لسهرات الصديقين دوى مسموع فى ليل القاهرة · مما يحدث خلالها كل مساء من طرائف وسخريات تفوق خيال أعظم كتاب الفن الضاحك !

التقى كامل الشناوى ذات يوم بشيخ ظريف عجيب الأطوار ولنسمه الشيخ « الجندى » بضم الجيم · فاسمه ينتهى بلقب مرادف · كان يعمل خادم « ميضه » فى أحد المساجد · وقرر كامل الشناوى على الفور أن يكون ملهاته والعوبة يبدد بها رتابة الحياة وجمودها · وفوجىء قراء صحيفة الأهرام باسم الشيخ « الجندى » يذيل بعض التحقيقات والأخبار · ثم اذا به نجم لامع فى مجالس كامل الشناوى وصديقه حفنى باشا محمود فى بار اللواء ·· يستمعون الى نوادره الريفيه وغرامياته النسائية وذكرياته مع الفقر و « جراية » الازهر وهى بعض أرغفة العيش اليابس التى كانت توزع كتعيين يومى على الطلبة « المجاورين » فى الأزهر الشريف ·

ويوما بعد يوم ·· نفدت ذكريات الشيخ « الجندى » ولم يعد لديه جديد يفسح به مكانا لنفسه فى مجلس كامل الشناوى وقلبه ، حتى أصبح عبئا على الشاعر الكبير نفسيا وماديا ·

لم تكن طلباته لتنقطع عن توظيف أقاربه الريفيين فى دواوين الحكومة عملا بالمثل القائل « ان فاتك الميرى ، اتمرغ فى ترابه » · ولم تكن طلباته على حساب كامل الشناوى وحفنى باشا لتنقطع مأكلا ومشربا ·· سواء فى حضورهما أو غيبتهما على الحساب !!

وكان ـ يرحمه الله ـ يسأل الشيخ الجندى سؤالا محددا عند قدوم الجارسون « تشرب ايه » وكان الشيخ « الجندى » يتغابى عن السؤال ويجيب : كالعادة ياكامل بك ·· رز بالكلاوى · ويقول له كامل الشناوى : يابنى آدم يسألك تشرب ايه مش تاكل ايه ؟ » · ويقول الشيخ الجندى : « بقى كده ·· طيب سلطانية شربه واحد اسكالوب بانيه من فضلك » ·

وضاق به كامل الشناوى ضيقا شديدا ولم يكن هناك بد من الانتقام العاجل ··
كانت عادة الشيخ الجندى أن يترك حقيبته وسلسلة تضم مفاتيح مكتبه وشقته على المائدة · ويخرج ليقضى بعض الأعمال ثم يعود لمواصلة جلسته فى بار اللواء · وخلع حفنى محمود منها مفتاح الشقة واعطاه لسائقه وأمره باستخراج نسخة منه على وجه السرعة ·· ثم أعاد المفتاح الاصلى الى السلسلة · وفى اليوم التالى عاد الشيخ الجندى الى مجلس كامل الشناوى وحفنى محمود حزين مبتئس ·· وعندما ألحا عليه لمعرفة أسباب حزنه وابتئاسه ·· استحلفهم بالله ألا يذيعوا السر ·· وحلفوا ·· وعندئذ أفضى اليهم بالسر الخطير ·· فقد عاد الى منزله وفتح باب الشقة · ليجد على سريره ورقه عليها شعار عصابة « اليد السوداء » المكون من الجمجمة وعظمتين وتحته انذار

بمغادرة الشقة خلال أسبوع واحد والا كان الاغتيال والموت من نصيبه ، فاذا تلكأ فى تنفيذ الأمر أو أخبر أحدا بما حدث عجلت العصابة تنفيذ الحكم !

وطمأنه كامل الشناوى وحفنى محمود بانهما لن يخبرا أحدا بهذا السر الخطير . ونصحاه بالبحث فورا عن شقة أخرى .

وجاء الشيخ الجندى الى مجلسه ذات مساء متهللا : «خلاص فرجت ياكامل بك .. لقيت شقة واسعة وكويسة .ورخيصة .. شقة عال العال بحى الحسينية فى منـــزل تسكنه أرملة وحيدة .. عاوزك تأخذ حفنى باشا وتقابلو أخوها الجزار وتتوسـطوُلى عنده فى تاجير الشقة الله يعمر بيتكم » .

ولعبت المعلومات عن الشقة والأرملة والجزار فى رأس كامل الشناوى وحفنى محمود كالكمبيوتر .. وكانت النتيجة أن هناك احتمالات قوية لتدبير مقلب آخر اكثر نجاحا للشيخ الجندى .. واستفسرا منه عن عنوان المنزل المذكور ووعداه خيرا ..وعلى الفور ركب كامل الشناوى مع حفنى باشا محمود فى سيارته الرسمية التى ترفرف عليها أعلام الدولة .. وكان يومئذ وزيرا للمواصلات و .. الى حى الحسينية ..

فتحت لهما باب المنزل بملابس الطهر والترمل . بوجه حزين وقـور . بجسـد مترهل فقد الأمل فى الزواج وألقى بهمومه الأنثوية فى الصلاة والعبادةوالطعام.لمحت سيارة الوزير واعلام الدولة وأبهة الضيوف وقالت مرحبة وهى تفتح الأبـــواب على مصاريعها :

ياتلتميت مرحبة بالناس الآكابر .. اتفضلوا فى أودة المسافرين (الصالون) .

بعد ربع ساعة شربا القهوة المحوجه .. وجاء شقيقها الجزاو مهرولا من محله بعد أن أرسلت فى استدعائه .. واختليا به وفاتحاه فى الموضوع .. ولكن .. أى موضوع ؟

ــ يامعلم احنا جايين فى خير .

ــ خير أن شاء الله .

ــ طالبين أيد السيدة المصونة شقيقتكم لأخونا الشيخ الجندى ، وهو راجـل من الصالحين مثلكم وله مركزه الصحفى المعروف .

ــ على العين والراس .. انتم تأمرُوا واحنا علينا الطاعة .

ــ احنا لنا طلب وحيد نظن أنه فى امكانكم .. يكون عقـد القران باذن الله مساء الخميس القادم .. لان الشيخ الجندى مسافر فى مهمة صحفية الى الشام يـوم السبت .. وكل طلباتكم من الشبكة والمهر مجابة باذن الله .

واقسم الجزار أيمانا مغلظة على أن تكون نفقات الفرح من جيبه « فالأشيةمعدن والحمد لله » .. وهو لايطلب الا الستر لشقيقته الأرملة .. والشقة موجودة وجهاز المرحوم مازال جديدا ..

وخرج المعلم يودع كامل الشناوى وحفنى باشا محمود حتى ركبا السـيارة الرسمية .. وهنا تذكر كامل الشناوى أن هناك ثغرة ما فى المقلب المنتظر .. والتفت نحو الجزار وقال له : هناك مسألة تجب أن تعرفها من الآن .. وهى أن الشيخ يعانى من مرض النسيان لأنه دائم الخلوة فى ملكوت الله ولكنها حالة طارئة لاتستمر سوى بضع دقائق .. والأمر يحتاج كما قال الطبيب الى خبطة فوق رأسه وسرعان ما يعود الى حالته الطبيعية ويتذكر كل شىء ..

وجاء الشيخ الجندى يسأل عن نتيجة المقابلة .. وأبلغاه بأنهما فاتحا المعلم فى الموضوع وأنه وشقيقته فى انتظاره مساء الخميس لتوقيع « عقد »ايجار الشقة .. وفى الموعد المحدد .. كان الجندى « متقلفطا » فى جبته « مقلوظا » عمـــامته

ساترا عينيه بنظارة سوداء رغم أن الوقت مساء ٠٠ ولم يكن فيحاجة لأن يطـــرق باب الارملة الوحيدة ٠٠ كانت مزيكة حسب الله فيشرف استقباله، وسلام مربعياجدع للعريس ٠٠ وزغاريد « تلعلع » من النوافذ ٠٠ والجزار يأخذه بالاحضان قائلا « أهـــلا يابو نسب » بينما الشيخ الجندي في دهشة مما يحدثحوله ٠

وفي « أودة المسافرين » وجد جمعا حاشدا من الرجال في انتظاره ٠٠ جـزارين ومعلمين وأفندية يصافحونه « مبروك مقدما يامولانا » ٠٠ ويحاول الشيخ الجندى ان يتملص من المأزق موضحا أنه لم يأت لتوقيع عقد الزواج ولكن لتوقيـــــع عقـــد ايجار الشقة ٠ و ٠٠ تنهال على رأسه خبطة قوية بقبضة الشقيق الجزار ٠٠ « اهـدى بالله ياشيخ جندى ومتفضحناش ٠٠ قول انك العريس ووقع العقد » ٠٠

ـ يامعلم أنا جاى علشان عقد الشقة ٠

ـ وتنهال الخبطات فوق رأس الشيخ الجندى تباعا كلما رفض الاعتراف بأنه العريس الموعود ٠

ـ يامعلم ده مقلب ٠٠ صدقنى ٠

ـ وكمان حاتعيب فى الناس الاكابر ٠

وتتتابع الخبطات فوق رأسه من جديد و ٠٠ لم يعاود الشيخ الجندى بعد ذلك التردد على بار اللواء ولا أكل الرز بالكلاوى على حساب كامل الشناوى وحفنى محمود ٠٠ ولكنه عاود سكنى شقته فى الحلمية بعد أن فهم حقيقة المقلب الاول ومغزى المقلب الثانى !

****

● ومقالب كامل الشناوى فى الوسط الفنى ٠٠ كانت ومازالت حديث أهـل الفن ممن عرفوه وعاشوا سهراته ٠٠ ومثارا للاسف على هذا الزمان الرائق ٠ وكان اللهحينما خلق الهموم ، شاء ـ من لطفه بعباده ـ أن يخلق قوما موكلين بازالتها ومن طلائعهم كامل الشناوى وأمثاله من الظرفاء ٠٠

كان يسهر مع المطرب عزيزعثمان وزوجتهالفنانة ليلىفوزى فى فندق ميناهاوس ٠ وجاء الجرسون يهمس فى أذن عزيز عثمان : تليفون علشانك ياسعادة البك ٠

وتوجه الى كابينة التليفون ليسمع خبر حريق غرفته التى كان يسكنهـــا فى فندق الكونتيننتال ٠ وركب سيارته وتوجه الى الفندق على عجل ٠ وفتح غرفتهليجد عددا من أقاربه يبكون وينتحبون ، ومقرئا يتربع على سريره يقرأ القرآن على روحه وفهم عزيز عثمان المقلب الذى دبره كامل الشناوى ليثأر به من كلمات تناثرت عـــلى لسانه ذات ليلة فى حق الشاعر الكبير ٠

وكان يحب فىالممثل سعيد ابو بكر فنه ووفاءه لأصدقائه ٠ ويسخر من نظامه الدقيق فى التعامل مع المال ٠ ولم تكن هدايا سعيد لاصدقائه تتجاوز نصف كيلو من الجبن الدوبل كريم أو نصف كيلو زيتون قبرصى ٠ وكان يرحمه الله ذواقة ٠ يعرف طريق كل جيد من الطعام ٠

ويوما حادثه بالتليفون وأبلغه أنه دعا خمسة من أصدقائه العرب لتناول العشاء وطلب أن يكون الطعام ريشا مشوية وضلمة وسلاطات منوعة وفاكهة وآيس كريم ٠ ثم قال له : عاوز العزومة كاملة ٠٠

ـ انت تأمر يا كامل بك ٠٠

ـ حانوصل الساعة ٨ مساء ٠

ـ تشرف ٠



ومضت الثامنة .. والعاشرة .. وعند منتصف الليل اتصل به كامل الشناوى ضاحكا : آسف جدا يا سعيد .. الضيوف تعبانين من السفر.. ابقى وزع الاكـــل على المساكين وأبناء السبيل .

مقالب أخرى ساخرة .. كانت لكامل الشناوى فى الوسط الفنى .. فالمعروف أن قصائد كامل الشناوى فى معظمها من الشعر الذى يصلح للتلحين والغناء .. بل أن أحد الموسيقيين اكتشف أن بعض أشعاره كانت استلهاما للموســـيقى الكلاســـيك التى كان يهوى سماعها .. وأنه استوحى – على سبيل المثال – السيمفونية الخامسة لبيتهوفن حيث تعبر حركاتها عن ضربات القدر واصراره فى البيت الذى يقول فيه :

ثم كانت صحوة كالنار .. كالتيار .. كالقدر العنيد

وكامل الشناوى له كثير من القصائد التى تحولت الى أغنيات . وكان يكره أن يطلب منه مطرب أو موسيقى أن يكتب أغنية خصيصا له . وكان يقول : « انا شـــاعر أنفعل بتجربة أو أخرى واكتب شعرا . ولست بشاعر « ترزى » يفصل الشـــعر على مقاس الأصوات والألحان » .

وكان المطربون والمطربات والملحنون يختارون بعض قصائده الصالحة للغنـــاء والتلحين . وكان يقدمها هدايا لأصدقائه .. ولكن عندما يكون الأمر متعلقا بالتجارة والكسب ، عندئذ يطلب كامل الشناوى أغلى المهور لعرائسه من الشعر .

من أشهر أغنيات كامل الشناوى « الخطايا » ، التى غناها محمـــــد عبد الوهاب فى فيلم « لست ملاكا » . وقصيدة « أنت فى صمتك مرغم » والتى تحولت بعـــد ثورة ٢٣ يوليو فأصبحت « كنت فى صمتك مرغم » وغناها عبـــد الـــوهاب أيضا ، وأغنية « حبيبها لست وحدك » وغناها عبد الحليم حافظ . و « على باب مصر تدق الأكف » وغنتها أم كلثوم و « لاتكذبى » وقد غنتها نجاة الصغيرة وعبد الحليم حافظ وعبد الوهاب . وسجلت بصوت كامل الشناوى فى الاذاعة ، وكان هناك اتجاه لطبعها على اسطوانات وكاسيت .. و ..

وكان كامل الشناوى أكثر مايكون انفعالا وتاثرا عندما يأتى يوم عيد ميلاده . وكان يشعر فى ذلك اليوم برنين يكاد يسمع ايقاعه لحركة الســـاعات والثـــوانى . وفكر فى أحدى مناسبات عيد ميلاده أن يهرب من الدعوات والحفـــلات والتهانى والهدايا التى تعودها فى ذلك اليوم .. وقرر أن يسافر الى قريته ومسقط رأســـه « نوسا البحر » وهناك زار ملاعب الطفولة والصبا .. واسترجع ذكريات البراءة والخجل والانطواء .. والامل المنشود . وعاد الى القاهرة بعد أن جمع حصاد حياته وهو فى مرحلة الكهولة .. فلم يجد أمامه الاكومة من الآلام والجراح والدموع .. وكتب قصـــيدة عيد ميلاده يرثى فيها نفسه :

عـــدت يا يـــــوم مولدى
عـــدت يا أيها الشـــــقى .
الصـــبا ضـــاع من يدى
وغـــزا الشـــيب مفـــرقى .
ليت – يا يـــــوم مولدى
كنت يوما بلا غــــــد !!
ليـــت أنى من الأزل .
لم أعش هـــــذه الحيـــاة
عشت فيهـــــا ولم أزل
.. جاهلا أنهـــا الحياة !!

ليـــت أنى مـــن الأزل
كنـــت روحـــا
ولـــم أزل !!

***

أنا عمر بـلا شـــباب ؟!
وحيـــاة بلا ربيـــع !!
اشـــترى الحـــب
بالعـــــذاب !!
اشتريه
فمـــن يبيـــع ؟!

وعندما نشر كامل الشناوى قصيدته إستأذنه فريد الاطرش أن يلحنها ويغنيها٠٠ ووافق كامل الشناوى رغم أن الصداقة بينهما لم تكن قد توثقت بعد ٠٠ فقد عـرف فريد الاطرش كامل الشناوى متأخرا جدا الا أن فريد الاطرش خطر له أن موافقته تعنى مجرد هدية بدون مقابل ٠٠ وحاول افهام فريد الاطرش ـ بعد أن قدمها فى حفل عيد الربيع احتفالا بشم النسيم ـ بدفع الاجرولكنه لم يفهم ٠٠وعندئذ وسط جليل البندارى لافهامه ٠٠ ونجح فى مهمته وعاد بشيك بمئتى جنيه ٠٠ الا أن كامل الشناوى ثاروورفض قبول الشيك لانه اقل بكثير مما يستحقة كشاعر له مكانته المرموقة واعتبرها ســوء تقدير لفنه ٠٠ وبدأ يشهر سلاحه اللاذع فى وجه فريد الاطرش ٠

روى لنا أنه كان يجلس مع فريد الأطرش فى بهو فندق «سيسيل» بالاسكندرية ودخل عليهما المفكر الكبير لطفى السيد ٠٠ ونهض كامل الشناوى يصافحه وقدمـه لفريد الاطرش : لطفى السيد أستاذ الجيل ٠٠ واذا بفريد الاطراش تبدو عليـه امارات الدهشة والتعجب وهو يسأل كامل الشناوى : ياه بقى الراجل العجوز ده ٠٠ هو الى جابوه بدل أنيس منصور فى مجلة « الجيل الجديد » ٠ و ٠٠ لم تكن القصة برمتها اكثر من تشنيعة ساخرة ٠

ونقل أصدقاء فريد الأطرش اليه مايرويه عنه كامل الشـــناوى من تشنيعات وسخريات لاذعة ٠٠ وأذعن للأمر ودفع للشـــاعر الكبير ألف جنيه ثمنا لقصـــيدته « عيد الميلاد » وهو الثمن الذى كان يتقاضاه كامل الشناوى آنذاك مقابل قصائده المغناة، ولكن فريد الاطرش حاول أن يثأر لنفسه من سخرياته وتشنيعاته حين قدم صـــورة مشوهة للصحفيين فى فيلم « رسالة من امرأة مجهولة » الذى قام ببطولته ٠٠

وعاد كامل الشناوى يشهر أسلحته ٠٠ وقال أمام أحد النقاد الفنيين رأيه فى الفيلم وشن هجوما عنيفا ضده لانه أهان الصحفيين ثم أتبع حديثه بقوله ان أحـد اللبنانيين الثقات أكد له أن فريد الأطرش لا ينتمى من قريب أو بعيـــد الى عائلة الأطراش الشهيرة التى تسكن جبل الدروز ، بل ينتمى الى أسرة تدعى « كوسة » واذا بالناقد الفنى تنطلى عليه التشنيعه ويكتب مقالا طويلا يحمل هجوما عنيفا على الفيلم ويتبع ذلك بتاكيد انتمائه الى عائلة كوسة وينفى أدنى صلة لفريد بآل الأطرش ٠

وكان المخرج محمد سالم قد عاد بعد غيبة طويلة فى أمريكا وأدرك كامـــل الشناوى مدى البعد الزمنى الذى يفصله عما جرى فى مصر من متغيرات ٠ وعندما طلب من الشاعر الكبير نصيحته ومساعدته فى اختيار العمل الفنى الذى يبدأ بـــه نشاطه فى التلفزيون ، أشار عليه بالاتصال بفريد الأطرش واقناعه بالموافقة على ظهوره فى عمل فنى مشترك مع شقيقته أسمهان وقال له : ربما رفض فريد وربما ادعى أن

اسمهان غائبة عن مصر أو أنها ماتت • ولكن عليك أن تلح ولاتيأس • وتوجه محمد سالم الى فريد الاطرش •• وكانت المقابلة بينهما عاصفة • اقتنع بعدها فريد الاطرش بضرورة اعلان الهدنة ومصالحة كامل الشناوى والاعتذار له •

وعندما قمت بنشر هذه الواقعة في تحقيق صحفي بعد وفاة كامل الشناوى • أرسل محامى المرحوم فريد الأطرش ردا يؤكد فيه أن ثمن الأغنية لم يكن سببا فى أية خلافات بين فريد وكامل الشناوى • وأن العلاقات بينهما ظلت حميمة حتى النهاية • وأن كامل الشناوى لم يوح بتشنيعة « كوسة » لأحد •• وقد نشرت الرد كاملا فى روز اليوسف في ديسمبر ١٩٧٨ •

والحقيقة أن الأغنية كانت مجالا للمساومة ومبلغ علمي أن كامل الشناوى لم يكن يقبل المساومة فى الأجر الذى يحدده لقصائده •• فاما أن يدفع الأجر كاملا • أو لايتم التعاقد عليها •• والخلاف حدث لأن القصيدة كانت قد لحنت وغناها فريد الأطرش في الفيلم قبل أن يتم التعاقد ••

على أن كامل الشناوى لم يكن ليحمل لأحد الفنانين الا التقدير لفنه وموهبته •

وقال فريد الاطرش بعد رحيل الشاعر الكبير : « من سوء حظى اننى لم اعرف كامل الشناوى عن قرب الا منذ ثلاثة أعوام قبل وفاته • اننى نادم على مافات قبل ذلك • وخلال هذه الفترة القصيرة التى عرفت فيها كامل الشناوى كانت معرفة الاخوة والصداقة • لقد أحببت كامل وأصبح قطعة منى : كان صديقا وأخا للجميع • أحب الفن لانه فنان • وأعطى الفنانين والادباء من روحه وقلبه الكثير • لقد فقدنا بموت كامل الشناوى الأخ الوفى •• والفنان الحساس » •

وهكذا عاش كامل الشناوى لا يترك أحدا مسه بنكته أو سخرية أو مقلب الا وسارع بمصالحته أو مصافحته أو صداقته • فالأمر عنده •• لحظات عابرة •• فى حياة عابرة •• ولا قيمة لشىء ولاشىء يهم •• وكل الى زوال وفناء وحياة الانسان فوق الأرض قبض الريح ••

فى ليلة مقمرة من ليالى الصيف • دعا كامل الشناوى أم كلثوم وبعض أصدقائهما على العشاء فى فندق « ميناهوس » وهناك فوجىء بأن المطبخ اغلق أبوابه مبكرا • وبدأت أم كلثوم تداعبه وتسخر من معلوماته عن مواعيد العشاء فى الفندق • وفى تلك اللحظات شاهد سيارة تتوقف أمامه • ويحمل العمال منها صينية كبيرة فوقها خروف مشوى محشى بالمكسرات • وسأل أحد العمال عن صاحبها • وعرف أنها اعدت خصيصا فى أحد المطاعم الشهيرة لعشاء المطرب محمد أمين الذى كان يسكن الفندق • وكان يقضى شهر العسل مع زوجته الفنانة مديحة يسرى •

واسرع كامل الشناوى الى أم كلثوم وقال ضاحكا : الحمد لله ربنا خيب ظنك • العشاء طلبه المترودوتيل من الخارج مخصوص • لان المطبخ مقفول اليوم قبل موعده بسبب الاصلاحات الداخلية !!

وصحب كامل الشناوى أم كلثوم وضيوفه •• وصعدواوروا. الصينية الى الدور العلوى •• ثم دخلوا خلفها الى جناح العروسين • وكان فى ضيافتهم الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وبالطبع رحب الجميع بأم كلثوم •• واقتسموا الخروف المشوى •• وكانت ليلة من ليالى العمر غنى فيها محمد عبد الوهاب اغنيتها « ياظالمنى » وغنت أم كلثوم اغنيته جبل التوباد •• وتخلص كامل الشناوى من المأذق بذكائه وخفة ظله •

ويوما دعانا الكاتب الاذاعى الشهير محمد كامل حسن المحامى ـ يرحمه الله ـ على العشاء فى منزله بالهرم • احتفالا بولادة الموهبة الموسيقية لعبد الرحمن الخميسى فجاة • وكان قد وضع قطعة موسيقية سجلها على اسطوانة ، وجهها الأول بعنوان « لومومبا » والوجه الثانى بعنوان « شارع الهرم » •

وطلبت الفنانة برلنتى عبد الحميد ـ وكانت بين المدعوين ـ سماع الاسطوانة. وقام الخميسى ووضعها على « الجرامفون » وقال : « نسمع أولا موسيقى لومومبا » .
وعندئذ غافله كامل الشناوى وقلب الاسطوانة على الوجه الذى يحمل اسم شارع الهرم . الا أن الخميسى استمر يشرح موسيقى لومومبا بينما صوت الموسيقى ينساب من الجرامفون :
ـ الحركة الأولى وتعنى الظلم الذى عاشه شعب الكونجو . والحركة الثانية تعبر عن النضال ضد الاستعمار البلجيكى . والثالثة تمثل مؤامرة اغتيال لومومبا . والرابعة تصور مشهد انتصار الثورة و .. وقاطعه كامل الشناوى ضاحكا وقال : والحركة الختامية تصور الرقص الشرقى فى شارع الهرم ..
وأدرك الخميسى المقلب .وفهم مغزاه . وضحك مع الحاضرين .

****

● ولم تكن موهبة كامل الشناوى الشعرية المتفتحة وحدها هى كل مؤهلاته الى الصحافة ومجتمعات الفنانين والسياسيين ومجالس الأدباء .
كانت مؤهلاته الأساسية فى مقتبل حياته العملية تكمن فى السخرية بكل ألوانها من النكتة الذكية الى « القفشة » اللماحة . الى تقليد الأصوات الى المقالب . ثم روايته الرائعة للشعر . وحفظ أشعار المحدثين والأقدمين .. وأخيرا نظم الشعر .
هكذا بدأت معرفته بطه حسين . وأنطون جميل . وأحمد شوقى . والعقاد . وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره . وهكذا صادقة السياسيون ورؤساء الحكومات والوزراء والباشاوات . وهو فى الخامسة والعشرين .
وفى أجواء هذه المجتمعات لمع كامل الشناوى الشاعر حتى أصبحت شهرته كشاعر تعادل شهرته الصحفية . وكان بحق آخر ظرفاء عصره وأكثرهم ثقافةوشاعرية ورقة وفهما لطبائع البشر !
كان يقول عن نفسه : « بدأت حياتى الصحفية أديبا يهوى الصحافه .وأناالآن صحفى يهوى الأدب » . والحقيقة أنه كان عابرا دائما . عابرا من الأدب الى الصحافة من الشعر الى الفن .. وكلها مسالك تؤدى الى المجتمع والناس . ولم تكن قصائده أو سخرياته أكثر من وسائل يتحسس بها الدنيا . ويجد لنفسه فيها مكانا .
ولذلك كان أدب اتصاله بالمجتمع ، يكبر بكثير أدبه الرائع المكتوب . وكان فى روايته للشعر كما يقول الشاعر الأسبانى « جارسيا لوركا » : ان الشعر يحتاج فى ايصال معانيه الى الناس أصواتا بشرية وليس حروفا جامدة تدور بها المطابع !
ويقول د . لويس عوض : « كان كامل الشناوى محدثا من طراز نادر . وراوية لأشعار القدامى والمحدثين ونوادرهم لايشق له غبار . حتى لتكاد تقول أنه آخر مدرسة الظرفاء الذين حدثتنا كتب العرب أنهم ملئوا بلاط العباسيين بهجة ولباقة وحكمة من حكم الشعراء . ولكنه فوق هذا وذاك ظفر من قدره بما لم يظفر به محدث أو راوية . فقد كان أغنية عذبة شجية فى فم جيلنا . أوقيثارة معلقة بديعة الصنع قليلة الأوتار . ما أن تمسها نسمة من النسيم حتى تجيش بالانغام . فتتجاوب من حولها الأصداء . ولأنه قليل الأوتار كان قليل الغناء ضنين الاناشيد . ولكن هذا القليل الضنين . كان وحده كافيا لأن يكتب له صفحة فى تاريخ الأدب العربى . أما نحن الذين عاصرناه فقد سمعنا منه شيئا غير ماروت أوتاره القليلة الضنينة . سمعنا هذا الصندوق الرنان لايكف عن الهمهمة والجيشان بأنغام لم تكتمل . وبأصداء متلاحقة مالها من نهاية . وكأنه صدر عاشق أسطورى لكل زفرة من زفراته رجع فى الوديان عميق ! »

وكان كامل الشناوى متمكنا ومقتدرا فى القاء الشعر · كان يعكس بصـــوته موسيقى وألوان الشعر · ومعانيه وأحاسيسه · كان يتألم ويتهدج فىمواضع الشجن· وكان ينساب بشرا وتفاؤلا وهو يعبر عن الفرحة والامل والحب ·

وكانت له القدرة على السخرية بصوته حتى من الشعر الجيد ·· فاذا به يصل الأسماع من شفتيه ركيكا تافها مكسور الابيات بلا نغم ولا طرب · فاذا أراد أن يضفى الروعة والجزالة على الشعر الركيك ·· طاوعه أداؤه وصوته أيضا ·· ولذلك كان يخشاه الشعراء ·· وخاصة خصومه من الشعراء المحدثين ·· وكان أداؤه لأشعارهم أخطر بكثير وأشد وقعا من نقده لهم ··وكانت لكامل الشناوى الكثير من «المناوشات» وذكريات ضاحكة لاتنسى فى أوساط الأدباء والشعراء !

يروى الصحفى اسماعيل النقيب هذه الحكاية :

كل شيء كان ينام الا عيون وعقل كامل الشناوى · ففى ليلة من ليالى الخريف· كنا فى الاسكندرية لحضور مهرجان الشعر · ورجعت مرهقا الى الفندق الذى يقيم فيه كل الأدباء والشعراء الذين اشتركوا فى المهرجان ومن بينهم شاعر الليل كامل الشناوى · وما أن دخلت غرفتى حتى دخل ورائى وطلب ورقة ليملى على كلمات · وقال : سأقول لك قصيدة على نمط القصيدة الجاهلية التى القاها الشاعر « فلان » وهو شاعر معروف ولايزال حيا ·· كان قد القى قصيدة فى تلك الليلة وردت فيها كلمات غير مفهومة للسامعين مثل كلمة « الهزبر » ومعناها الأسد ، وكلمة « أبو المنذر» ومعناها الديك ــ وسأنتهز جلوسى مع الأدباء والشعراء ليلا· · ثم أعلن أن اسماعيل النقيب استطاع أن يحصل على نصر صحفى · فهو قد ضبط الشاعر « فلان » وهو يكتب قصيدة غزلية فى حب الشاعرة « فلانة » وكانت من المشتركين فى المهرجان ــ وبالطبع سوف يصدق الحاضرون ·· لأن لهذا الشاعر مواقف سابقة فى ذلك · فقد كتب ديوانا كاملا فى حب شاعرة سورية خلال حضوره مهرجان الشعر فى دمشق ·

واتفق كامل الشناوى معى على أن أجلس بجواره فى صالة العشاء وهو يروى هذه الأخبار الجديدة عن علاقة الشاعر بالشاعرة · ثم يمد يده فجأة ليخرج القصيدة من جيبى ·· و ·· أتفقنا !!

وأملى كامل الشناوى على قصيدة جاهلية طويلة كان مطلعها :

فان كنت أنت الظبى فى حالـــق الذرى
فانى هزبر القـــاع والبيـــد والهضـــب

وتالـــك ان الحـــب عفـــة عاشـــق
وتحنـــان مشـــبوب الغـــرام بلا ذنب

فـــلا هم غفـــرا ·· ثم صفحـــا وجنـــة
يفيء اليهـــــا قرقـــر غير منتســـب

ولـــو مـــــر ظبى بالعقيـــــق مدلل
نفـــرت اليهـــا طـــائر القـــلب واللـــب

الا وإحملـــــــونى بارك الله فيكـــم
الى جنبهـــــا أو فاحملـــوها الى جنبـــى

قفا نبك من ذكرى حبيـــب بجلـــق
وكانت لنا فيهـــــا فنون من القلـــب

بلاد اذا مـــامس جلـــدى ترابهـــا
فبورك من جلـــد وبورك من تـــــرب

وفى حلب الشهباء لاحت مليحة
مكبورة الأرداف تلعب فى قلبى
ألا واذكرونى بارك الله فيكم
على الأرض ذات الزرع والضرع والعشب
وكاس الهدى من كل شهد مليئة
وقد اقفرت كاسى فقلت لها : صبى

وفى صالة العشاء حكى الحكاية بطريقته الفريدة . وأصبح الكل فى لهفة الى سماع القصيدة . خصوصا وقد قال بيتا واحدا منها . وأن هذا البيت هو فقط الذى استطاع أن يلتقطه من القصيدة . وفجأة تمتد يده الى جيبى . وقرأ القصيدة وسط صيحات الصائحين . والكل يطلب اعادة قراءتها . وصدق الناس الكلمات التى اتفقنا عليها فى ليلة من ليالى كامل الشناوى . نام فيها كل شىء الا عيونه وعقله .

وكانت للشاعر الكبير قصة طريفة مع الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى وهو احد شعراء المدرسة الحديثة .. فقد كتب حجازى مقالا فى روز اليوسف عام ١٩٦٢ كشف فيه عن خطاين وقع فيهما كامل الشناوى وهو ينظم شعره .

كان الخطأ الأول فى قصيدة « أغنية عربية » وقد جاء فيها هذا البيت المكسور:

ثم كانت صرخة كالنار .. كالتيار .. كالقدر العنيد .

فالقصيدة من بحر « الرمل » الذى تتكرر فيه وحدة موسيقية هى « فاعلتن » ولهذا فالدال المفتوحة فى كلمة « كالقدر » كان يجب أن تكون حرفا ساكنا كان تستبدل الكلمة بكلمة « كالنهر » .

أما الخطأ الثانى . فقد جاء فى قصيدته الشهيرة « لاتكذبى » التى جاء فيها هذاالبيت المكسور:

ماذا أقول لأدمع .. سفحتها أشواقى اليك ؟

فالقصيدة من بحر « الكامل » الذى تتكرر فيه وحدة موسيقية هى « متفاعلن » ولهذا فكلمة « سفحتها » تكسر البيت . لأن حرف « الهاء ! » يحتاج الى المد .. والمد يكسر البيت .

وختم حجازى مقاله قائلا :

« والحقيقة أن مثل هذه الأخطاء يقع فيها شعراء لاشك فى شاعريتهم ويكفى أن نذكر مثلا أن الشاعر الجاهلى « عبيد ابن الأبرص » الذى كان معاصرا لامرئ القيس كان يقع كثيرا فى أخطاء الوزن مما جعل النقاد يقولون عنه أن شعره مضطرب . وكنت احب أن يلتفت الى هذين الخطاين هؤلاء الذين يملئون حياتنا الأدبية ضجة خادعة باسم المحافظة على عامود الشعر . خاصة بعد الشهرة الكبيرة التى نالتها القصيدتان عن طريق التلحين والغناء .. »

وكتب كامل الشناوى مقالا يرد على مقاله ؛ ربط فيه بين اضطراب دقات قلب حجازى واضطراب شعره . ولعن كل حركات التجديد التى مرت بالشعر العربى منذ أبى نواس حتى الآن :

« رأسه أصلع ، عيناه زائغتان ، أنفاسه لاهثة ، يسيطر القلق على كتاباته ، وقراءاته ، وضربات قلبه !

يحمل من الهموم ما يرفع سنه الى الستين مع أنه لم يصل بعد الى الثلاثين !

انه واحد من كثيرين جدا بذلوا محاولات سيئة الحظ لخلق أشكال جديدة للشعر العربى ، ولم تنجح هذه المحاولات ، لانها كلها متشابهة !

منح نفسه الحرية فى استخدام الأوزان والتفاعيل فى كل مايخطر له من موضوع، أو لفظ أو معنى !

قال لى ان قلبه يخفق بغير قاعدة .. أحيانا يسرع فى ضرباته ، وأحيانا يبطىء فى ضرباته . ان هذه الظاهرة تزعجه ، وكبر فى نفسه الشعور ، بأنه يوشك أن يموت..

وقلت له ان قلبك مثل شعر الذين قلدوك .. يتحرر من الوزن والتفعيلات .. واذا كان هناك من يزعجه هذا التصرف ، ويرى فيه علامة الموت ، فلا ينبغى لك ذلك لأنك شاعر متمرد على القواعد !

ليس هذا رأيا فى الشعر المتجرد من الموسيقى والايقاع ، والتعبير ، وانما هو رأى فى القلب الذى يتمرد على طبيعته الموسيقية .. فيضطرب فى ضرباته وخفقاته بلا ضرورة ، بلا دافع ، بلا غاية ! » ..

ولم يسكت حجازى فقد تابع المعركة بمقال ثان أشار فيه الى خطاب وصله من الشاعر الغنائى مرسى جميل عزيز . يضيف فيه خطأ ثالثا فى شعر كامل الشناوى فى بيت من « قصيدة عربية » :

سل دم السورى والمصرى يجرى لهبا

صارخا : عربا كنـا ونبقى عـربا

وقرر كامل الشناوى أن يدبر مقلبا لحجازى . أرسل اليه واحدة من تلميذاته ومعجباته ومعها قصيدة ادعت انها كتبتها . والتقت به فى دار « روز اليوسف » .. وعرضت عليه القصيدة وكانت على شاكلة قصائد الشعراء المجددين التى لا تلتزم بالعامود.

استقبلها حجازى هاشا باشا .. استقبل فيها الحب القاهرى المنشـود الذى يتعطش اليه وهو الريفى القادم من بطون المنوفية . وكانت كما نصحها كامل الشناوى عزيزة المنال . وكلما حاول أن يضمها الى قلبه تفـرت منه كالعصفورة .. وجن جنونه بها .. ونشر لها قصيدتها المليئة بالأخطاء وقدمها على صفحات احدى المجلات الأدبية شاعرة واعدة ..

ونجح مقلب كامل الشناوى وبدأ يتندر بالقصيدة وحجازى فى كل منتدياته. لكن الفتاة كانت قد وقعت بالفعل فى هوى الشاعر الشاب بعد ذلك . ولم تتمنـع . ودخلت قلبه وحياته .. وفهم المقلب ولكنه قبله وقبلها . وظل صديقا لكامل الشناوى حتى نهاية العمر لان اختلاف الرأى – آنذاك – لم يكن ليفسد للود قضية .

على أن كامل الشناوى لم يكن فى حقيقة الأمر معارضا للمدرسة الجديدة فى الشعر . كان يقول دائما « ليس هناك قضية اسمها شعر قديم وشعر جديد . القضية هى هل هذا الشعر أو ذاك فن ام لافن ؟؟ وذلك كان رأيه فى قضية الكتابة بالعامية أو الفصحى . فالمهم هى اللغة الفنية التى تعبر بأسلوب سليم . » .

يقول أحمد عبد المعطى حجازى رأيه فى كامل الشناوى الشـاعر : « كانت موهبته فى التعبير عن خبرته الحسية لايكاد يتمتع بها الا القليلون من الشـعراء . وربما كان كامل الشناوى فى تكامل رؤيته الشعرية . وفى حرصه على ان تكون أشعاره – مهما تكن مناسبتها – صورة من داخل نفسه ، هو الشاعر الوحيد من شعراء مدرسة شوقى الذى يمكن أن تنطبق عليه بحق صفة الشاعر . وهو أيضا الوحيد من بين تلامذة شوقى الذى تصور الشعر تصورا صحيحا .. فكان يقول دائما : «الشعر هو الصدق » .. وقد قاده هذا التصور الى أن يعرف أن هناك خيطا واحدا يربط بين مختلف الفنون . ومن هنا كان اهتمامه بالغناء والموسيقى والرواية والرسم والنحت والمسرح وأنا لا اعـرف فنانا حقيقيا عرفته القاهرة منذ عشرين عاما حتى الآن . لم يسع اليه كامل الشناوى . يمنحه صداقته . ويعرف الآخرين به ويبشر به فى كل مكان »

وكامل الشناوى هو الشاعر التقليدى الوحيد الذى رحب بالمجددين ، واشـاد

بأشعارهم بل وكتب بعض أشعاره على طريقتهم • وهو الذى يمتلك من أسرار البلاغة القديمة أسرارا ليست على بال أحد من الذين يجعلون همهم محاربة التجديد !

وكامل الشناوى بكل هذا وجه خسره ليل القاهرة • وشاعر له مكان خاص بين شعراء هذا العصر • لم يشغل هذا المكان بكثرة انتاجه • وانما بالروح التى يزخربها انتاجه القليل • وتزخر بها البيئه التى رعاها • وبث فيها من روحه الخلاقة اثارة لاتنسى • وذكريات لاتموت •

****

● حينما كان رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية لاحظ ان الاخبار السياسية او الرسمية التى يقدمها أحد المحررين كما الطبيخ البايت • وحاول أن يستحث همته ويستفز رؤيته أكثر من مرة •• وكان هذا المحرر مصرا على أن يأتى بما « حدث » من أخبار لاماسوف « يحدث » من أخبار •• ولم يكن هناك بد من درس قاس •

دعاه يوما الى مكتبه وساله : هل سمعت عن « تولستوى » ؟

فقال : طبعا •• طبعا ••

وقال كامل :وطبعا عارف انه رئيس المكتب السياسى فى الحزب الشيوعى السوفيتى ؟

قال : طبعا •• طبعا ••

وقال كامل : وطبعا عارف أن « تولستوى » هذا يعتبر أكبر أديب فى الاتحاد السوفيتى ؟

قال : طبعا ••طبعا ••

قال كامل : وعرفت ازاى ؟

قال : أصلى قريت انه مؤلف فيلم « الحب والسلام »

واحتبس كامل الشناوى ضحكة مدوية كادت تنطلق من صدره • لأن اسم الفيلم « الحرب والسلام » وهو من اشهر روايات تولستوى • وعاد يساله : هل تعرف يا أستاذ أن تولستوى موجود الان فى القاهرة ؟

وتلعثم المحرر وقال : ولكن لماذا جاء الى القاهرة ؟

وهمس كامل الشناوى فى اذنه كانه يذيع سرا من الاسرار الخطيرة وقال :علمت من مصادرى العليا •• ان « تولستوى » جاء على رأس وفد رسمى كبير من الاتحاد السوفيتى لاجراء مباحثات سياسية وعسكرية على جانب كبير من الاهمية •• وأنه سوف توقع اتفاقيات بين البلدين خلال هذه الزيارة •

ثم عاد كامل الشناوى يسأله : هل لديك مصادر موثوق بها فى وزارة الخارجية والرياسة ؟

فاسرع المحرر قائلا : طبعا •• طبعا ••

قال كامل : عظيم •• اذهب اليهم فورا • وبطريقتك الذكيه المعهودة حاول أن تعرف بالضبط أخبارا عن مهمة تولستوى ومكان اقامته •• وعليك أن تجرى معه حديثا أو تحصل منه على تصريح أو خبر • دى مسالة حياة أو موت •• واياك ان يسبقك محرر الاهرام •

وتوجه الصحفى الطيب الى وزارة الخارجية يسال عن أخبار الوفد السوفيتى الذى وصل لاجراء مباحثات هامة • فأخبروه أنه لاعلم لهم بمثل هذا الموضوع •• وأدرك أن زميله فى جريدة الاهرام لابد وأنه قد أوعز اليهم اخفاء الخبر وتأجيل اذاعته حتى يسبقه فى النشر ••

وقابل صلاح الشاهد كبير الامناء فى القصر الجمهورى آنذاك ورجاه بالحاح بعض المعلومات عن الوفد السوفيتى .
ـ أى وفد سوفيتى ؟
ـ الذى يرأسه تولستوى الاديب بتاع « الحب والسلام » .
ـ قصدك الحرب والسلام ؟
ـ مش ده المهم يافندم .. المهم أن تولستوى وصل القاهرة حسب معلوماتى المؤكدة .. وعاوز سيادتك تساعدنى فى مقابلته .. دى مسألة حياة أو موت .

وضحك كبير الامناء وجمع رجال القصر الجمهورى ليسمعوا الفضيحة ..
ويوما شاهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر هذا المحرر وسط عدد من المندوبين الصحفيين فى رئاسة الجمهورية فسأله عبد الناصر : انت بتاع تولستوى !
وقال المحرر على الفور : طبعا يافندم طبعا !!
ودفع كامل الشناوى بالمخرج محمد سالم الى كثير من المآزق والمقالب الضاحكة . وهو يمارس هوايته الدائمة فى اثارة الشد والجذب بين الوعى واللاوعى . بين وعى د . لويس عوض ولاوعى محمد سالم بالمتغيرات التى حدثت فى مصر خلال اقامته فى هوليود ..
شرح كامل الشناوى لمحمد سالم الظروف التعيسة التى يعيشها الفنان لويس عوض . فهو ممثل عظيم يجيد تمثيل كل الادوار وهو حاصل على الدكتوراه فى الدراما . ولكنه اعتزل السينما والمسرح بسبب مضايقات المخرجين الذين يقاسمونه أجره والمنتجين الذين يأكلون حقوقه .. و .. « أرجوك يا محمد تحاول الاتصال به وتلح عليه فى العودة الى جمهوره وفنه .. بس خليها لفتة كريمة منك وما تجيبش سيرتى لانه حساس ومتاخيره فى السما !
ويتصل المخرج محمد سالم بالدكتور لويس عوض تليفونيا . ويعرض عليه العمل معه فى التليفزيون .. واذا به يلعنه ويلعن جهله .. ويغلق التليفون فى وجهه .
ويعود محمد سالم ليروى ماحدث لكامل الشناوى . فيسأله :
ـ متى فاتحته فى الموضوع ؟
ـ أمس .
ـ له حق يا أخى . وهو ده وقت تكلمه فيه . انت مش عارف ان والدته توفت امبارح .

ويعاود المخرج محمد سالم الاتصال بالدكتور لويس عوض بعد فترة من الزمن .
ويالويس يا حبيبى انا عارف شعور الفنان المرهف .. البقية فى حياتك .. لكن يالويس لازم تتغلب على مشاعرك وآلامك ومتاعبك .. جمهورك بينتظرك يالويس و .. ثار لويس عوض ثورة عارمة وأغلق التليفون بعد أن هدده بابلاغ البوليس .

وكان عبد الرحمن الخميسى كعادته مركز جذب للموهوبين وغير الموهوبين والظرفاء وثقلاء الظل والفنانين ومدعى الفن .. وكان هؤلاء وأولئك يمشون فى ركابه حيثما ذهب وحط رحاله .. فى منزله أو منازل أصدقائه .
وتعكر مزاج كامل الشناوى لسلوك تابعه « فكرى » الذى يعمل « كومبارس » مبتدىء . وكان يفرض نفسه على مجلسه محدثا ندا يدلى برأيه فى كل شىء وأى شىء دون فهم أو ثقافة . وباعتداد وعنجهية وصوت أجش .

وانتحى به كامل الشناوى وخاطبه فى ود واحترام بالغين .. وحدثه عن همومه ومتاعبه من « سيد » ابن شقيقه ـ يرحمه الله ـ وكان يعيش معه فى منزله . وكيف

انه لايكف عن ازعاجه وازعاج جيرانه • وطلب منه أن يؤدبه ويعطيه درسا لاينسـاه • وقال له :

ـ لاتخش ضخامته •• فهو جبان رعديد • وكـف منك أو لكمـة واحدة سوف تجعله يجرى امامك أو يقبل أقدامك •

في نفس الوقت افهم « سيد » وكان يحب عمه الى درجة العبادة ، وكان بطـلا فى الملاكمة أنه سوف يستدرج الى منزله شخصا يؤلم حواسه ويزعج مجالسه كل ليلة •• وهو جبان رعديد ومطلوب تأديبه !

والتقى « سيد » بالكومبارس وجها لوجه فى جولة ملاكمة غير متكافئة ••كان نصيب « فكرى » منها علقة ساخنة تركت بصماتها على وجهه• وجسمه •• وأدت الى غيبته عن مجالس كامل الشناوى الى الابد !

وهكذا لم تكن سخريات كامل الشناوى فى كل الاحوال الا ذات دلالة ومغزى •• ولم تكن مقالبه سوى صدى للصراع الرهيب الذى كان يعتمل فى نفسه •• أن يظـل فى مركز القلب من هذه الحياة حتى يأتى موعد خروجه منها ••

وكان كامل الشناوى حاضرا دائما فى الحياة •• وكان حضوره كمحدثوظريف متوثبا ومتصلا •• فلا المرؤ يستطيع أن يشعر بصراع نفسه •• كما لايستطيع لنفسه فكاكا من مجلسه •• وكان يصيب كل من يعرفه بادمان مجالسه وسهراته وحديثه ونوادره •• وكان معظم تنقلاته فى القاهرة بالتاكسى أو سيارات الاصـدقاء •• ونادرا ما كان يستخدم سيارات دور الصحف المخصصة لهوخاصة فى سهراته ولياليه• وفى آخر حياته كانت سيارة بليغ حمدى رهن اشارته • وكانت سيارة صغيرة ماركة « برنز »يدخلها كامل الشناوى بجسده البدين فى صعوبة بالغة • وكانت متعته ان تتجول معه بها فى شوارع القاهرة طولا وعرضا فى نهاية الليل ولأنها سيارة قديمة • فكثيرا ما كانت تتوقف • ودائما ما كانت تحتاج وفى داخلها كامل الشناوى ـ الى « زقه للنبى » ••

وعندما اشتريت أول سيارة فى حياتى عام ١٩٦٠ وكانت ماركة « سمكا » ربـع عمر •• فرحت بها أيما فرح ، وذهبت الى كامل الشناوى آزف اليه الخبر • وأطل يرحمه الله من شرفة منزله ، وضحك من أعماقه وقال : « والله ربنا رحمك يا يوسف•• أهو بدل ماتزق عربية بليغ تزق لحسابك ! » •

وكان المصورالصحفى منير فريد يملك سيارة قديمة كثيرا ما كانت تتعطـل عندما يصطحب فيها كامل الشناوى • ويوما جاء من يشتريها وكان كامل حاضرا • واذا بمنير فريد يقول للمشترى :

ـ هذه السيارة لم تعمل سوى أربعة آلاف كيلو فقط •

وعندئذ اسرع كامل الشناوى يقول :

ـ ده صحيح •• حتى بالاماره اتازقيت منهم ألفين كيلو و •• لم تتم الصفقة بالطبع !! •

ودعانا الممثل محمد رضا على افطار رمضانى فى منزله •• احتفالا بشفائه مـن حادث تصادم مروع وهو يقود سيارته فيطريقه الى الاسكندرية • وكان بينالحاضرين محمد احمد محجوب وزير خارجية السودان واحسان عبد القدوس وحسن فؤادوسعيد ابو بكر وزكريا الحجاوى وعبد الحميد قطامش وعباس الأسوانى المحاميان •• وكانت المائدة حافلة بالديوك الرومى والفراخالبلدى وأكوام اللحم والأطايب والشقانق والنقانق

ولم نأكل سوى القليل وتركنا معظم الطعام .. واذا بكامل الشناوى يقول لصـــاحب الدعوة :

ـ والله زمان يا معلم رضا .. فكرتنى بعزايم المرشحين فى انتخابات مجلس الشيوخ .

وكان الشاعر أحمد رامي عندما يسأله أحد لماذا لايركب تليفـــون في منزله . يتهرب من الحقيقة بقوله أنه قدم طلبا لمصلحة التليفونات منذ عشر سنوات ويبدوأنها تفضل عدم ازعاجه بالمكالمات حتى يتفرغ لتأليف اغانى ام كلثـــــوم . ولكن كامل علق على ذلك بقوله أن أحمد رامي يخاف اذا حدثته أم كلثوم فى التليفـــون .. أن تعتقد زوجته أنها متيمة فى حبه . وقال كامل الشناوى :

« إن التاريخ سيذكر فى صفحاته أن شاعرين فقط لم يدخل بيتهما التليفون .. امرؤ القيس .. وأحمد رامي » .

وخلال معركته الأدبية حول الشعر الجديد مع أحمد عبد المعطى حجازى ـ وصلعته أبرز ملامحه ـ أطلق عليه لقب «أصلع غرناطة» نسبة الى شاعر غرناطة . وكان يجاوره كاتب فى جريدة الجمهورية يخرج صوته من أنفه فكان نصيبه من تشنيعاته لقـب « أخنف نوتردام » نسبة الى « أحدب نوتردام » . وكان لنا صديق دائما مانسمع أنـه خطب ثم لانلبث حتى نسمع انه فسخ خطبته وسماه « اسماعيل الفسخانى » . واختلف فى الرأى ، مع كاتب يسارى يعيش حياة الابهة ويتحدث فى نفس الوقت عن الكادحين وأطلق عليه « البارون الاشتراكى » . وعلى قدرمحبته للشاعر السودانى محمدالفيتورى فقد حبك النكته معه وقال « اسمه الفيتورى لانه لايدفع ما عليه من الفـــــواتير » . واعجابا بالخميسى ومجابهته الاحن بشجاعة نادرة .. مغامـــــرة وزواجا وانجـــابا للاولاد والبنات سماه « القديس » . وكان يحلو له تناول العشاء فى ساعة متأخرة من الليل عند كبابجي فى شارع كلوت بك يتردد عليه الوسط الفني . وذات عشـاء كان اللحم عجوزا يصعب مضغه فاقترح على صاحب المحل تغيير اللافتة من « كبابجى » الى « كلابجى » .

وتندرا بحرص سعيد ابو بكر على المال قال :«دخلت عليه غرفته بمسرح الازبكية ضبطه بيحوش » . وكانت اذاعة صوت العرب تذيع حلقات قصة حياة الســـيدة فاطمة يوسف . وكان احسان عبد القدوس قد ترك رئاسة تحرير مجلة «روزاليوسف» وجاء مكانه احمد حمروش . وكانت الممثلة التى تؤدى دور «فاطمة اليوسف» تردد دائما عبارة : « انت يابنى يا احسان » . فأشاع كامل الشناوى ان مدير صوت العرب أصدر امره الى كاتب المسلسلة بتغيير العبارة الى « أنت يابنى ياحمروش » تمشيا مع التغيـر الجديد فى روز اليوسف !

وموهبة السخرية وخفة الظل على لسان كامل الشناوى تنعكس فى ضـــحكاته الساخرة وعباراته الأنيقة عندما يكتب ..

عند بداية ظاهرة انقطاع المياه عن الادوار العليا قال : « سمعنا ان البلدية حجزت المياه بعد ان خاف المسئولون أن تدخل فى التسعيرة » ..

ومن قوله : «عبد الحليم حافظ يكذب اذا تكلم . ويصدق اذا غنى » ..

وكامل الشناوى هو الذى أطلق على أم كلثوم لقب « كوكب الشرق » وكان يقول: « المعجزة لاتتكرر . ولكن ام كلثوم هى المعجزة الوحيدة التى تتكرر كلما وقفت تغنى » .

وعندما كانت أم كلثوم تفتتح حفلاتها السنوية مع بداية موسم الشتاء كـان يقول « بدأت السنة الغنائية » .

وعن رأيه فيما بين الاذاعة والتليفزيون من اختلاف قال: « الاذاعة كالمرأة المحجبة والتليفزيون كالمرأة السافرة ! » .

وكتب يصف رجلا : « أذناه تتدليان في ذلة ، جبينه مكسور ، وأنفه مرغم ! تتعقبك نظراته في الحاح ، أشبه بالنباح .
لسانه سليط ، وملامحه مثل لسانه .. الفم مفتوح مثل شدقيه ، متهيىء دائما للقذف بكلمة وقحة أو ابتسامة جارحة تحس وهو يشرب أو يأكل أنه لايرشف الماء ولكن يشتمه .. ولايمضغ الطعام ولكن يلعنه ، خلقه طيب ، وسلوكه سيىء .. قلبه ابيض ، وتصرفاته سوداء !
حيرني معه .. أحب أن اكرهه ، وأكره ان أحبه ! »
وعندما سأله القراء عن اسم بطلة قصيدة لاتكذبي .. كتب يقول :
« مصدر الوحي للشاعر كمصدر الاخبار . كلاهما من أسرار المهنة . واذا كان التصريح بمصدر الخبر يتنافى مع الامانة الصحفية . فان التصريح بمصدر الوحي يعد خيانة عاطفية » .

****

● وكامل الشناوي كانت له قدرة فائقة على تقليد الاصوات . لم تكن قاصرة على اشخاص بعينهم . وانما لكل أنواع البشر . كان اذاسمع صوتا شابا أو عجوزا أعاد تقليده فورا . بنفس خلجات الصوت . وايقاعه . ومخارج الفاظه ولكناته !
كان يقلد النحاس . وحيدر باشا وزير الحربية . وطه حسين والعقاد . وتوفيق الحكيم . ومعظم رجالات ما قبل ثورة ٢٣ يوليو وما بعدها . وكان ولوعا بتقليد اللواء محمد نجيب وجمال عبد الناصر وصلاح سالم والشيخ الباقوري .. وكان في ظروف خاصة يحلوله العبث والنقد الساخر مستخدما لقدرته على تقليد الاصوات في ممارسة هوايته الدائمة في اثارة الصراع بين المتناقضات .. أو تدبير المقالب الذكية التي لاتخيب .
جاءه رجل ريفي من بلدته . يطلب منه اعفاء ابنه من الجندية . وعرض عليه استعداده لدفع المطلوب لمن يحقق له رغبته . وضحك كامل الشناوي من عقليته وتفكيره . وعبثا حاول ان يفهمه استحالة هذا الطلب . وأن الجندية أصبحت اجبارية وواجبا وطنيا وأن أحدا لايرتشي . ولكن الرجل ألح في السؤال . وأصر على ألا يعود الى بلدته وقال لكامل الشناوي في لهجة استخفاف :
ـ امال صحفي ازاي .. والبهوية بتعمل بيها ايه .
ولم يكن هناك بد مما ليس منه بد واتصل كامل الشناوي بحيدر باشا في منزله وردوا عليه بأن معاليه نائم . فقال لهم انه جاء خصيصا الى القاهرة لمقابلته في أمر شديد الاهمية ولابد من ايقاظه في الحال ..
وكان حيدر باشا ضابطا صارما في ملامحه وفي عمله وحياته العامة والخاصة لكن لهجة المتكلم كانت توحي بأنه شخص هام ومسئول كبير ، وأن وراء اصراره على مكالمته أمرا خطيرا بالضرورة !
واستيقظ حيدر باشا قبل موعده المعتاد .. وأقبل يتحدث في التليفون ..
ـ آلوه .. مين ؟
ـ أنا حسن العجيزي .
ـ أيوه عاوز ايه ؟
ـ انا ليه ولدين مسجونين . واحد في سجن الحضرة بالاسكندرية والثاني في

ليمان طره . عاوزك تنقل بتاع الحضرة عشان يعيش مع اخوه فى طره . أو تنقل بتاع طره الى سجن الحضرة .
ـ طيب خلاص اقفل السكة .

وعاد كامل الشناوى يطلب حيدر باشا فى كلوب محمد على « نادى التحرير الآن» وكان يتناول عشاءه مع بعض الوزراء .. وكرر نفس الاسم ونفس الطلب .

ثم كرر كامل الشناوى الاتصال بحيدر باشا فى تليفونه السرى بوزارة الحربية وقال له فى لهجة تأنيب وتوبيخ : أنا مش عارف ازاى عينوك وزير حربية .. أنا جاى مكتبك بكره الساعة عشره أفهمك الموضوع بنفسي !

وعندما جاء حسن العجيزى ليعرف من كامل الشناوى نتيجة اتصالاته بحيدر باشا ، أبلغه أنه وافق على استقباله في العاشرة من صباح الغد لاصدار قراره باعفاء ابنه من الجندية فى حضوره .

وعلى أبواب وزارة الحربية .. كان الحرس فى انتظار حسن العجيزى .. وما ان نطق باسمه حتى قبضوا عليه وحملوه الى حيدر باشا .. وفى مكتبه نال مالم ينله سجين فى ليمان طره أو سجن الحضرة من صنوف التاديب .

وكانت بعض المساجلات والمعارك الأدبيه التى شهدتها الصحافة المصرية منذ الأربعينيات وحتى منتصف الخمسينيات له دوره فيها .. بالمشاركة بالرأى والكتابة . أو بتدبير المقالب بين الأضداد والفرقاء !

كان كامل الشناوى يحادث عباس محمود العقاد فى التليفون مقلدا صوت طه حسين وأسلوبه وعباراته وهو ينقد رأياله أو مقالا أو شعرا . وكان يقلد صوت العقاد ويحادث طه حسين فى أمور مشابهة .. وسرعان ما تظهر آثار مكالماته فى مقالاتهما وهجومهما المتبادل ..

ولعل أشهر نوادره فى تقليد الأصوات تلك التى تحدثت بها مصر وضحكت لها عام ١٩٣٨ ..

كان بين الكاتبين توفيق دياب وعبد القادر حمزة خلاف كبير انتقل من القضايا العامة الى المسائل الجارحة والاسرار الخاصة ..

وانزعج أصدقاء الطرفين وسعوا الى الصلح بينهما دون جدوى .. بل لقد فكر الاصدقاء فى تشكيل لجنة استطلاعية لبحث أسباب الخلاف ومعرفة من بدأ بالخطأ .. واعادة المياه الى مجاريها .. ولكن الفشل كان حليفها .

وتفتق ذهن كامل الشناوى عن فكرة رائعة ..

فى هدوء الليل أدار قرص التليفون وأجرى مكالمة مع عبد القادر حمزة بصوت توفيق دياب وخاطبه برقة والم وندم على ماحدث بينهما .. وكيف انه لاينام لان ضميره يؤرقه ازاء هذا الخلاف الذى لامبرر له .. و « الله يسامح الى كان السبب » . وبكى عبد القادر حمزه على أسلاك التليفون .. فجاءه صوت كامل الشناوى وهو يقلد بكاء توفيق دياب .. ثم تابع هذه المحادثة بمكالمة فى الصباح قلد فيها صوت عبد القادر حمزة والقى على توفيق دياب تحية الصباح والمحبة وكان الحديث ـ بينهما ودودا وعاد الصفاء والوئام . ثم كانت المكالمة التالية بصوت توفيق دياب الحقيقى وتواعد الكاتبان على اللقاء أمام الأصدقاء والظهور معا فى المجتمعات .. أعلانا عن الصفاء وحتى تخرس الستة السوء التى لعبت دورها فى اضرام الخلاف بينهما .

وذات صيف فى رأس البر . رأى كامل الشناوى قاضيا يضرب خادمته بلارحمة ولا شفقة .

وبيت له أمرا • وكان هذا القاضى له ميول وفديه • وعندما دعا الملك فاروق النحاس الى تشكيل آخر حكومة وفدية •• اتصل كامل الشناوى بذلك القاضى وتقمص صوت فؤاد سراج الدين باشا سكرتير الوفد •• وأبلغه رضاء الرئيس الجليل مصطفى النحاس واختياره وزيرا للعدل • وطلب منه أن يمثل فى قصر عابدين صباحا بزى التشريفة لحلف اليمين بين يدى صاحب الجلالة •

وطار القاضى فرحا •• وشغل تليفونات أصدقائه وأقاربه يزف اليهم الخبر •• وكيف أن مسالة اختياره وزيرا للعدل هى رزق لعياله ••

وذهب يستأجر بدلة التشريفة • وتوجه الى قصر عابدين • وهناك التقى بالنحاس وفؤاد سراج الدين وباقى الوزراء وسلم عليهم بحرارة وهم فى عجب من أمره ••

ثم جاءت لحظة الدخول الى قاعة العرش •• واذا بالقاضى يهم بالدخول معهم • وعندئذ جذبه النحاس باشا من رقبته بعصاه المعروفه •• وقال له : رايح فين ياجدع أنت ؟

ــ داخل احلف اليمين •• فؤاد باشا اتصل بى وابلغنى اختياركم لى وزيرا للعدل ••

وضج الجميع بالضحكات •• وطرد شر طرده من قصر عابدين ••

وعاد القاضى الى منزله ليتصل من جديد باصدقائه واقاربه •• وابلغهم بأن رزق العيال ضاع •• ومنذ ذلك اليوم واصبح الجميع يعرفونه حتى الآن بسيادة القاضى رزق العيال !

وكان كامل الشناوى يعرف مدى اعتداد صديقه الموسيقار مدحت عاصم بكرامته وثقته بفنه • واستعداده الدائم لاستخدام عضلاته فى وقت اللزوم • وكم استخدمها ابان الشباب فى مواقفه السياسيه • ومغامراته الغرامية !

ويوما عرف أنه سيلتقى مع صديقه محمد عبد الوهاب ليسمعه لحنا من الحانه• ومدحت عاصم يجيد العزف على البيانو ولايستخدم سواه فى تحفيظ الحانه للمطربين والمطربات •

ورفع الكاتب جليل البندارى سماعة التليفون ذات يوم •• وسمع صوت عبد الوهاب يدعوه الى منزله • فهو مريض ولكنه لايستطيع أن يعتذر لمدحت عاصم الذى سيأتى لزيارته ويسمعه بعض الحانه على البيانو ••

ولم يكن المحدث عبد الوهاب •• ولكنه كامل الشناوى وهو يقلد صوته ••

ووصل جليل الى منزل عبد الوهاب بدون موعد •• ووجده يجلس على فوتيه ويسمع الحان مدحت عاصم على البيانو فى استغراق وشغف • وظن أن الامر لايعدو أن يكون مجاملة من مجاملات عبد الوهاب على حساب المرض الذى يعمل له الف حساب!

وما أن انتهى مدحت عاصم من العزف •• حتى جاءه صوت جليل البندارى الاجش وعباراته الساخرة اللاذعة التى تعودها أهل الفن •• يلومه على هذه الموسيقى التى تؤرق عبد الوهاب فى مرضه !

وقال مدحت والدم يكاد يفوز من ملامحه التركيه : تسمح يا أستاذ جليل ؟

ونهض جليل البندارى واقفا •• وسحبه مدحت فى هدوء الى غرفة مجاوره وهناك وافاه بعدة « زغدات » ثم عاد مدحت عاصم الى عبد الوهاب واستمر فى عزفه على البيانو •• ثم ودعة وخرج من المنزل ••

وبحث عبد الوهاب عن جليل فوجده فى الغرفة المجاورة •• وعندما علم بأن مدحت عاصم قد انتهى من عزفه ، وتاكد أنه غادر المنزل •• بدأ يحس آلام « الزغدات » وانفجر فى البكاء !

واذا كان هناك أدب للكتابة وأدب للخطابة وأدب للحديث ٠٠ فقد ابتدع كامل الشناوى « أدب التليفون » اذا جاز هذا التعبير ٠ كانت له ملكات خاصة في الاستحواذ على آذان سامعيه والحوار معهم ٠ الحديث في الصباح غيره في المساء ومناجاة المرأة تختلف عن مخاطبة الرجل ٠ ولكل مقام مقال ، ولكل موضوع اسلوب ٠ وكان صوته المؤثر له دخل كبير في الاقناع والوصول الى الاهداف !

وكثيرا ماكنت أسمعه وهو يحادث كبار المسئولين في التليفون ٠٠ فكان حديثه أخاذا وأسلوبه مرحا وكان مسيطرا دائما على ناصية الحوار ، وانهاء الحديث في التوقيت الملائم !

وكان لديه جهازان للتليفون ٠٠ أحدهما خصصه للمكالمات العاطفية وجعل الثاني لشئون العمل ومحادثة الاصدقاء والاستفسار عن صحتهم وأحوالهم كل يوم ٠

كان اذا تحدث في أحد الجهازين ثم جاءته مكالمة على الجهاز الآخر لايعتذر لمحدثه الاول ٠ بل يتحدث في الجهازين معا ٠٠ وكأنه كان يستأنس بالصوتين ويبدد وحدته ٠٠ أو كأنه كان يعقد صداقة مؤقتة بين الصوتين تمر عن طريقه ٠٠

ويوما قرر ألا يخرج من منزله ويتفرغ للقراءة والكتابة ٠ ورفع سماعتى التليفونين ٠ وفي اليوم التالي كتب يقول :

« أمضيت يومي كله وحدى ٠ أردت أن أجرب هل يستطيع الانسان أن يعيش بلا ناس ٠٠

قرأت كتابا ٠ وسمعت أغاني ٠ وموسيقى ٠ ولكنني لم أتصل بأحد ٠ ولم يتصل بي أحد ٠ خيل الى وانا هكذا وحدى ٠ أني مريض أتولى بنفسي زيارة نفسي ٠

ولم أشأ أن أثقل على المريض بالزيارة الطويلة فغادرت البيت ٠ واختلطت بالناس » ٠

الفصل الخامس

ذكريات الظريف وثقافة المحدث



وكامل الشناوى الظريف كان له رأى فى فنون الظرف ضمنه مقدمته لكتاب « الظرفاء » يقول فيه :

« كانت النكتة السلاح السرى الفتاك الذى استخدمه المصريون فى محاربة الغزاة والمحتلين ، كانت النكتة هى الفدائى الجسور الذى استطاع ان يتسلل الى قصور الحكام ، وحصون الطغاه فقض مضاجعهم ، وملأ صدورهم بالرعب والقلق .. »

والنكته المصرية القوية تعتمد على المبالغه فى تصوير حقيقة أو تشويه حقيقة .

كان زيور باشا رئيسا للوزارة وكان ضخم الجثة ، فوصفه عبد العزيز البشرى بأنه اذا ركب العربة لم يستطع أحد أن يعرف هل هو جالس الى الشمال أو هو جالس الى اليمين .. ! وانه كان يمشى فى حديقة داره فتراهن اثنان من المارة هل هو يسير أمامهما أو هو متجه اليهما ..

وكان مأمون الشناوى يتكلم عن سرعة تضخم حمادة الطرابلسى واطراد الزيادة فى وزنه فقال انه كان يجلس معه فرآه وهو « بيتخن » .. !

وحينما كان حفنى محمود وزيرا للمواصلات .. سمع صوتا عاليا يرتفع من الغرفة المجاورة لغرفته فاستدعى الساعى وسأله : ايه الزيطة دى ؟ فقال له الساعى ان السكرتير يتكلم مع الاسكندرية .. فقال حفنى محمود : قل له بدل مايزعق كده .. يتكلم فى التليفون !

وكان حافظ ابراهيم جالسا فى حديقة داره بحلوان ودخل عليه عبد العزيز البشرى وبادره قائلا : لقد رأيتك من بعيد فتصورتك واحدة ست .. فقال حافظ ابراهيم : والله يظهر نظرنا ضعف .. انا كمان شفتك وانت جاى افتكرتك راجل !

وكان البشرى وحافظ ابراهيم مدعوين الى احدى الحفلات ودخل البشرى على

حافظ فى غرفه النوم وطلب اليه ان يرتدى ملابسه فقال حافظ : أنا لسه ماغسلتش وشى فقال له البشرى : موش عاوز غسيل ·· نفضه كفايه !

وتعود عبد العزيز البشرى أن يستخدم صيغا مختلفة فى القسم بالله فكان يقول مثلا : أقسم بالله ثلاثا ·· وحق ذات الله العليه ·· قسما بذات العزه والجلال ··وكان اذا استعمل أحد هذه الأقسام فى أول الليل ظل يستعمله الى آخر الليل ··

وفى احدى الليالى لاحظ حافظ أن عبد العزيز البشرى استعمل كل صيغ الاقسام فسأله : ايه الحكاية ؟ هوه مفيش « يمين » نوبتشى الليله ·· !

وبين الشخصيات التى لعبت فى مجال النكتة ولم تكن لها صفة سياسية أو فكرية ، المعلم دبشه الجزار والأسطى حسين الترزى ··

كان حسين يسير فى الطريق على قدميه فلمحه أحد أصدقائه وكان يسوق عربته الخاصة ، ودعا حسين الى الركوب معه ليوصله الى المكان الذى يريده وكانت العربة قديمة فقال له حسين : ما أقدرش ·· علشان مستعجل !!

وزار دبشه احدى الفنانات فى دارها فوجد عندها رمانا ، وأبدى اعجابه بالرمان فقالت له : أفرط لك رمان يادبشه ؟ فقال لها : فرطى لى فى عرضك !

وقابل سليمان نجيب احدى السيدات فى ميدان سباق الخيل فسألها عن اسم الحصان الذى لعبت عليه ، فقالت له : اذا قلت لك اسم الحصان فهل تشاركنى عليه ؟ فقال لها سليمان : أنا موش عاوز أشاركك ·· أنا عاوز أشارك جوزك !

وهناك اكثر من طراز للنكتة وبعض هذه النكت يعتمد على المفارقات وبعضها يعتمد على المبالغة ، وبينها نكت تعتمد على الجناس والتورية واللعب بالألفاظ وهى كلها تعطى صورة صادقة عن النكته المصرية ··

وهناك ظرفاء يجيدون النكته القاء لاتجسيدها كتابة ·· مثل محمد البابلى ومحمود ثابت وحافظ ابراهيم وعبد العزيز البشرى ·· وهناك ظرفاء يجيدونها كتابة ·· وغيرهم قليل يجيدونها كتابة وقراءة !

كان البابلى مفكرا على درجة عالية من الثقافة ·· وكان يجمع بين ترف الحياة وترف الذهن ·· وكان يتحدث بأسلوب لاذع أنيق ، ولكنه لم يحاول أن يسجل هذا الاسلوب على الورق ··

وكان محجوب ثابت يجنح فى كتابته الى تصنع الجد ، ويستخدم فى مقالاته السياسية شعارات حماسية وطنية ، وكان حريصا على أن يبدو من خلال مايكتبه متجهم الوجه ، مقطب الجبين !

وكان حافظ يبلغ القمة فى التعبير عن النكتة اذا القاها ، أو عبر عنها بالشعر الخفيف ، وكم له فى هذا المضمار من أشعار لم يتضمنها ديوانه المطبوع ، ولكن طريقته المعقدة فى الكتابه كانت تخنق روح النكتة ··

وكذلك كان عبد العزيز البشرى ·· فان اسلوبه الكتابى يعتمد على جزالة اللفظ ·· وهذا الاسلوب يحجب الجمال الذى امتاز به أسلوب البشرى عندما يطلق نكتة أو يحكى حكاية ··

أما عبد الله النديم وحسين شفيق المصرى ، فكلاهما كان يحسن التعبير عن النكتة بالكتابة ، والزجل ، والكلام ، والشعر الماجن والشعر الرصين ··

وقد عاش الشناوى أجواء الظرفاء فى ذلك الزمان ، وهو مازال شابا يافعا وظريفا غضا ، وكانت رواياته عن ظرفاء الأدب والشعر والفن بأجوائهم ومنتدياتهم ونوادرهم حصيلة ممتعة من ذكريات غاية فى الطرافه والغنى وهو ما يستحق أن يفرد

إنها كتاب خاص . وقد سمعنا من ذكرياته عن هؤلاء الظرفاء الكثير .. وكتب عنهم اليسير من الخواطر والانطباعات ..

كان شبلي شميل الذى بشر فى مصر بنظرية دارون تحت عنوان «النشوء والارتقاء» شاعرا سخيفا وكان يكتب بأسلوب قوى . وكان عصبيا ، دمويا ، مريضا بالربو . فى صوته غلظه ، وفى حركاته حماقه ، وكثيرامارفع عصاه فى صالون « مى زيادة » مهددا يضرب من يجادلونه فى عدم وجود الله .. وكان نجيب هواوينى شيخ الخطاطين صحبته أكثر من غيره . وأطلق حافظ ابراهيم عليه تشنيعة تقول « ان الدكتور شبلى أعجبه يوما صوت أحد المطربين . فظل يستعيده . وبدلا من ان يقول مثلنا : الله .. الله . كان يقول : الطبيعة .. الطبيعة ..

تشنيعه أخرى أطلقها حافظ ابراهيم على شبلى شميل ..

طلب منه أحد مرتزقى الصحافة نقوداً فلما رفض ، هدده الصحفى بكتابة مقال يؤذيه . فضحك شميل وقال : وهل تظنّ اننى ممن يخافون التهديد ؟ هل انا عمده ؟ أنا لا أعبأ بالتهديد !

فقال الصحفى المرتزق : هل تعرف موضوع المقال ؟

فقال شبلى : لايهمنى ..

فقال الصحفى المرتزق : سأثبت فى المقال وجود الله

وهنا فزع شميل : مادام الامركذلك .. خذ ماتشاء !

وكان رواد صالون « مى » يتأنقون فى ملابسهم وحلاقة ذقونهم . الا واحد .. هو صادق الرافعى . كان يصل من المحطه رأسا الى « الصالون » وعليه كل ما فى الطريق بين طنطا والقاهرة من غبار .

ولمحه حافظ ابراهيم يوما وقد جاء فى بدلة جديدة نظيفة فقال له : انت متنكر يا صادق ؟

قال بانزعاج : ابدا .. ابدا ..

وقال حافظ : اصل مش شايف التراب اللى دايما على بدلتك !

وتراكمت الديون على محمد البابلى فى عدة بنوك . وكانت معظم البنوك حينئذ فى سوارس « ميدان مصطفى كامل الآن » وضاق البابلى بكثرة مطالبتها له . وشكا أمره لصديقه حافظ ابراهيم . وتمنى لو أنها وحدت ديونها فى بنك واحد . فقال له حافظ: الأمر سهل يا أخى . قف فى ميدان سوارس ونادى بأعلى صوت : وحدوه !

وكان حافظ ابراهيم مع بعض أصدقائه فى مقهى . فدخل عليهم شاب ثقيل كان أبوه قد خرج من المجلس . وبعد قليل انصرف الشاب . فسأل أحد الجالسين حافظ : ابن مين الثقيل ده ؟

فأجابه حافظ : ابن اللى آم .

وكان الشيخ المراغى الامام الاكبر أديبا يحب الشعر والشعراء . وقد تعلق به الشاعر حافظ ابراهيم تعلقا شديدا . ولم يكن يفارقه فى جلساته بمنزله فى حلوان . حيث يدور بينهما الحوار حول الشعر والدين والتاريخ .

وكان الشيخ المراغى قد اشترى خمسة ديوك رومى . ولم يكد الصباح يطلع عليها حتى ماتت . فأرسل حافظ ابراهيم الى الشيخ المراغى كتاب تعزيه قال فيه :

رحم الله خمسة من ديوك
للمراغى قد عولجت بالفناء
فلو أن الاستاذ خير فيها

بين موت لها وبين فنـــاء
لافتداها بخمسة من شيوخ
من أساطين هيئة العلمـــاء

وعن محمد البابلي ٠٠ روى كامل الشناوى انه كان مسافرا مع صديق له ٠ وبينما هما ينزلان درجات سلم المحطة لركوب القطار ٠ لمح فتاة حسناء فتوقف ٠ فقال لـه صديقه : ماتنزل يامحمد ؟!

فقال البابلي : كيف انزل و « روحي طالعه » ؟!

سأل أحد الأصدقاء يوما امام العبد ــ وكان أسود اللون ــ : لماذا لاتتزوج ؟ فقال :

يا خليلي وانت خـير خليـــل
لاتلـم راهبـا بغـير دليـل
أنا ليـــل وكل حسناء شمس
فاجتماعي بها من المســتحيل

وقال العبد يشنع على نفسه : « رآني أحد اخوانى ، وقد شـــددت عنقى برباط « جرافته » سوداء ٠ فحسب ان قميصى مفتوح ، فطلب منى أن أشد ازراره ٠

وكان يكتب يوما فسقط الحبر من قلمه على الورق ٠ وسأله أحد أصـــدقائه : الحق الحبر غرق الورقه !

قال : ده مش حبر ٠٠ ده عرقى !

اتهم محمود غنيم صديقه الشاعر محمد الاسمر بأنه بخيل وداعبه بقصيدة منها :

صـــم ٠٠ اذا ما الضيف جاءك
وامنـــع الضـــيف عشـــاءك
واجعل الصـــوف غطاء الضــ
ـيف والســـقف غطـــاءك
لاتصــــــن زادك فى الشتـ
ـرى وفى المــــريخ مـــاءك
يا صــــديقى قـــد فحصنا
ك فـــكان البخــــل داءك

ورد عليه الاسمر بقصيده :

يا صـــــديقى انت فى شعـ
ـرك لـــــم تلبس رداءك
ياكـــــريم العصر مـــا أجـ
ـمـــل فى الجـــو ادعـــاءك
شـــــد مـــا أبقيت شـــيطا
ن قوافيـــــــك وراءك
قـــد عرفنـــاك صـــــغيرا
وتبينـــــــا ســــــخاءك

ودعا دسوقى اباظه عددا من اصدقائه الشعراء الى حفلة رسمية ٠ فذهب محمـود غنيم بملابسه العادية ٠ فسأله الداعى عن « الردنجوت » فقال :

« الردنجوت » ياجناب الوزير
ليس يقوى عليه جيب الفقـير
رمت أن استعيره مثل « ناجى »
ثم احجمت خـوف من المصير

ورد عليه الشاعر ناجي بقوله :

وأقسم لو أن «الردنجوت» نلته
وجاء به من جاء قهرا وسلفا
لقلبته ظهرا لبطن تحبيرا
به تحسبن الوجه من عبط قفا

وكان الشاعر محمد الهوارى يجلس مع زكى مبارك وحسين شفيق المصرى .. رجاءهم محمد الاسمر يشكو من ساعة اهداها اليه صديقه محمد الهوارى فكانت فرصة للتنكيت والضحكات . وانشد ذكى مبارك شعرا مرتجلا قال فيه :

واها لبعض الهدايا
بعض الهدايا رزايا
ساعات باريس عندى
لها جميع المزايا
تدق دقا لطيفا
كمثل همس منايا
وساعة الهوارى
أولى ببعض التكايا
تدق دقا عنيفا
كما تدور الرحايا

ولما قتل أعمى مبصرا فى حى الصنادقية ، ونشرت الصحف المصرية نبأ الجريمة استغل ابراهيم المويلحى هذه المفارقة الغريبة ، وجعلها قياسا يحمل عليه كل ماكان منتشرا فى المجتمع المصرى حينئذ من أوضاع مقلوبة معكوسة ، فكتب مقالا فى التعقيب على هذه الحادثة ، منه :

« اذا أصبح الامى محررا ، والأعمش مصورا ، وأصبح الوزير شاكيا ، والمغنى باكيا ، وأصبح القاضى محتالا ، والوصى مغتالا ، وأصبح العالم مخرفا ، والجاهل مؤلفا ، وأصبح الوطنى مذللا ، وأصبح مدير المعارف أعجميا ، ومفتش المدارس عاميا واصبح عميد الشيطان يتعبد ويتهجد وأسم المسلم خريستو بعد أحمد ، وأصبح الدعى حسيبا نسيبا .. فليس من غريب المقادير أن يفتك الأعمى بالبصير » .

ـ وتهكم مصطفى الرافعى بانحلال الروابط بين المصريين :

قومى (ولا فخر) على حاله
لا يعرف الانسان انسانا
فكلهم مأربه واحد
فيما أرى شيبا وشبانا
(وظيفة) تكتب تحت اسمه
أو (رتبة) تذكر عنوانا

وكامل الشناوى كان يكتب في المجلات الفكاهية فى مقتبل حياته الصحفية بدون توقيع . ولا أحد يعرف ماذا كان يكتب . ولا نوع كتاباته واسلوبه . ولكنه كان يروى لنا بعضا من الكتابات الفكاهية فى ذلك العهد ..

وكامل الشناوى كان يحفظ الكثير من أشعار الفكاهة للشاعر الزجال حسين شفيق المصرى الذى حقق براعة فى هذا المجال وشهرة ذائعة .

وحسين شفيق هو الذى عارض المعلقات العشر ، وكثيرا من القصائد المشهورة قديمة

وحديثه ، فمزج الجد بالهزل ، ومزج الفصحى بالعامية وجعل موضوعاته نقديه أجتماعية وكان كثيرا مايغير فيْ الكلمة الفصحى أو فى الكلمة العامية تغييرا بالزيادة أو بالنقصان أو بالتقديم والتأخير فيجيء تغييره نفسه باعثا على الضحك ، ومن ذلك معارضته لقصيدة النابغة الزبيانى التي مطلعها :

« يادار ميه بالعلياء فالسند » فتهكم بالمغالاة فى جهاز العروس وملابسها وحليها والسفهاء الذين يحملون أنفسهم فوق طاقتها حبا فى الظهور • فقال :

راحوا لبيع نحاس البيت تكلمـــة
لأجرة التخت غنى ليلة الاحـــد
تزوجت أختنا من بعــــدما لبثت
عامين مابينْ سمعان « وأورزدى »
هذا حرير وذا صـــوف وذاك اذا
شاءت من القطن أثوابا بـــلا عدد
وصـــــيغة لو وزناها لما نقصــت
عن أقة ذهبا موزونة بيــــــدى

****

● كان كامل ألشناوى يستملح من أجواء ظرفاء ذلك الزمان وفنـــون ظرفهم • ما عاشه منها أو سمعه فى مجالس أحمد شوقى أمير الشعراء ونوادر صديقه الشاعر البائس الضاحك عبد الحميد الديب ••

وعندما لمع نجم عبد الوهاب لأول مرة خلال عامى ١٩٢١ و ١٩٢٦ • كان شوقى قد سمعه ، فاعجب به ، وتحمس له ، وأخذ يمهد له طريق المجد • فلا يمر يوم دون أن يطالع القراء صورته فى المجلات الفنية والادبية مقترنة بكلمة او مقال او قصيدة فى التغنى بصوته • والاشادة بموسيقاه ••

وكانت المعركة على أشدها بين شوقى وخصومه ، وقد تناول هذا الكتاب الـذى أصدره العقاد والمازنى شعر شوقى وخصه بالهجوم ، والنقد ، والتجريح • وأنقسمت الصحف الى معسكرين • كل منهما يدعو الى فريق ويهاجم الآخر •

كان المازنى يهاجم عبد الوهاب فى جلساته الخاصة • ويقول ان صدره ضيق فهو لايصلح أن يكون مغنيا ولكن يصلح أن يكون مريضا !

وكان المازنى لم يسمع عبد الوهاب بعد • ورأى أحد اصدقاء عبد الوهاب ان يحميه بن هجـــــوم المازنى • فاقام حفلة فى داره • دعا اليها المازنى والعقـاد وغنى عبد الوهاب فى الحفلة • وابدى العقاد اعجابه بصوت عبد الوهاب وقال انـه لاعيب فيه الااعجاب شوقى به ! وقال : « صوته قوى عذب جذاب ، واستعداده الفنى عظيم » ونظم فيه قصيده مطلعها :

ايه عبد الوهاب انك شـــــاد
يطرب السمع والحجا والفؤادا
قـــد ســـمعناك ليلة فعلمنا
كيف يهوى المعذبـون السهادا
ونفينا الرقـــاد عنـــا لأنـــا
قد حلمنا وما غشينا الرقـــادا
بارك الله فى حيـــاتك للفـــن
وابقـــــاك للمحبـــين زادا



وكتب المازنى مقالا اشاد فيه بصوت عبد الوهاب واعجازه . وفرح شوقى فقد اعتبر ان شعر العقاد فى عبد الوهاب وثناء المازنى انتصارا له . ولكن بعض أصدقاء شوقى افهموه أن عبد الوهاب سوف ينضم الى خصومه . فأوعز الى حسين شفيق المصرى أن يكتب مقالا يهاجم فيه العقاد والمازنى ويسخر من ثنائهما على عبد الوهاب .

وكتب المصرى يقول : هل أراد العقاد أن يمدح عبد الوهاب أو أراد أن يذمه ؟ . انه يقول :

قد سمعناك ليلة فعلمنا كيف يهوى المعذبون السهادا

اذن فلم تكن ليلة طرب بل كانت ليلة شقاء . ان عبد الوهاب لم يشج الشاعر . ولكن اشقاه ، وسامه العذاب ! وكيف يتفق هذا الشقاء والعذاب مع وصف الشاعر للمغنى بأنه اطرب السمع والحجا والفؤاد ؟

وكتبت جريدة الكشكول الفكاهية تحت عنوان « هجاء فى مدح » مقالا جاء فيه : (سأل اعرابى احد المغنين ما الغناء؟فأراد المغنى ان يرى الاعرابى كيف يكون الغناء فأخذ يتغنى بأبيات من الشعر ، ويهتز ، ويلقى برأسه الى الوراء ، ثم يعتدل ، ويتجعد وجهه ، وتلعب عيناه .. فقال الاعرابى : « والله يا أخى مايفعل بنفسه هكذا عاقل ! »

وقد صدق . ولم نر من استملح هذه البشاعة من المغنين غير المازنى ، فقد كتب فصلا عن المغنى النابغة محمد أفندى عبد الوهاب قال فيه انه اذا تناول العود وأصلحة واستعد للضرب عليه ، يرفع رأسه حتى يكاد يمس به ظهر الكرسى ، ويرسل طرفه الى الفضاء . وتلك اوصاف مفتراه ظنها المازنى ممايحمد من المغنين فوصف بها عبد الوهاب .. وعبد الوهاب منها براء !) .

ثم قالت : « ولا نرى المازنى اخزاه الله يصف مغنيا ، ولكنه وصف قردا . وخيل اليه انه يمدح وهو يهجو . ولا شأن لنا به . فلينظر عبد الوهاب كيف جزاء من يطرب الحمقى والجهال فلا يكافئونه الا بالحاقه بالقرود » .

ولما ظهر الكشكول وفيه هذه الكلمة . اخذ شوقى يبدى أعجابه بالكاتب متسائلا: « ياترى من يكون ؟ انه ليس اديبا فقط . ولكنه اديب وموسيقى يفهم فى علم النفس » . وكان يقول هذه الكلمات على مسمع من عبد الوهاب ولم يكن كاتب هذه المقاله سوى شوقى . وقد نشرها غفلا من الامضاء .

وهكذا نجح شوقى فى اقصاء عبد الوهاب عن العقاد والمازنى ، وظل المازنى حانقا على عبد الوهاب الى قبيل وفاته بعامين . أما العقاد فقد نشر قصيدته عن عبد الوهاب فى جريدة البلاغ ولما تغير رأيه فى عبد الوهاب ، رفض تسجيل القصيدة فى أى ديوان من دواوين شعره ..

وفى حى السيدة . وفى الدور الأرضى من منزله .. تعرف بالشاعر البائس الضاحك عبد الحميد الديب . وكانت بينهما محاورات ليلية فى الشعر والفكاهة لايزال يتحدث عنها أصدقاء كامل الشناوى فى هذه المرحلة ..

كان عبد الحميد الديب شديد الاحساس بالمرارة . فقد كان والده ضحيةعساكر حكومة اسماعيل صدقى التى كانت تجوب القرى والكفور ابان الأزمة الاقتصاديةلجمع الضرائب من الكادحين والمعدمين بالقوة ..

واحتضنه كامل الشناوى واقتسم معه لقمته وقروشه وملابسه وأسكنة غرفة بالدور الأرضى . لكن الديب كان شديد السخط على الناس .. كل الناس .. بالرغم من أن الشعب كله كان مظلوما بدرجة أو بأخرى .. وكان برغم شعره الحزين له لمحاته الضاحكة .. وحواراته الشعرية مع كامل الشناوى . وكان يروى لنا بين الحين والحين بعض أشعار الديب وذكرياته الضاحكة معه .

ومن نوادر كامل الشناوى معه • أنه كان يخرج من جيبه ورقة فئة عشرة قروش ويقربها من الديب مشيرا الى العملة :
ـ حضرتها عشرة صاغ •
ثم يلتفت للورقة مشيرا الى الديب ويقول لها :
ـ وحضرته •• الشاعر الكبير عبد الحميد الديب •
اى أن أحدا منهما لم ير الآخر من قبل • ثم يفعل كامل مثل ذلك مع قطعة لصابون •• كان الديب لم ير الصابون ولم يستحم فى حياته قط •
ومن أشعار عبد الحميد الديب الساخرة التى كان يرويها كامل :
دع الشكوى وهات الكاس نسكر
ودعك من الزمان اذا تنكر
• • • •
• • • •
وهام بى الاسى والبؤس حتى
كأنى عبلة والبؤس عنتر
كأنى حائط كتبوا عليه
هنا يا أيها المزنوق « ترتر »
وكان فى حى الحسين حلاق اسمه محمد شعبان يعطف على الديب فلا يأخذ منه أجرا على حلاقته فكتب فيه شعرا يشبهه بابن عمران شيخ الحلاقين :

يا بارك الله فى صافى مودته
وبارك الله فى رزق ابن شعبان

مرآته زينة للعين ساخرة
موساه أفضل من موسى ابن عمران

وتراكمت ديون عبد الحميد الديب لدى « المالكى » اللبان فرفض أن يقدم له لبنا بالأجل فكتب يهجوه :
برىء منك مولانا ابن مالك
رماك الله فى شر المهالك
لبانك كلها سم زعاف
ومن غش البرية رأس مالك
فويلك من رجال الحى طرا
ونسوته اذا علموا بذلك

وذهب كامل الشناوى مع عبد الحميد الديب ذات ليلة فى زيهما الأزهرى الى قرية قريبة من القاهرة لأداء واجب العزاء فى أحد مشايخ الأعراب • وكان السرادق مكتظا بالناس من أصحاب العمائم • وضحك كامل ضحكة يحرض بها الديب على السخرية •• فاذا بالديب يقف على « دكة » خشبية ويصيح فى المعزين وهم الوف :
ـ أيها الناس • قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا مات عزيز لديكم فحلوا عمائمكم ••
وخيم الصمت على السرادق • وبدأ كامل الشناوى يحل شال عمامته ••
فاذا بجميع الحاضرين يقلدونه ويحلون عمائمهم فى صمت ! ثم يرتفع صوت الديب من جديد : أعيدوها كما كانت !

وكان بالسرادق عالم أزهري . أخذته المفاجاة فحل عمامته هو الآخر . ومضت دقائق قبل ان يتبين أنه لاصحه للحديث .. ويغضب الناس . ويمسكون بالديب ويلقنونه درسا لم يبرح بعده الفراش شهرا كاملا ..

وتوسط أولاد الحلال لعبد الحميد الديب وزوجوه بامرأة تكبره سنا وتفوقه دمامة في حي الحسين . واختفى في بيت الزوجيه أسبوعا ياكل ويشرب وينام ويغتسل. وفي اليوم الثامن استاذن في الخروج وأخذ معه طبقا لشراء فول مدمس من محل الحلوجي و .. لم يعد . ومرت شهور وزوجته تبحث عنه بلاجدوى . ويوما التقت به فجاة وجها لوجه فتشبثت فيه أصابعها وصاحت بأعلى صوتها : مسكتك .. كنت فين من يوميها ؟

وقال في هدوء : واحد حرامي خطف مني الطبق .. خفت أرجع من غير الفول تزعل !

وكان يروى لنا مأساة هذا الفنان الاصيل ، الذي ظل ليله ونهاره يبحث عن لقمة العيش ، فاذا عثر عليها لم يجدها في وظيفة ، أو صحيفة ، أو مصنع يقدمها اليه لا تكريما لشعره ، ولا اعجابا بمواهبه . ولكن شفقه على مايعانيه ، من فقر وفاقه . وقديما سئل احد حكماء اليونان :

لماذا نعطف على الفقراء ولا نعطف على أصحاب المواهب ؟

فقال : لأن الفقر مرض تنتقل عدواه الى الناس .. اما الموهبه فهي مرض لاتنتقل عدواه الى أحد !

وسمعنا من كامل الشناوى بعضا من اشعار عبد الحميد الديب المبعثره في ذاكرته وذاكرة من عرفوه .. وقد صور في احدى قصائده كيف دخل المسجد ، لينام ، لا ليصلي وكيف غادره بعد صلاة الفجر الى الشارع ، ومر بمقهى ، فاخذ الجالسون يرمقونه بنظراتهم ، بعضهم يقول : عربيد .. والاخر يقول مسكين :

اذا أذنوا بالفجر .. طرت مسرة
الى مسجد كيما أصلي واضجع
......
......
أمر على المقهى فاسمع شامتا
يمزق في عرضي وآخر يشفع
وقد ساء ظني بالعباد جميعهم
فاجمعت رأيي في العداء وأجمعوا

وكان في كل طريق يسعى اليها يجد فيها — على حد تعبير كامل الشناوى — مصرعا لآماله ، وخيبة لرجائه فيصرخ :

اذا سعى فجميع الارض قبلته
وان أقام فلا أهل ولا وطن .
ثيابه — كأمانيه — ممزقة
كأنه وهي حسى فوقه كفن
كأنة حكمة المجنون يرسلها
من غير وعي فلا تصغى لها أذن

وينتهي به سعيه الى غرفه يسكنها واذا هو وحده كل اثاثها :

أفي غرفتي يارب ام أنا في لحد .
ألا شد ما ألقى من الزمن الوغد .

لقد كنت أرجو غرفة فوجـــدتها
بناء قديم العهد أضيق من جـدى
فاحصــــدأ أنفاسى يكاد يهـــدها
وأيسر لمس فى بنايتهــــا يردى
أرى النمل يخشى الناس الا بأرضها
فأرجله امضى من الصارم الهندى
تساكننى فيها الأفاعى جريئـــة
وفى جوها الامراض تفتك أو تعدى
تراثى بها كــــل الأثاث فمعطفى
فراش لنومى أو وقاء من البــــرد
جـــوارك يارىى لمثل رحمـــــة
فخذنى ٠٠ الى النيران لاجنة الخلد

وسافر يوما الى قريته فى الغربية ليقضى عيد الأضحى ٠٠ واذا به يفاجأ بـداره أكثر بؤسا منه ٠ واذا الدار تبكى معه :

مروا على الدار يوم العيد ضيفانا
يستمطرون نداها كالــــذى كانا
والــــدار لما رأتهم مقبلين لهــا
تحـاورت فى البكا اهـلا وبنيانا
ليت العباد كــلاب ان كلبتنـــا
لما تزل لحفاظ الود عنـــــوانا
تحملت قسطها فى البؤس صابرة
لم تشك جوعا ولم تستجد انسانا

وقال يخاطب اهله :

يامعشر الديب وافى كـــل مغترب
الا غريبكمـــو فى مصر ما بانا
ذبحتمو الشـــاة قربانا لعيدكمو
والدهر قدمنى للبــؤس قربانا

ويقول كامل الشناوى ان عبد الحميد الديب كان محقا فى ثورته التى كانت تهدف الى خلق مجتمع يحنى رأسه للفنان ، لاصاحب السلطان ، ويحنو على صاحب الموهبـــه ، لا على صاحب العاهة ٠٠ بينما أمته فى ذلك الوقت لم تكن تحتضن سوى الجاهـــل ، والدعى والمغرور ، وتركته كما مهملا ، بل وجدها لم تحسه ، ولم تشعر به ، فيثور :

يا أمـــة جهلتنى وهى عالمــــة
ان الكواكب من نورى واشراقى
أعيش فيكم بلا أهل ولاســكن
كعيش منتجــع المعروف أفاق
وليس لى من حبيب فى دياركمو
الا الحبيبيـــن اقــلامى وأوراقى
لم أدر ماذا طعمتم فى موائدكـــم
لحم الذبيحة أم لحمى وأخلاقى
بين النجوم رجال قد رفعتهمو
الى الســماء فسـدوا بـاب أرزاقى

وكان كامل الشناوى قد شرع بالفعل في اعداد كتاب عن عبد الحميد الديب .. وشعره الذى يسخر من الحياة .. فيثير من حوله الضـــحك عليها ، والتأمـل فى مفارقاتها .. ولكنه بعد ان أعلن ذلك فى احدى مقالاته ، فوجىء بأسرة الديب تنـــذره بالتوقف عن الكتابه عنه الى حين الاتفاق على نصيبها من هذا العمل .. ولم يكمل كامل الشناوى كتابه .

****

● ومن فرط حبه للناس والحديث الى الناس أطلق أحد الظرفاء على كامل الشناوى لقب زعيم « الكلمنجيه » ، فقد كان بحق المحدث المقتدر بين المحدثين ، بصوته الذى يأخذ بالاسماع وينفذ الى الألباب ، وثقافته الواسعة كتلميذ نشيط فى دار الكتب والمكتبات ، وفكره الذى احتك بالقمم والتيارات السياسية والفكرية والأدبية والفنية . وكانت له ذاكرة لاتخطىء وهو يروى الأحداث التاريخية التى عاصرها ، والحوارات التى دارت بين القمم ، والمساجلات التى شاركهم فيها ..

فى كتابه « زعماء وفنانون وأدباء » شخصيات اختارها بدقة ، وعاش معها ، بينها شخصيات اتصل بها ، انعقدت بينه وبينها أواصر صداقة أو دراســـة .. وبينها شخصيات أخرى . كان لقاؤه بها خلال آرائها وافكارها وكتبها ، وتاريخ حياتها ..

وفى « ساعات » كتب كامل الشناوى بعضا من شذرات فكره وتأملاته وفلسفاته ونجواه .. وهكذا جاء كتابه « حبيبتى » الذى صدر بعد رحيله .

وكتاب « بين الحياة والموت » ضمنه مجموعة من انطباعاته وآرائه فى نفســه وفى الحياة والموت وما وراء الموت .

وعندما نشر كتاب « الذين أحبوا مى » و « أوبريت جميلة » بعد وفاته .. قال النقاد ان كامل الشناوى كان صحفيا وأديبا فهو قد أرخ بأسلوب أدبى رقيق سيرة حياة تلك الأديبة « مى » . وأتى بأسرار وأحداث كادت تطمس وتنسى وكان أوبريت جميلة تأكيدا على انتماءاته القومية . ومتابعته الواعية لأحداث أمته وكفاح شعوبها .

وقد انجذب كامل الشناوى أيما انجذاب الى العصر العباسى . وعاش أجواءه وعوالمه .. وقد جاء كتابه « اعترافات ابو نواس » وحواره الذى تخيله مع هذا الشاعر الفحـــل غاية فى الذكاء والفهم لعصر العلم والمعرفة والحضارة الذى شهدته بغداد ابان القرن الثانى الهجرى ، عصر الفتن ، والثورات الفكرية .. وكأنه عاش بالقرب من تلك الفترة التى كانت دولة الأمويين فى طريقها الى الظل ودولة العباسيين تأخذ مكانهـــا تحت الشمس ..

ثم ديوانه « لاتكذبى » الذى لم يضم الا بعضا من قصائده بعد أن تبددت معظم أشعاره التى نظمها فى حياته . والتى لم يبق منها سوى اليسير فى ذاكرة من سمعوها منه وحفظوها عنه ..

وكامل الشناوى الذى كان بوق دعايه للمواهب الناشئة أينما ذهب . كان أيضا ذاكرا بالفضل والعرفان والمعرفة للعديد من الشخصيات التى تأثر بها فى قراءاته أوفى حياته .. فكان لايمل الحديث عن تلك الشخصيات فى صالونه الأدبى المتنقل . وفى لقاءاته مع الجيل الجديد من أدباء وصحفيين وفنانين ..

كان يحدثنا عن جمال الدين الافغانى العالم الثائر المفكر .. وكيـــف وقف الى جانب الشعب ، يحضه على الثورة ضد الاقطاع والاستعمار ، ووقف الى جانب الـدين يدرأ عنه الخرافات ، ويحميه من جهل المنتسبين اليه ، المتحدثين باسمه ، الذين ظفروا بالقاب كبار العلماء ، ومشايخ الاسلام ، ومنعوا العلوم الحديثة فى الازهر . فالطبيعه

والكيمياء كفر ، والحساب والجبر زندقه ، والفلسفة افك و سفه ، والاجتهاد في المسائل الدينية حرام ، واشتغال رجال العلم بالامور السياسية والاجتماعية بدعه .. وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار !

ولذلك شنت الدوائر الرسمية على الافغاني حربا شعواء واستعانت عليه برجال الدين فاتهموه في عقيدته وسموه « ضلال الدين الافغاني » .

ولكن تعاليم الافغاني كانت تيارا قويا .. سارت الامه كلها في اتجاهه ، كانت الكهرباء التي مست العقول والمشاعر فأيقظتها ، وأثارتها ، أليس هو القائل : « الشرق .. الشرق خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه .. فوجدت أقتل ادوائه ، داء انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد » .

وكان كامل الشناوى يرى أن الافغاني لعب أهم الادوار في تفجير الثورة العرابية والتمهيد لها . فكان يقرب اليه العوام ويقول لهم « انكم معشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاه حتى اليوم . وأنتم تحملون نير الفاتحين ، وتسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتستنزف عرق جباهكم بالعصا والمقرعه . والسوط . وأنتم صامتون .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل ممفيس ، وآثار طيبه ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهي شاهد لعظمة آبائكم وعزة أجدادكم ، هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم عيشوا كباقي الامم أحرارا .. »

ومن الشخصيات التاريخية التي كان كامل الشناوى يروى لنا سيرتها اعجابا بها وفهما لظروفها ، شاعر الثورة العرابية ورب السيف والقلم محمود سامي البارودى . يقول :

« كان واحدا من الشعب ، فقط ملامحه كانت تركية شركسية . اما روحه لمانها مصرية وعربية . وقد وقف الى جانب الشعب وكان بطلا ، وخاض مع الزعيم العظيم احمد عرابى معركة الحرية والشرف والحياء ضد الخديو توفيق أو ضد الانجليز الذين استنجد بهم الخديو الخائن وغزوا بلادنا عام ١٨٨٢ .

كان لسانه يرطن أحيانا بلغة الاتراك ، وينطق دائما باللغة العربية شعرا ونثرا وكان البارودى قبل الثورة ينظم قصائد يحض فيها على التخلص من الظلم . ويهدد المالكين بزوال حكمهم . وكان كامل الشناوى يحفظ معظم قصائده ويرويها لنا :

يا أيها الظالم في ملكه
أغرك الملك الذي ينفد
اصنع بنا ماشئت من قسوة
فالله عدل والتلاقي غد

ويقول كامل الشناوى ان البارودى دفع ثمن ثورته وبطولته عذابا شديدا في المنفى سبعة عشر عاما . وعانى في جزيرة « سرنديب » المرض والعمى والصمم والحنين الى وطنه وأبنائه وبكى شريكة حياته التي ماتت وهو بعيد عنها :

كيف لا أندب الشباب وقد
أصبحت كهلا في محنة واغتراب

أخلق الشيب جلدتي وكساني
خلعة منه رثة الجلباب

ولوى شعر حاجبي على
عيني حتى أطل كالهداب

لا أرى الشيء حين يسنح الا
كخيــال ٠٠ كأنني في ضباب
واذا مـــــادعيت صرت كأني
أسمع الصوت من وراء حجاب
لم تدع صولة الحـــوادث مني
غـير أشلاء همــة في ثيـــاب

ومن الذين كتب عنهم كامل الشناوى كثيرا وحدثنا عنهم كثيرا ٠٠ عبد الرحمن الكواكبي الرحالة الثائر ، وقاسم أمين القاضي محرر المرأة ، ومحرر القلوب وهوالقائل: « اذا كان المال زينة الحياة ٠٠ فالحب هو الحياة بعينها » وقال « كل عشق شريف ٠٠ فان كان بين شريفين زاد في قيمتهما ورفع من قدرهما ، وان كان بين وضيعين البسهما شرفا وقتيا » ٠

وكتب كامل الشناوى وروى لنا عن أستاذ الشعراء في مصر اسماعيل صبرى باشا اول نائب عام مصرى ٠٠ وكان يشك كثيرا ولم يكن ملحدا :

تعـــالى الله لايعلـــم كنـــه انســـان
أتنكره ؟ وأنت عليه ــ لو تعلم ــ برهان

ويخاطب ربه قائلا :

خشيتك حتى قيل : أنى لم اثق
بأنك تعفو عـن كثـــير وترحم
وأملت حتى قيل : ليس بخائف
من الله أن تشوى الوجوه جهنم

وكامل الشناوى الفنان ٠ الذى يهوى الموسيقى ، ويطرب للغناء ٠ والشـــاعر الذى يكتب قصائد مغناه تفرض ايقاعهـــا عن الملحنين ٠٠ كانت لديه زخيره مـــن المعلومات والاراء حول فنان الشعب العظيم سيد درويش الذى انفعل بآلام الشعب وغنى معاناته وتغنى بترابه وامجادة ٠

وكان كامل الشناوى ينقل لنا ذكريات أحمد شوقى عن سيد درويش وكانت الصلات قد توثقت بينهما عندما لحن قصيدته القومية « بنى مصر مكانكمو فهيا » ٠

يقول كامل الشناوى : (لقد عرف سيد درويش أن لبلده عدوا مقيما ، وشعر بالنقمة على هذا العدو ٠ أراد أن يعبىء الشعور ضد العدو بالكلمة ٠٠ فوجـــد أروع الكلمات تنطلق من فم مصطفى كامل ٠٠ ثم من فم ســـعد زغلول ، اراد أن يعبر بالصوت الحلو ٠٠ فوجد أحلى الأصوات تخرج من حناجر أخرى جميلة ٠٠ فاتجـه الى تنقية موسيقاه من البطء والفضول والتكرار ، وحولها من وسيلة لتزجيه الفـــراغ والانجذاب والتطريب ٠٠ الى حافز يهز المشاعر ويلهب العواطف ٠٠ وهو يحـــدد مفهومه للالحان ، ويحاول أن يضع كتابا عن الموسيقى ، ويبدأ في تأليف الكتـــاب ، وينشر منه أربعة فصول في مجلة النيل عام ١٩٢١ ، وكان رأيه أن الموسيقى أصوات متآلفة ٠٠ تحدث أنغاما بواسطة اهتزازات تنجذب لها الأفئدة كما ينجذب الحـــديد للمغناطيس ٠٠ وكان يوقع هذه الفصول بامضاء « خادم الموسيقى سيد درويش ») ٠

ويضيف كامل الشناوى : « أكثر ما حزنني في سيد درويش أنه صنع أكثر من مئتي لحن وأوبريت ومات وهو في الثلاثين من عمره ! أما الأمر الثاني ٠ أنه بعد أن أعد نشيد بلادى بلادى استعدادا لاستقبال سعد زغلول عند عودته من الخارج يوم ١٠ سبتمبر عام ١٩٢٣ ٠ ولم يحضر الاحتفال ٠ وظهر سعد زغلول في الاحتفـــال

وغنت الجماهير النشيد • وعندما سأل سعد عن صاحب هذا اللحن •• قيل :سيد درويش •
فقال : اين هو لأحييه
وقيل لسعد زغلول : لقد مات
ومات سيد درويش فى نفس اليوم الذى وصل فيه سعد من الخارج وفى نفس اليوم الذى شهد مولد نشيده الخالد •• » •
وكامل الشناوى سمع معظم الحان سيد درويش من محمد عبد الوهاب • وكان يقول أنه أحفظ وأدق من عاصروه •• وكان ينادى بأن يتولى عبد الوهاب بنفسه تسجيل اعمال سيد درويش بصوته • ووافق عبد الوهاب ولكن بشرط • أن يكلف بـذلك رسميا من الدولة •• خشية التعرض للقضايا التى تخصص محمد البحر ابن سيد درويش فى اشهارها فى وجه كل من يتعرض لاعمال والده وتسجيلها أو اعادة توزيعها.
ولعل عشق كامل الشناوى لسيد درويش وفهمه •• هو الذى دعاه الى أن يقول لنا سرا لم يكتبه • وهو ضرورة أن يكون للفنان موقف حتى لو كان مطربا • فموقف المطرب يتحدد من اختياره للكلمات واللحن وطريقة الاداء • وكان يقول : « كل مطرب ومطربة يحتاج الى فكر وراءه ان كان بلا فكر » ولعل نجاح عبد الوهاب يعـزى الى حد ما لصداقته بشوقى • وربما كان نجاح عبد الحليم يرجع لصداقته بكامل الشناوى فقد كان يضع خبرته الأدبية وحسه الصحفى والفنى فى خدمة عبد الحليم وكان يستشيره دائما فى أعماله الفنية واختيار النصوص الادبية • وكان هذا دوره أيضا مع عبدالوهاب بعد رحيل شوقى وكذلك أم كلثوم •
غير ان كامل الشناوى لم يكن يخفى أبدا •• ان عبـد الوهاب وأم كلثـوم وعبد الحليم وغيرهم من المطربين والمطربات والملحنين والموسيقيين •• فى اشد الحاجة الى فهم أبعاد الثورة التى تزعمها سيد درويش •• وأنهم كسالى ومتقاعسون عن مواصلة حمل رسالته واستمرار ثورته •
وقد نما حب كامل الشناوى لسيد درويش زمنيا مع حب صديق عمره يوسف حلمى له ، وهو الذى طالما تحدث عنه فى مجالسه فى حياته وبعد غيابه !
لقد لعب يوسف حلمى أهم الادوار فى حياة كامل الشناوى بعد استقراره فى السيدة زينب • وكان يروى لمن تخلفوا عن معرفة صديقه ، الكثير من القيم والمواقف والمواهب التى كان يتحلى بها ••
كان كاتبا يتهافت قراء روز اليوسف اليومية على قراءة مقالاته القصيرة تحت عنوان « همسه » وكان يشارك فى تبويب الجريدة •• فكانت احدى الدعامات الكبرى فى تفوق صحافتنا • مادة واسلوبا ، واخراجا ••

وكان قصاصا أضاف الى المكتبه العربية مجموعة من القصص الصـغيرة التى اصدرها منذ ثلاثين عاما قبل وفاته • وكان أول خريجى معهد التمثيل ورأس جمعية انصار السلام التى انضم كامل الشناوى اليها فترة من حياته وكان يوسـف حلمى ينادى بالمبادىء الاشتراكية قبل قيام الثورة • ولم تشغله المهام السياسية والاجتماعية التى اضطلع بها • عن الاهتمام بفن الغناء • فعمل على انشاء جمعية اصدقاء سـيد درويش • فقد كان مؤمنا بأن هذا الفنان هو أول من استمد الهامه من الشعب •• من طبقاته الكادحة وفئاته المظلومة ، من أحداثه الكبرى • من نيلـه وريفـه • وتراثه الحضارى ، وأنه الرجل الذى نقل الاغنية من التخت الى المسرح ، ولم يجعلها احتكارا لحناجر المطربين • بل جعل الشعب كله يسمع ويغنى • كانت الاغنية فردية . فصارت جماعيـه ••

في كل هذه الاهتمامات شاركه كامل الشناوى . وكانا يتفقان ويختلفان ولكن الصداقة بينهما كانت تقوى أواصرها يوما بعد يوم .. فقد بدأت بينهما منذ الصبا . حيث كونا معا جمعية الأدب والتمثيل وكان بين أعضائها أحمد حسين المحامى ومحمود المليجى والصحفى محمد نزيه .. ومن خارج القاهرة فتحى رضوان .

وكان يوسف حلمى كما يقول كامل الشناوى « يتميز بالجدية والصلابة والرقة ولم يكن يتساهل فيما يؤمن أنه حق ، ويدافع عــــن ايمانه بالكلمـــــة الصريحة ، والابتسامة الحلوة . ويستعمل عضلاته عند الاقتضاء . فقد كان قوى البنية .شجاعا يفيض صحة وشبابا ..

وكان نموذجا للمثالية في محاماة ذلك الزمان . فهو لايقبل الترافع فى قضية الا اذا اقتنع بها مهما كانت الاغراءات المادية برغم أزماته المالية ..

****

● عن الأديبة البائسة مى زيادةالتى ولدت فيفلسطين عام ١٨٩٠ ، وعنصالونها الأدبى الشهير فى القاهرة . وعن الشخصيات التى كانت تتردد عليه وعن الـــذين وقعوا فى حبها .. كان كامل الشناوى يحدثنا . ويمتعنا . فهو قد تعلم الكثير فى مثل هذه الصالونات ، وفيها نضجت معارفه ، وصقلت مواهبه ، وتراكمت خبــــراته ، وذكرياته .

وكامل الشناوى كان حجه في الحديث عن دوراللبنانيين والشوام والفلسطينيين فى نهضة فن الطباعة والنشر والصحافة والترجمة فى مصر . وكان والد « مى » الياس زيادة مؤسس جريدة « المحروسة » التى كانت تصدر يومية أو مسائية . وكانتتهتم بالسياسة وشئون الأدب .

وقد ساهمت مى زيادة في تحرير « المحروسة » بعد أن درست آداب اللغة العربية حيث كانت ثقافتها فرنسية بحتة قبل أن تأتى الى مصر وتستقر . واشـــتهرت «مى» الأديبه التى تكتب بالعربية أيضا على صفحات المجلات الأدبيه كالهـــلال والمقتطف والزهور .

وفى المنزل الذى يشغل مكانه الان محطه البنزين بشارع عدلى . كان صالونها الادبى الاول . ثم انتقل بعد ذلك الى عمارة تواجه مبنى جريدة الاهرام القديمة حيث كان يعمل كامل الشناوى .

كان من المترددين على ندوة مى كل ثلاثاء . كثير من عشاق مى أو من عشـــاق الثقافه والعلم والادب . وكان من بينهم أمير الشعراء أحمد شوقى وشيخ العـــروبه أحمد زكى ، وشيخ القضاه عبد العزيز فهمى ، وشيخ الشعراء اسماعيل صبرى،وشيخ الصحافة داود بركات ، وشيخ المفكرين الدكتور شبلى شميل ، والاستاذ الاكبـــر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وعميد الأدب العربى طه حسين ، وشاعر النيل حافظ ابراهيم ، والشاعر الثائر ولى الدين يكن ، والاديب المحافظ مصطفى صادق الرافعى ، والكاتب الكبير انطون جميل . واستاذ الجيل أحمد لطفى السيد والاستاذ الدكتور منصور فهمى ، والكاتب الكبير عباس محمود العقاد ، وشيخ الخطاطين نجيب هواوينى والمازنى والتابعى وغيرهم كثيرون !

ومن ذكريات كامل الشناوى « المحدث » عن صالون مى .. أن شيوخ صالونها الأدبى كانوا يحسون نحوها ــ على اختلافهم ــ عاطفة حب أبوى أو عاطفة حب عذرى ؟

يمرض اسماعيل صبرى ولايستطيع رؤية مى يوم الثلاثاء . فيهدد اذا لم يشف يوم الثلاثاء .. فلن يعترف بهذا اليوم ابدا .. ولايكتفى بهذا .. بل يقول :

(واستغفر الله من لحظـــة من العمر لم تلقنى فيك حبا !)

وكانت « مى » تقول لشبلي شميل : « انني اعجب لك • كيف تكفر بالله وتؤمن بدارون » • وعندما مات رثاه حافظ ابراهيم بقوله :

جزع العلم يـــوم مت   أمن الدين صولة الكفار

أما علاقة أحمد زكي بمى • فكانت علاقة تدور حول الأبحاث اللغوية • وكـــان داود بركات يدخل ويخرج الى الصالون بغير استئذان كلما وجد لديه فرصة للراحـة من عمله بالأهرام • فلم يكن يهتم بالأدب ••

أما خليل مطران فكان يداعب مي ويغار عليها • ويوما راها تودع احد صديقاتها قبل سفرها الى حلوان • واصطنع البكاء فسألته مى عن السبب ؟

فقال : ابكي سفر صديقتك !

فقالت : ولكنها مسافرة الى مكان قريب •• الى حلوان !

فقال خليل : ما دام المكان قريبا •• فلم هذا الوداع الحار !

وعن شعورها نحو انطون جميل الاديب ، وخليل مطران الشاعر • قالت مى : « ان انطون بائع جواهر •• وخليل مطران يملك الجواهر ! »

وكان مصطفى الرافعي موظفا فى محكمة طنطا • وكان يأتي كل اسبوع لحضور صالونها الأدبي يوم الخميس • ثم يعود لزيارتها يومي الخميس والجمعة • وقد احب « مى » ، وكان يعتقد أن « مى » تحبه • وقد نظم فيها قصـــــائد مطولات ، وكتب « رسائل الأحزان » وكان رواد الصالون يسخرون منه ، ويعلقون على حركاته بصوت خافت ، وكان لا يسمعهم ، لأنه كان أصم •

وكان عبد العزيز فهمى دائما صامتا فى صالون مى • وساله خليل مطران يوما لماذا لاتتكلم ؟

فقال : اذا تكلم لطفي السيد فقد وجب أن تصغى !

فقال خليل : واذا تكلمت أنت فكلنا آذان صاغية ••

فضحك وقال : النظر هنا ، واشار الى « مى » ، خـــير من الكلام وخـــير من الاصـــغاء •

وكانت هذه هى عبارة الغـــزل الوحيده التى نطق بها عبــد العزيز فهمى فى صالون مى •

وكانت مى تسمى شوقى بالشاعر الموسيقار • وكان يجلس فى صـــالونها بجسمه فقط • اما تفكيره وشعوره فهما فى مكان آخر لايعلمه أحد •• وهو أيضـــا لايعلم المكان !!

فاذا هم شوقى بالانصراف وقف مع « مى » على انفراد يقول لها كلمة مجامله ، ويسمع منها هذه الكلمة !

وروى لنا كامل الشناوى أن مى كانت ترى فى طه حسين اديبا واستاذا وكانت صلتها به أدبية ، فهو لم يتردد على صالونها سوى مرات معدوده • وكانت صلتها بمنصور فهمى حول الفلسفة والروحانيات ، وقالت عن صلتها المتينه بنجيب هواويني: « صداقه مزمنه ! »

اما استاذ الجيل لطفى السيد • فلم يعشق « مى » ولم تعشقه « مى » • كان يحب جوها المشبع بالجمال ، والذكاء والثقافة •• جميعا ، وكانت تحب جوه المشبع بالذكاء والثقافة وحدهما !

وعن الذين أحبوا مى وربما احبتهم •• روى كامل الشناوى لنا •• أنهم ثلاثة وقفوا على قبرها والدموع تطفر من عيونهم ••

عباس العقاد قال : « كل هذا فى التراب ؟! •• آه من هذا التراب !! » ••

ومصطفى عبد الرازق قال : « شهدنا مشرق « مى » وشهدنا مغيبها ، ولم يكن طويلا عهد « مى » •• على أن مجدها الادبى كان طويلا » ••

اما ولى الدين يكن الشاعر المتمرد النابض بالالم ، والفكر والحياة ، فلم يقل شيئا فى موت « مى » • فقد مات قبل ان تموت هى بثمانية عشر عاما • وقد بكته « مى » • بكته بعينيها ، وقلبها ، وقلمها •• وكان بينهما حب جارف • ووجد مشبوب الأوار !

يقول لها فى احدى رسائله : « انك بلبل الشعر الصادح فى روض الحياة» ويقول لها وقد انقطع عن زيارتها بعد جفوة لم تدم غير بضعة أيام :

تمسين ناسيه ، وأمسى ذاكرا
عجبا اشاعرة تهاجر شاعرا ؟
فهل الملائك كالحسان هواجرا
ان الملائك لايكن هواجرا
ان كنت لا اسعى لدارك زائرا
فلكم سعى فكرى لدارك زائرا

وقال يخاطب طيفها فى المنام :

عيناك عيناها كذا كانتا
والوجه ذاك الوجه لم يبدل
اعرف لحظتها برغم النوى
فكم أصابا ذا مقلتى
يظل قلبى خافقا هكذا
كأنه ألقى فى مرجل
ان كان هذا ما دعوه الهوى
فمثل هذا الليل لاينجلى
يامهجتى يا جلدى يا صبا
ان لم امت وجدا فلا يد لى !

وفى لقاء صحفى بين كامل الشناوى والعقاد •• ساله : « لقد لمحت من خلال دواوين شعرك صورا عديدة من « مى » • واذا لم يخنى تكهنى فان اسم « هند » الذى ورد فى أكثر من مقطوعة شعرية تفيض بالغزل والشوق والحنين •• ليس الا اسما مستعارا « لمى » • وعدد حروف « هند » مثل عدد حروف « مى» اذا حسبنا شدة الياء فى اسم « مى » حرفا •• وكلا الاسمين من وزن واحد • فأحدهما يحل محل الآخر فى بيت الشعر دون ان يكسره !

وضحك العقاد ضحكته المكبوته وقال : اظن استنتاجك هذا صحيحا !

قال كامل : ولقد رأيت كل ملامح « مى » فى قصة « ساره » •• ان « مى » هى البطلة المنافسه « لساره » • لقد وصفت احداهما فقلت ان حولها نهرا يساعد على الوصول اليها •• ووصفت الاخرى فقلت ان حولها نهرا يمنع من الوصول اليها •• ان « مى » هى الأخرى ولاشك ؟!

وأبدى العقاد دهشته من استنتاجه وقال : لقد حاولت جهدى ان أكتم هذه الحقيقة عن أقرب الناس الى وكان عزمى الا أجهر بها يوما • ولكن بعد ان يصبح هوانا العفيف تاريخيا يجب أن يسجل • وأنا عندى من رسائل « مى » الى • وعندها

من رسائلي اليها . مايصلح كتابا يصور علاقتي بها ، وهي علاقه قائمه علي الحب المتبادل ..

وقال كامل : لقد ظننت ان ولي الدين يكن هو الانسان الوحيد . أو الاديب الوحيد الذي أحبته « مي » !

فقال العقاد : لا .. ليس هو الوحيد !

وقال كامل : وهل كانت تحبك كما تحبها ؟

قال : ليس من حقي أن أجيب عن هذا السؤال . ولكني عندما اقول لك انولي الدين ليس هو الوحيد الذي أحبته « مي » فانا اعرف ماذا أقول !

وعندما واجه كامل الشناوي العقاد برواية صديق زامله على مدى ثلاثين عاما . كان قد سمع منه أن العقاد لم يفز من « مي » باكثر من قبلة على جبينه . حيث كانت تخرج مع العقاد ليشاهدا الافلام السينمائية في الكنيسة . وكانت تعرض آنذاك افلاما ثقافية حتى تجتذب الشباب وتحمي المتدينين من مشاهدة الافلام الهابطة .. كان العقاد يومئذ كاتب الوفد والمحرر الأول بجريدة البلاغ . وكانت « مي » تحاول اقناعه بترك السياسة والكتابة في الادب ..

ولم يكذب العقاد رواية صديقه عن حبه « لمي » وقال : « صديقنا لم يفهم الوضع على حقيقته . فالواقع ان « مي » كانت تشفق من عنف حملاتي على الحكومة . كانت تخشى أن تجرني هذه الحملات الى السجن ، وكثيرا مارجتني في أسلوب رحيم رقيق أن اخفف من غلوائي وانا أهاجم خصومي ، حتى لايلقوا بي في غياهب السجن . وتتعرض حياتي للخطر . وكنت استغل هذه العاطفه ، في جعلها تبدأ بمصالحتي كلما وقع بيننا خصام .

حدثت بيننا جفوه ، وأصررت على الا اتصل بها ، ولكني شعرت بحنين اليها . فلم افكر في رؤيتها أو كتابة رسالة لها ، وكتبت مقالا عنيفا هاجمت فيه اسماعيل صدقي وكان رئيسا للوزراء .. وفي اليوم التالي جاءت « مي » الى جريدة البلاغ ، وقابلت المرحوم عبد القادر حمزه وقالت له : « الم نتفق مع الاستاذ العقاد على انه يحسن به في هذه الايام الاقلاع عن هذا الاسلوب العنيف .. حتى لايعرض نفسه لما لاتحمد عقباه ؟

وكانت غرفتي بجوار غرفه عبد القادر حمزه . ويفصل بيننا باب . واذا هذا الباب ينفتح ، وتطل منه « مي » وخلفها الاستاذ عبد القادر يقول : هذا هو الاستاذ العقاد فقولي له ماتريدين !

واصطنعت « مي » الهدوء . وتصنعت الابتسام ، وقالت لي : فيم هذا العنف ؟

قلت لها ، أو قلت لنفسي لا أذكر ، : وفيم هذا الجفاء ؟

وانحدرت من عين « مي » الدموع ، وحسبتها دموعي انا لادموع « مي » .. فقد كان البكاء يخنقني ! » .

وعن ظاهرة الصالونات الأدبية التي تتزعمها النساء في ذلك الزمان .. يقول كامل الشناوي :

(لم يكن « صالون » « مي » أول « صالون » أدبي لسيدة في تاريخ الأدب العربي ، فقد سبقها الى ذلك مجلس السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله عنهماوكانت عفيفة تجالس الأجلة من قريش ، ويجتمع اليها الشعراء ، وكانت احسن النساءشعرا وكانت تصفف شعرها تصفيفا جميلا ، وعرف هذا التصفيف أو التسريحة باسم « الجمة السكينية » وكان عمر بن عبد العزيز اذا وجد رجلا يصفف شعره على طريقة

ســكينة جلده وحلق شعره • كما لفتت « مى » انظار أبناء جيلها وكان كثـير من الفتيات يحاولن تقليدها فى ارسال شعرها وراء ظهرها بعناية توحي بعدم العناية !

وكانت سكينة تجمع فى منزلها امراء الغناء ، وتدعو الناس الى الاستماع وتقدم اليهم الطعام • وتجيز المغنين والشعراء • وقد كان لها ولع بالغناء ، وكانت تنقـد الالحان والاشعار ، وتشرح اسباب نقدها ، ولعلها أول من فعل ذلك • فقد كان النقاد قبلها يكتفون بقولهم : هذا اشعر خلق الله • أو ما اجمل هذا !! وما اقبح ذلك !

ولكن سكينة كانت تنقد وتبين مواضع النقد •• سمعت جرير يقول :

طرقتك صائده القلوب وليس ذا

وقت الزيارة فارجعى بســلام

فقالت له : واى ساعة أحلى من الطروق ؟ قبح الله صاحبك ، وقبح شعره !)

ومى كانت ايضا تحب الغناء ، ويقول كامل الشناوى أن طه حسين روى له •• انه كثيرا ما كان ينصرف الزائرون من صالون « مى » فاذا بها تستبقيه ولطفى السيد ومحمد حسن المرصفى •• وكانت تغنى لهم أغنية لبنانية مشـهورة « يا حنينه » وتغنى ايضا بلغات ولهجات مختلفة •

وقبل صالون مى أيضا كانت هناك صالونات أدبية أخرى للنساء مثـل صالون الاميره نازلى الارستقراطى بعابدين • وكان الحديث فيه يدور غالبا حول المسـائل السياسية وحركات الإصلاح الاجتماعي والدينى التى كانت تشغل الناس فى ذلـك الوقت • وكان سعد زغلول وقاسم أمين ومحمد عبده وحسن عبد الرازق يشاهدون بعض اجتماعاته •

وقد ظهرت مى فى مصر بعد ظهور اديبتين هما عائشة التيموريه وكانت عـلى طريقة شعراء هذا الزمان ولها ديوان مطبوع •

أما الاخرى فهى باحثه البادية ملك حفنى ناصـف كريمة القاضى الأديب حفنى ناصف ، وكانت تذيع المقالات ، وتثير المناقشات على صفحات الجرائد ، لكن عائشة وملك كانتا تتحدثان من وراء حجاب ، ولم تظهرا فى المجتمعات أو تخطبا فى حفلة •

ويقول كامل الشناوى : « لا وجه للمقارنة بينهما وبين « مى » فاختلاف الظـروف والبيئه والثقافة والدين شق الطريق أمام « مى » وسد المنافذ فى وجهى عائشة وملك •• ولم تكن مى اذن مجرد أنثى ذكية ، لكنها كانت كاتبة مفكره ، وقد خلفت من الاثار الادبية ما يكفل لها فى تاريخ الادب العربى عهدا طويلا •• »

ومن الذين تأثر بهم كامل الشناوى وروى عنهم وعن قراءاته لهم • على ابن أبى طالب فى عدله وشجاعته وحكمته وتجرده • وعمر بن الخطاب فى حزمه وبأسـه واجتهاده • وتأثر كامل الشناوى بالغزالى المتصوف والفيلسوف ، وكان نهمـا فى قراءاته للفلسفة اليونانية والمعاصرة وقد قرأ واعجب بالوجوديين وخاصـة البيركامى وسارتر وموقفهما المستنير من قضية الثورة فى الجزائر •• وكان شديد الاعجاب بمصطفى مشرفه من العلماء • ومحمود عزمى من الصحفيين • وطه حسين من الادباء ، والعقاد من النقاد والباحثين ، والشيخ مصطفى عبد الرازق من رجال الدين المجددين ••و••و

****

● لم يتأثر كامل الشناوى المفكر المصرى المتجدد باحد ،قدر تأثره بأستاذ الجيل لطفى السيد •• ولم ينعكس ذلك فيما كان يرويه عنه من ذكريات ومواقف وكلمات • وانما ظهر ذلك جليا فى كم الأحاديث الصحفية التى أجراهـا معه على مدى علاقته الطويلة به فى أول حديث معه فى مجلة روز اليوسف أوائل الثلاثينيات •

وكان كامل الشناوى يرى ان لطفى السيد ليس استاذ جيل واحد • بل كان استاذا لثلاثة أجيال فقد عاش أكثر من سبعين عاما • ورأى بعينيه بلاده وقد تحررت من الانجليز وأسرة محمد علي •

فى يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ وقع حادث دنشواى • الحادث الذى اهتزت له البلاد وارتكبت فيه بريطانيا اشنع جرائم العسف والظلم والطغيان • واشترك لطفى السيد مع زملائه المحامين فى الدفاع عن المتهمين فى القضية ، وقد كانت له طريقة خاصة فى المرافعة •

كان المحامون يترافعون فيخطبون ويصيحون ويهتفون ، أما هو فكان يتكلم كانه يكتب •• كان فى مرافعته يفكر بصوت مسموع !

كتب كامل الشناوى يصف لطفى السيد :

«هذا الرجل الشجاع • المفكر • لابد له من مجال تظهر فيه آثار حريته وشجاعته وفكره •

ان الصحافة هى هذا المجال • ولكن صحف ذلك العهد كانت تتسع للالفاظ وتضيق بالمعانى وهو رجل كله معان •

كانت تدعو الى التحرر من احتلال بريطانيا والى الولاء لسلطان تركيا • وهو رجل يريد لبلاده أن تتحرر من بريطانيا وتركيا معا •• فلينشىء صحيفة جديدة اذن • وانشأ « الجريدة » وساعده على انشائها حزب الأمة • وبدأ الاسلوب العربى الجديد يشق طريقه الى الاذهان ، ان اسلوب لطفى السيد اليوم • هو اسلوبه بالامس • اسلوب المسدس : تنطلق الكلمة كالرصاص ، والرصاصة تصيب الهدف وكان الاسلوب العربى آنذاك أشبه بالسيف يدور فى اليد ويلف ويهبط الى تحت ويصعد الى فوق •• ثم لايصيب الهدف !! » •

ذلك كان مقدمه أحد حوارات كامل الشناوى مع أستاذه واستاذ الجيل •• ثم يتابع حديثه الصحفى :

« نحن الآن فى ١٩٤٩ فى منتصف القرن العشرين فلمنض لحظات مع الرجل الذى هدم خرافات القرن الماضى ، واشترك فى بناء القرن الجديد !

دخلت عليه فى محرابه فى مكتبة داره بمصر الجديدة ، ان الذين يقابلهم فى هذا الركن هم أعز أصدقائه وأحبائه • أرسطو وأفلاطون واناتول فرانس وابو العلاء المعرى والغزالى •• وأحيانا شوقى والمتنبى !

كان متعبا ، لأول مرة أشعر بوطأة السنين تضغط قوامه • كانت الأيام من قبل تمشى فى عظامه بخطى متئده ، ولكنى أراها الآن وكأنها تثب وتعدو • عرفته دائما منتصب القامة •• ولكنه فى هذه المرة اضطر ـ لكى يسمعنى ـ الى أن يحنى هامته ويمد رقبته قليلا الى الأمام ، ويصوب أذنه نحو فمى !

كان فى دور النقاهه •• وقال لى : تحدث أنت •• فان الكلام أصبح يرهقنى ، ولولا أنى لا أحسن الشكوى ،لشكوت من زمان طويل !

قلت : ان الجيل الجديد كله فى حاجة الى حياتك والى شيخوختك •• انك المثل الحى للحرية والاضطهاد •• ولقد استطعت بحريتك أن تنقض على مضطهديك !! فطغى أسلوبك وانتشرت تعاليمك السامية ••

قال : أية تعاليم ؟ •• اننى لم أفعل شيئا ! كل ما هنالك أنى ساهمت فى الحركة التى قام بها بعض المصلحين من أبناء زمانى أمثال سعد زغلول وحسين رشدى وعبد الخالق ثروت وقاسم أمين وعلى شعراوى ومحمد عبده •• وكانت مهمتنا ـ أقصد مهمتهم ـ صعبة جدا • نحاول أن نشق للشعب طريقا فى جبل شامخ له ذروتان •• احداهما

ذروة الخديو ، والأخرى ذروة الانجليز • كنا نطالب الخديو بدستورنا ونطالب الانجليز بحريتنا •

الى أن كانت ثورة ١٩١٩ ، وفى هذه الثورة وحدها ••استطاعت الأمة أن تعبر عن ارادتها تجاهد وتصمد فى جهادها ، والفضل فى ذلك يرجع الى الانجليز •• لاتدهش • انهم الذين أوقدوا نار الثورة برعونتهم وتصرفاتهم الطائشة !! ولست أقول ذلك الآن فقط ••

فى سنة ١٩١٩ نفسها سألنى « كيرزن » قائلا : أريد أن أعرف من هو المسئول عن هذه الثورة ؟ فكان جوابى أنتم المسئولون عن ثورة المصريين • ان احتلالكم وحماقاتكم المتكررة مع الشعب كانت وقود النار ، وعود الثقاب •

قلت : ان هذا تاريخ حافل •• وأنت قد عشت ذلك التاريخ •• بل لقد صنعته فأين مذكراتك عنه ؟

فقال : مذكراتى ؟ •• لقد أحرقتها !! •

قلت : انها تاريخ بلدك •• فكيف أحرقتها ؟

قال : فى يوم من أيام سنة ١٩١٩ عندما نفى سعد زغلول ، ولا أذكر الشهر تماما، كنت جالسا مع على شعراوى فى بيته ، وكان معنا عبد العزيز فهمى ، وجاء يوسف نحاس وأخبرنا أنه علم أن الانجليز قرروا أن يلقوا القبض على أربعة من أعضاء الوفد، ويجردوهم من أموالهم ويعدموهم رميا بالرصاص • ثم قال معقبا • انه لايستبعد أن نكون نحن الثلاثة فى مقدمة هؤلاء الأربعة • ولما سمعت هذا النبأ لم أستغرب وقوعه ••فانه ليس الاحلقة من سلسلة الحماقات التى ارتكبتها بريطانيا معنا ، ولم يكن يؤلمنى أن أموت رميا بالرصاص أو شنقا ، فالموت حقيقة لابد من مواجهتها مهما طال اختباؤها فى السنين ولم يكن يهمنى حرمانى من مالى •• فليس للمال مكان بين القيم التى اعتز بها •• ولكن خشيت أن تهاجم السلطات البريطانية بيتى وتفتشه وتعثر على مذكراتى السياسية ، وقد دونت فيها جميع الحقائق وكان بعضها حلوا ، وكان بعضها مرا ، وفى المذكرات الخاصة يسجل الانسان كل صغيرة وكبيرة ، وقد كانت الصغائر التى تمس حركتنا كثيرة جدا ، كنت أسجل فى مذكراتى رأى سعد زغلول فى ثروت ورشدى وعدلى ••• ورأى ثروت وعدلى ورشدى فى سعد زغلول وهكذا •• وكانت المذكرات تتضمن أسرارا خطيرة •• اذا اطلع عليها الانجليز •• استطاعوا أن يؤذوا الحركة ايذاء شديدا •

ولهذا لم آكد أسمع النبأ الذى ألقاه يوسف نحاس ، حتى بادرت بالذهاب الى بيتى فى سيارة على شعراوى ، وكان البيت فى المطرية ،وعقب وصولى اليه ••اتجهت الى مكتبى وأخرجت كل ما فى الدولاب من الأوراق والمذكرات والوثائق •• وأمرت الخادم أن يضعها فى الحمام •• ثم أشعلت فيها النار !

ولا أكتمك أنى حزنت •• لقد أحسست أن النار تحرق أفكارى وآرائى وحقبة مهيبة من تاريخ بلدى ••

وانتظرت الى الساعة الثانية صباحا •• فلما يجىء أحد دخلت غرفة نومى ؛ وفى اليوم التالى انتظرت فلم يجىء أحد • والى اليوم •• لم يجىء أحد •• ولم أعدم رميا بالرصاص كما ترى •• وكل ما هنالك •• أن مذكراتى هى التى أعدمت أو على الأصح أحرقت ، وقد أحرقتها بنفس اليد التى كتبتها •

قلت : هذه خسارة كبيرة ولاشك ••

قال : لا أظن •

قلت :انها تاريخ •

قال : وما قيمة التاريخ ؟ لقد كان فلاسفة الهند وهم فى أوج تفكيرهم قبل

ميلاد المسيح بثلاثة آلاف سنة ·· يصنعون المعجزات ولكنهم كانوا يعجزون عن أن يؤرخوا ما يصنعونه !

ان العبره ليست بمقدمات التاريخ ·· ولكن العبره بنتائج التاريخ ·

قلت : وماذا ترون فى نتيجة تاريخنا ؟

قال : ان النتيجة عظيمة ولاشك ·· ان مانقاسيه من عذاب وشقاء واضطراب ·· يهون حتما أمام أننا أصبحنا أحرارا ، وأننا رأينا الاحتلال البريطانى وهو يتقلص من المدن ، وسيأتى اليوم الذى يزول فيه من بلدنا كلها ·

لقد كنا فى الماضى اكثر شجاعة ·· واليوم أصبحنا أكثر حرية ·

قلت :والشجاعة ؟

فقال : انها لاتزال مع الأسف نعيش فى الماضى فقط ·

فقلت : ولكن كيف وقد أصبح لنا جيش حارب فعلا وأبدى ضروبا من الشجاعة ؟

فقال : لا أقصد شجاعة الجيش ·· فهذا فخر لاجدال فيه ·· ولكنى أقصد شجاعة الرأى ·· وهذا ما لانزال فى حاجة اليه !! »

****

● وكامل الشناوى العاشق الذى عاش الحب مراحل حياته المتعاقبة ، كان فى فتوة حبه يتمثل قول الشاعر العباسى « العباسى بن الأحنف » وهو يقول لحبيبته ·

· أستغفر الله الا من محبتكم
فانهـا حسناتى يـوم ألقـاه
فـان زعمت بـأن الحب معصية
فالحب أجمل ما يعصى بـه الله

وعندما طاش حب الكهولة تمثل قول ملك آذله الحب · وهو سليمان المستعين من خلفاء بنى أمية :

عجبا ، يهاب الليث حد سنانى
وأهاب لحظ فـواتر الاجفان
حاكمت فيهن السلو الى الصبا
فقضى بسلطان عـلى سلطان

ثم يصف كامل الشناوى مصيره وهو يخاطب قلبه :

أو تـدرى بمـا جـرى ؟
أو تـدرى ؟ دمـى جـرى
جـذبتنى من الـذرى
ورمـت بـى الى الثـرى

وقد تأثر كامل الشناوى فى رأى الكثيرين من النقاد بخمسة من الشعراء القدامى: الشريف الرضى فى كبريائه وكان كامل يتحدث كثيرا عن الكبرياء فى شعره يقـول :

عـلام ياقلـب تشـكو
نقض الحبيـب عهـوده
دع الهـوان وحطـم
اغـلاله وقيـوده
يافتنتى لسـت عبـدا
ولا اطيـق العبـودة

كـــونى الجحيـــم ســـعيرا
فلـــن آكـــون وقـــوده

وكان يعجبه في أبي العلاء تشاؤمه وحيرته في قوله « هذا جناه أبي علـى .. وما جنيت على أحد » وكامل الشناوى لم يتزوج كأبي العلاء . وكان متشائما وحائـرا مثله .. وهو القائل :

لست أخشى القضاء ان قصد العـدل
ولكـــن أخـــاف ظلم القضــــاء

وقد نشر كامل الشناوى فصولا من كتابه الذى لم يتم عن أبي نواس في جـريدة الجمهورية وكانت دراسة دقيقة لظروفه النفسية وبيئته وأفكاره . وعندما سـافر لحضور مهرجان الشعر الذى عقد بالكويت .. قال له أمير الكويت « أن من يقــرأ ماكتبته عن أبي نواس يعتقد انك كنت معاصرا له » .

وبينما كامل الشناوى في أشعاره وحبه روحانيا وعذريا . كان أبو نواس حسيا لكن كامل الشناوى كان يشترك معه في حب الليل واشـــعاره كلها ليلية أو فيمـا يحتضنه الليل من حب وأسرار وجمال .

وأخذ كامل الشناوى عن ايليا ابو ماضى مذهب « اللاادرية » وتأثر بهذا المذهب في قصيدة « لست أدرى » التي غناها عبد الوهاب . وفي قصيدة اخرى يقول :

أنـــا في الظـــل أصـــطلى
لفحـــة النـــار والهجـــير
وضـــميرى يشـــدنى
لهـــوى ما لـــه مصـــير
والى أيـــن ؟ لاتســـل
فانـــا اجهـــل المصـــير

اما خامس الشعراء الذين أحبهم كامل الشناوى وتأثر بهم الى أبعد الحدود . فهو أمير الشعراء أحمد شوقى . الذى أخذ عنه كراهية الموت وكان يقول عنه :

(انه سيد الاولين والاخرين . بموسيقاه العذبة . ببيانه المشرق . بخيـاله الخصب . بنتاجه الفخم . بمسرحياته الخالدة . بجده وعبثه وغرامياته . بأسلامياته ومصريته وعروبته . وانسانيته . بمحافظته وتجديده) ..

وكامل الشناوى كان يعرف الكثير من أسرار شاعرية شوقى . كان يقـــول ان وراء الهندسة الدرامية لمسرحياته رجلا مجهولا هو الدكتور سعيد عبده . وكان يرى أن أمير الشعراء بلغ القمة في هذه المسرحيات . لأنه تقمص شخصيات أبطالها وعاش ظروفها وانفعل بها . ولذلك فان الأحداث التى لم يعشها شوقى أو ينفعل بها .. كان شعره فيها أقل صدقا واحساسا وخاصة في الحب . لأنه لم يخض في حياته تجربة واحدة حقيقية وعنيفة !

وكان كامل الشناوى يرى أن مسرحيات شوقى نجحت بقوة الشعر ، وقـــدرة الممثلين على الاداء ، ولكنها لم تنجح فنيا . وكان مع الرأى الذى كان ينادى بعـــدم التردد في اجراء أى تعديل على هذه المسرحيات لايمس جوهر العمل الفنى ، وان مثل هـــذا حدث لمسرحيات شكسبير . وحدث عندنا بالنسبة لبعض الحان سيد درويش . فان الغنية « زورونى كل سنة مرة » التى تغنيها فيروز في الاطار الذى رسمه لها الخوان

رحبانى قد بلغ من النجاح الفنى ما لم تبلغه وهى فى اطارها الذى وضعه سيد درويش فى زمانه . وهذا لا يقلل من قدرة سيد درويش . بل يرفع قدره ، ويثبت ان المعدن الفنى الأصيل ، اذا تشكل فى أى قالب لايفقد قيمته ولكن يزداد جمالا ..

ويقول كامل الشناوى : « ان شوقى كان ينقد مسرحياته بنفسه ، ويعيد النظر فيها ، وكلما شهد مسرحية أجرى عليها تعديلا ، وقد عرفته فى أخريات حياته وحضرت معه مسرحية « مصرع كليوبترا »-وكنت أحفظ أشعاره ، وفى احدى الجلسات أبديت له ملاحظة على الحوار الذى دار بين انوبيس وكليوبترا .. جو الموقف يقتضى أن يهون أنوبيس من خطر الموت ، حتى يغرى كليوبترا أن تنتحر دون خوف ، كانت تسأله ماذا سيفعل الموت بها .. وما هو الموت ؟

تقول له : وما الموت ؟

أنوبيس : ماذا أقول ؟

كليوبترا : تمثله لى كأنه قد حضر .

أنوبيس : زعمت ابنتى الموت شخصاً يحس وعظمت من أمره ما صغر .

ويستطرد فيقول :

وما هو الا انطفـاء الحيـاة

وعصفت الردى بسراج العمـر

وقلت لشوقى أن هذا ليس تهوينا من شأن الموت ، ولكنه تجسيم لرهبته .

فاطرق شوقى وقال : لو أبديت هذه الملاحظه قبل طبع المسرحية .. لحذفته منهـا ..

وقلت له : عندى اقتراح ..

فقال : ماهو ؟؟ ..

قلت : ليبقى هذا البيت على لسان كليوباترا .. ويعدل هكذا ..

وهل هو الا انطفـاء الحيـاة

وعصفت الردى بسراج العمر ..

قال شوقى : ان هذا يقتضى ان يجرى البيت على لسان كليوباترا وليس على لسان أنوبيس ، ويمكن تعديله على هذا النحو :

أليست له صورة فى العيـون

على قبح صـورته فى الفكـر

فيقول أنوبيس :

وليست له صورة فى العيـون

على قبح صـورته فى الفكـر

اذا جاء كان بغيض الوجـود

وان جىء كان حبيـب الصـور

وسجل شوقى هذه الملاحظة فى ورقة صغيرة ، وقال انه سينفذها فى الطبعة الجديدة لمصرع كليوباترا ، ولكن يظهر ان الورقة ضاعت منه ، فقد صدرت بعد وفاته عدة طبعات للمسرحية .. ولكنها خلت من التعديل الذى اقتنع به شوقى ..

وقد ظلت مصر والعالم العربى فترة طويلة فى حيرة من السؤال حول ايهما أكثر وطنية .. شوقى أم حافظ ابراهيم .. وكان رأى كامل الشناوى أكثر ميلا الى شوقى . يقول : « كلا شوقى وحافظ له كثير نحسبه له وكثير نحسبه عليه بينما حافظ قد صب لعناته على ابراهيم الهلباوى المدعى العام فى حادث دنشواى ..

هاجم شوقي القاضي المصري أحمد فتحي زغلول الذي اشـــترك في اصـــدار احكام الاعدام على المتهمين ، وعندما اقيمت له حفلة تكريم في فندق شبرد بمناسبة ترقيته الى منصب وكيل وزارة العدل ارسل أمير الشعراء الى المشرفين على الحفل بهذه الابيات :

اذا ماجـــمعتم امـــركم وهممتـــوا
بتقـــديم شيء للـــوكيل ثمـــين
خذوا حبـل مشـــنوق بغـــير جـريرة
وسروال مجلود ·· وقيــــد ســـجين
ولا تعرضوا شـعري عليـــه فحســبه
من الشـــعر ·· حكم خطـــه بيمين
ولا تقرءوه في « شـبرد » بل أقـرءوا
عـــلى مـــلا في دنشـــواي حـزين !

وبينما قال حافظ ابراهيم في اللورد كرومر :

سنطـري أياديك التي افضـــــتها
علينا ، فلسنا أمة تجحـــد اليــــدا
وكنت رحيم القلب تحمي ضعيفنـــا
وتدفع عنا حادث الدهر ان عـــــدا

قال شوقي :

نيرون لو أدركت عهـــد كرومر
لعرفت كيـف تنفـــذ الاحكـام

وفي قصيدة يودع بها كرومر يقول :

لمـا رحلت من البـلاد تشـــهدت
فكأنك الـــداء العيـــاء وبيــلا

وشوقي بعد ذلك ـ في رأي كامل الشناوي ـ كأي فنان ، بدأ بمحاكاة غيره ، وعاش فترة طويلة يستعمل الديباجة التي استعملها من سبقوه من الشعراء ، وكان يجاريهم ، فيلحق بهم ، ويسبقهم ، ويتخلف عنهم ، ثم عثر على نفسه ، فصار حرا لـه شخصية فنية فذه ، خلقت في الشعر العربي جوهرا ، وحقيقة ، وجوا ·

لم يكن مجرد شاعر ، ينسق الجملة تنسيقا موسيقيا ، ولكن كان له الهـــام ، وهذا هو الفرق بين الشعر الصحيح ، والشعر الزائف · فالشاعر الملهم يعتقد ان انفعالاته الذهنية والنفسية انما هي وحي من قوة ذات قدسيه ، وليس من حقه ان يتصرف في التعبير عن هذا الوحي ، فيضع كلمة غير الكلمة التي يجب أن يعبر بهـا عن الوحي · ولو كانت الكلمتان متشابهتين · بل يجب عليه أن يقول الكلمة ولـو كلفه ذلك من الألم ، والارهاق ؛ والعذاب ، ما يفوق طاقته » ·

وذكريات كامل الشناوي التي كان يحفظها لشوقي وايامه معه وعصره الحـافل بالشعراء والادباء والنقاد ·· حافلة بالكثير من الطرائف والنوادر والافكار ·

يصف شوقي وهو يسجل خواطره الشعرية عندما يأتيه الوحي :

« كان يخيل الى انه مجنون ، أصيب بغتة بنوبة صرع · كان يجلس بيننا ،ثم يقفز من مكانه الى مكان آخر ، ويخرج من جيب سترته علبة سجائر يكتب عليها كلمات ويعود الينا أو نلحق به ، والعرق يتصبب من جبهته ، وعيناه مغرورقتان في لمعان أشبه بالدموع ، وأنفاسه لاهثة ·

وكانت هذه الحالة تنتابه طيله معاناته في نظم احدى قصائده فاذا فرغ من تسجيل

خواطره ساعة بساعة ، ويوما بيوم ، وضع رأسه بين كفيه وأملى القصيدة كاملة على أحد المقربين اليه • ثم عاد الى مراجعة الاوراق والقصاصات التى سبق أن سجل فيها خواطر القصيدة •• فاذا أملاه عن ذاكرته لايكاد يختلف عما سجله فى بضعة أيام » •

ويقول كامل الشناوى : «رغم أن شعراء العرب بايعوه بامارة الشعر • فقد تعرض لحملات عنيفة من خصومه • وكان شوقى يقول أنه فنان ، والفنان يسعده أن يقتنع جيله بعمله • فاذا ما استمرت حملات النقد • فقد يتأثر بها ابناء الجيل ، وينصرفون عن الفنان وهو حى ، ولا يقبلون عليه الا بعد ما يموت !

ولذلك لم يكن يرد على النقاد •كان يرى أن الشاعرهو الشعر •• فهل يستطيع ان يفسر نفسه بنفسه ؟ هل يستطيع اذا سئل : ماهو ؟ أن يجيب ماهو ؟ » •

وكان كامل الشناوى مع رأى شوقى ، وكان لايرد على هجوم النقاد الا من باب السخرية والدعابه • وكان يقول « ان الشعر ، والموسيقى والرسم ، والنحت ، لاينبغى أن نسأل عن سر فتنتها •• فالجواب ليس عندها ، ولكن عندنا نحن الذين اخذتنا فتنتها وعبرنا عنها بقصيدة أو لحن أو تمثال أو لوحة » •

وفى أول جزء من كتاب عباس العقاد وابراهيم المازنى تناولا قيمة شوقى •• وهل هو شاعر خالق ، أو أنه شاعر ينسج على منوال غيره من الشعراء القدامى • فهو يستخدم النماذج السابقة ، والقوالب القديمة ، وما يظهر فى شعره من بريق ••ليس مبعثه شاعرية أصيلة • وانما مبعثه ممارسة النظم فترة طويلة من الزمن !

ويقول كامل الشناوى الذى انضم الى العقاد ومن تحلق حوله فى خصومة مدرسة « أبوللو » التى تزعمها شوقى : « ان دفاعهم وردودهم لم تتضمن اكثر من كيل السباب للعقاد والمدرسة الحديثة ، واطلاق البخور حول شوقى •• كانوا يشيدون بشوقى ويسبون العقاد • وكان العقاد يدافع عن الشعر الحديث ويسب شوقى عن علم •• وعن تعصب أيضاً ! » ،

ويضيف كامل الشناوى : ان التعصب وصل الى حد انكار مبايعة شعراءالعرب له بامارة الشعر فى المهرجان الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٢٦ • حتى بعض المعجبين بشوقى انضموا الى المتعصبين ضده لامور بعيدة عن الموضوعية ومنهم الشاعر محمد الهراوى الذى نظم ابياتا يهاجم فيها شوقى لأن لجنة المهرجان لم تدعه لالقاء قصيدة :

هو فى أعينكم
ملك •• لعله
وهى جمهورية
لاترى محله ! !
ليس منا شاعر
لم يكن أجله ! !
غير أنا معشر
ليس يرضى ذله
كيف نلقى هامنا
حيث يلقى نعله ؟!

وفى مذكرات كامل الشناوى نقرأ الكثير من الأسرار والذكريات عن ايامه مع شوقى وعوالم الشعر والشعراء التى شهدها عصره وأوانه ••

كانت مصر سوقا كبيرا لاينفض سماره •• سوقا يعرض فيه عشرات العشرات من فحول الشعراء ابداعهم الفنى • يتنافسون ، ويتعاركون • وكان بعضهم يسقط وبعضهم

يصعد .. وكان المستفيد هو الشعر .. وجمهور الشعر والمواهب الشعريه الواعـــدة مثل موهبة كامل الشناوى .. التى استفادت ووعت تجاربهم وشهدت ولادة ابداعهم .. وشربت من التبع صفاءه وجماله وفنه ..

ويذكر كامل الشـــناوى عن شـــوقى جذعه وهلعه الشديد مـــن الموت . فكان يطمئن الى الضجيج ، ويجفل من الهدوء يحب الشوارع الصاخبة ، والأنوار الصاخبة، وكان حريصا على احاطه اسمه بالضجة والصخب . ضجة المديح ، وصخب الثناء .

عندما وافت المنية حافظ ابراهيم حزن عليه وحزن على نفسه ..

ذلك أن حافظ ابراهيم رغم نديته لشوقى . ومحاولات خصوم أمير الشعراء الزج به فى حلبة الخصومة ضده . الا انه بايعه على امارة الشعر فى قصيدة مطلعها :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وقد حدث عندما مات الشيخ محمد عبده . ان وقف على قبره سبعه من الشـــعراء وتنبأ أحد الأدباء ــ آنذاك ــ بأن من وقفوا على القبر . سوف يموتون تباعا بحســب ترتيب القائهم لقصائدهم . وكان شوقى قد أرسل ثلاثة أبيات لتلقى على القبر .فكانت آخر أبيات أنشدت ، وجاء دور حافظ مع المـــوت .. فلما ســــمع شوقى بوفاته جذع . أحس أن منيته قد دنت ، وسافر الى الاسكندرية ، وتبارى الكتاب والشعراء فى رثاء حافظ ، ولم يسمع أحد شيئا عن مرثية شوقى ، فحمل عليه بعض الكتاب واتهموه بالغدر وقلة الوفاء . وقالوا انه يحسد حافظ حيا وميتا ، وقد رد عليهم برثائه لحافظ فقـــال :

ووددت لوانى أفتـــــديك من الـــــردى
والكاذبـــون المرجفـــون فـــدائى
من كـــل هـــدام ويبنى مجـــــده
بكـــرائم الأنقـــاض والأشـــلاء
ماحطمـــوك وانمـــا بك حطمـــوا
من ذا يحطم رفـــرف الجـــوزاء
انظـــر فانت كامس شـــانك شـــامخ
فى الشرق واسمك أرفع الأســـماء

كما يروى كامل الشناوى ــ أن شوقى مات فى نفس العام الذى مات فيه حافظ ابراهيم وتوفى الشعراء بحسب ترتيب القائهم قصائدهم على قبر الامام محمد عبده ، وكان أولهم حفنى ناصف وآخرهم شوقى !!

وعندما رحل أمير الشعراء ، كان كامل الشناوى مازال شابا غضا وشاعرا فحـلا ونظم قصيدة يرثى فيها أستاذه :

ملأ الحيـــــاة ترنمـــا وهديلا
وقضى .. فروعها بكا وعويلا
من أسكر الأيام حيا شـــدوه
فى الموت أسكرها آسى وذهولا
مازلت أســــخر بالنعى معللا
نفسى .. بشكى فى الذى قد قيلا
حتى رأيت بكل روض وحشة
تركته مهصور الغصـــون محيلا
ولمحت أسراب الطيـــور حزينة
خرســـاء لاشـــدوا ولاترتيـــلا

فشعرت بالجـــل يدب دبيبها
لا خاليـــا أبقت ولا ماهـــولا
واذن فقدأقوت مغاني الشعر في الـ
دنيا وبات لـــواؤه محلـــولا
واذن فقد ذهب الزمان بخير ما
جاد الزمان ٠٠ أجب فصبري عيلا
شوقي دعوتك ان تجيب فلبني
اني عهـــدتك للدعاء قبـــولا
قد روع الدنيـا رداك فعـزها
في خطبها الدامي وعز النيـلا
يايوم شوقي لم نجد لك في الزما
ن ولا لشوقي في الزمان مثيلا
روعت دنيـــا لايزال يروعهـا
أن لن ترى عنك الغداة بديلا
كم معشر كفروا بمجدك ضـلة
فأتيتهـم بالمعجـــزات دليـــلا
فأتم معجزة النهي وابعث لنـا
من شعرك العجب الغناء رسولا
ياطالما ساءلت قبلك من مضوا
كنه الحمام ٠٠ وسره المجهولا
فلتخبر الأحياء عن سر الـذي
لاقيت وارفع ستره المسـدولا
كم مرة أصغيت لى فرثيت للـ
فنان يقضي في الحياة خمـولا
يجتاحني الألم الدفـين فأرتمي
سكران مشبوب الجوى مذهولا
فاذاصحوت صحا الأسى بجوانحي
وبكيت من حزن عليك طـويلا
نم في ظلال بديع شعرك واطرح
عبء الحياة فكم أراه ثقيـــلا
تحنو عليك من النعيم سحابة
تسقي رفاتك بكـرة وأصـيلا
ياليت شعري كيف حال الشعر في الـ
أخرى وهل هو حاله في الاولى
أم أن في كنف الخلود وفيئـه
ظلا لأرباب البيـــان ظليـــلا
يلقون فيه العبء عـن أكتافهم
ويكفكفون الدمع المبـــذولا ؟!

ويوما هاجم أحد النقاد أحمد شوقي وقال « انه لو عاش في زماننا هذا لما كان له شأن » ٠٠

ورد كامل الشناوى على هذا الناقد بقوله « لا عليك اذا رأيت الموتى ينتقدون الاحياء » .

ثم كتب عن رأية فى هذا الناقد وامثاله : « بعض النقاد لهم طابع النجارين فالنجار لايطيق أن يرى مسمارا بارزا . اذا رأى مسمارا هوى عليه بالشاكوش . وهذا البعض من النقاد لاهم لهم الاضرب رؤوس البارزين بالشواكيش » .

وقد تأثر كامل الشناوى فى شعره بشوقى وغيره من الشعراء المحدثين والقدامى .. وان ظل متميزا فى اسلوبه وأفكاره وتجاربه وشاعريته .

وحينما ودعت مصر الشاعر ابراهيم ناجى فى مارس ١٩٥٣ قال النقاد : لقد انتهت المدرسة الرومانسية فى مصر . ومرت أيام فاذا بكامل الشناوى الشاعر المقتدر يجعلها تتنفس فى شعره من جديد .

ويقول كامل الشناوى فى مقدمة ديوانه « لاتكذبى » ..

« لاتحاول ان تنسب هذا الشعر الى مدرسة فنية بذاتها .كالواقعية والرومانسية والطبيعية . فهو متأثر بهذه المذاهب جميعها . ولكنه لايتقيد بمذهب واحد منها » ..

ولكن نفى كامل الشناوى عن نفسه تهمة الرومانسية هو بعينه احدى سماته الرومانسية .

نهاية السيرة

صحوة الموت



«كل ما كان لم يكن
وأنا لم أعد أنا»

فى هذه العبارة الشعرية الموجزة . لخص كامل الشناوى حياته وفلسفته . ماضيه وحاضره ومستقبله ..

كل ما كان هباء منثور . تجاربه تزداد ، وخبراته تتراكم ، وعمره يتناقص . وصحته تتدهور . وقدراته على السهر والضحك ألم وعذاب . حتى اليقظة بعد النوم لم تعد كما كانت استقبالا متهللا ليوم مشرق وأمل مضىء .

فى الاوراق التى خلفها وراءه ـ ولم ينشرها فى حياته ـ الكثير من مذكراته وفيها يروى بصدق آلامه ومتاعبه التى لم يكن يثقل على أحد بها . فجاءت تحفه فى أدب الاعتراف الساخر :

● ما أكثر الكلمات التى وعاها ذهنى وأنا صغير فبهرنى من هذه الكلمات حكمة تقول « العقل السليم فى الجسم السليم » .

وكنت أظن اننى سأظل مبهورا بها طول عمرى ، فالأذهان فى مرحلة الطفولة ،مثل الأرض ، تحتفظ بالبذور المغروسة فيها . البذرة القوية تنمو ، والبذرة الضعيفة تذوب فى الأرض . وتصبح جزءا من الأرض !

ولكن سوء حظى أغرانى بأن أناقش الحكمة القديمة ، وأدخل معها فى تجربة ، وانتهت المناقشة والتجربة بأن اقتلعت الحكمة من رأسى ، فقد اتضح لى أن سلامة جسمى تقتضينى أن أقيد عقلى فيصبح عاجزا عن ان يفكر ، أو يتخيل ، وما جدوى العقل اذا عجز عن التفكير والخيال !

ان جسمي لكي يكون سليما من المرض ، يجب أن أتبع في حياتي نظاما صارما ، فأمتنع عن الطعام الذى أحبه ، ولا أتناول من الأطعمة الا ما أطيقه كاللحم المسلوق، والخضر الخالية من الملح ، والخبز الأسمر الجاف ٠٠ الخيار فاكهه ٠٠ واللبن الزبادى حلوى !

ويجب أيضا أن اقلع عن السهر ، وأنام مبكرا ، والغى الليل من يومى ولا أعترف الا بالنهار ٠٠

وينبغى ألا ادخن سيجارة ، أو أشرب فنجان قهوة ، حتى لايرتفع ضغط الدم ،أو أتعرض لهبوط القلب !

ولقد خضت هذا النظام فترة طويلة ، فاكتسبت صحتى نضاره ، ولكن عقلي أخذ يذوى ويذبل ، وخيل لى أنى فقدته ، فكنت أدق على رأسى باصبعي ، أحاول أن أبحث عنه كما لو كان شيئا ماديا ضاع منى ٠٠

● أحد المرضى كان يشكو من المرض بصفة عامة ، وعرض نفسه على أمهر الأطباء فأثبتوا له أنه ليس مريضا ، ولكنه لم يصدق أطباءه وصدق نفسه ، وأنتقل الى العالم الآخر ٠ وجاء في تقرير وفاته أنه « مات في أحسن صحة » ٠

● ان النظام الذى وضعه لى الاطباء يحتم أن أستسلم للفراش ، يرقد جسدى فلا يتحرك ،ويرقد عقلي فلا يفكر ٠٠ ويرقد قلبي فلا ينفعل !

وهذا النظام قد يطيل عمرى ، ولكنه لن يطيل حياتي !

لقد قاطعت السجائر ، فشفى الله صدرى وحلقي من الكحه والسعال ، ولكني كنت أحس أن عقلي يسعل ورأسي تكح ٠

ان دخان السيجارة هو العصا التى تتوكا عليها خواطرى ، والأجنحة التى تحلق بها أفكارى ، وأنا لاأستطيع أن أعيش بدون خواطر أو افكار !

● ضحك الطبيب وقال لى : أن الهزال هو العلاج الوحيد لمرض السكر ، ولو استطعت أن تخفض وزنك أكثر من ذلك ٠ فسوف تبرأ من مرض السكر حتما ٠

واعترضت على رأيه بأن بدانتى ليست كارثة ، وانما هى طبيعية ، فقد خرجت الى الدنيا وأنا من الوزن الثقيل ، وعشت طفولتي وصباى وشبابى بدينا ٠ وكنت برغم بدانتى انسانا نشيطا ، اجرى دون أن ألهث وأركب البسكليت ، وألعب البلياردو ، واصعد الى الدور الرابع عشر مرات في اليوم بأنفاس هادئة ومنظمة ! ٠

وقال الطبيب : « ان تكوينك غير طبيعي ، ومهمة الطب أن يجعلك انسانا طبيعيا، لاتتعرض لأعراض أخرى أشد من مرض السكر ، فأصحاب الوزن الثقيل ٠ معرضون أكثر من غيرهم لضغط الدم ، وتصلب الشرايين ، وتضخم الكبد ، وكل أمراض القلب٠٠»

وذكر أنه قرأ في احدى المجلات العلمية ، ان بعض رجال الدين في اوربا ، يرون البدانه خطيئة يعاقب عليها الدين !

ان الانسان البدين يعد مذنبا ، وعاصيا ، لأن البدانة تنشأ من افراط فى الطعام وقد نهى الدين عن الافرط فى كل شيء !

قلت لطبيبى : ان ديننا يدعو الى ذلك أيضا ٠ فمن تعاليم الاسلام « خير الامور الوسط » و « نحن قوم لانأكل حتى نجوع ٠ واذا أكلنا لانشبع » و « جوعواتصحوا»٠

وهممت بالانصراف . فقال لى : انتظر حتى اكتب لك « الروشيته » .
وقلت له : لا حاجة لى بالروشيتة لقد عرفت دوائى .. لن آكل حتى أجوع .. واذا أكلت لن أشبع .
وقال الطبيب الفيلسوف : لو طبق مرضاى هذه الحكمة لاعتزلت مهنة الطب !
وذهبت الى البيت ووجدت فى انتظارى صينية بطاطس مدعمة باللحم وطاجنا من الارز .. ولعنت الانانية التى تجعلنى أوثر صحتى على ان يمارس طبيبى مهنته .. لعنت الأنانية والتهمت البطاطس والأرز ، حتى أستطيع أن أتردد على الطبيب اليوم التالى !
فى أخريات سنواته كان يحمل فى جيبه علبة ذهبية صغيرة وأنيقة تحتوى العديد من حبوب الادوية الملونة . يتذكرها فى بعض الأحيان فيتناولها ويتناساها عن عمد معظم الوقت ..
(ان التجارب علمتنى ان المرض مثل العمر ، سر غامض ، وقد عرفت ناسا كانوا يأكلون بنهم ولم يمرضوا ، وناسا كانوا يأكلون بحذر وظلوا طول حياتهم مرضى) .
كان المطرب محرم فؤاد فى زيارته وكان يستعد للسفر فى رحلة فنية الى الخليج ورجا كامل الشناوى أن يطلب شيئا ، فاعطاه قائمة باسماء أدوية ممنوعة لاتصرف من الصيدليات الا بموافقة الطبيب .
كان يستعين بحبوب « الريتالين » المنبهة على السهر ومواصلة السهر ، وكان يجلب بحبوب « الليبريم » المهدئة النوم لعيونه الأرقة . وقد أصبح النوم فى أيامه الاخيرة كالحب . يطلبه فلا يجىء .
كان يذكرنى دائما بخالد بن الوليد الذى تحسر على نفسه وهو على فراشه بينما لم يخل مكان فى جسده من أثر الطعان ، وكان يتمنى الموت وسط أهوال الحرب وطعنات السيوف . وكذلك كان كامل الشناوى يخشى أن يأتيه الموت وهو نائم وهو الذى قاتل الليل . ومن هنا كان ولعه بالسهر وفرحته باليقظة وانتحاره البطىء كل ليلة حتى الفجر كانما كان كامل الشناوى يتمنى الموت وهو غارق فى أمتع لذة من لذائذ حياته .. السهر وصحبة الناس .
كان يقول « أنا لا أخشى الموت ، فقد واجهت ما هو أقسى منه ، واجهت الحياة نفسها » .
ذات يوم قرر ان نسهر معه بشقته فى شارع النباتات . ولفرط عشقه الليل .. اذا به ينهض من مجلسه ويسدل الستائر على النوافذ . وعندما سألناه : لماذا والفجر يوشك أن يأتى بالضياء ؟
قال : دعونا نستبقى الليل .
كان يناجى الليل ويقول : « أيها الليل يا حبيبى اترك عناء نومى للنهار » .
وكان ينادى النوم أن يأتى « أصبح النوم كالحب . أريده ولا أقوى عليه ! »
نعم . كانت حياة كامل الشناوى كما عبر عنها فى شعره . بعضه يمزق بعضه .
شك . ضباب . حطام . وهرب دائم من مواجهة الواقع .. ورغبة مشتعلة فى الهلاك .
كان ينتحر وهو يهمل صحته . وهو يلتهم المسموح به والممنوع من الطعام .
وكان ينتحر وهو يرهق قلبه الضعيف بالحب الطائش و .. كان معظم انتحاره فى الليل . ولو كانت فى حياة كامل الشناوى معشوقة أسهمت فى القضاء عليه .. فهى ذلك الحبيب الملعون .. الليل !
فى الليل كانت حياته وكانت نهايته .

كان يعشق فى الليل سحره وغموضه • ويكره فيه غدره وظلمته •• ولـذلك عاش دائما تحت الاضواء •

سأله الدكتور الكاتب عندما كان نزيلا فى مستشفاه : « أخبرتنى الممرضات أنك تسهر كل الليل ولاتستأثر منه بساعات للنوم والراحة ؟

قال : لأن معظم الموت يأتى فى الليل !

لم يكن هذا حاله مع الليل فى شبابه أو رجولته • كانت الصحة موفـورة • والحياة هادئة الايقاع • والشهرة مقبلة عليه ، والدنيا تتألق من حوله • والمال ينساب بين يديه • والأمل فى الحب والزواج متجددا ومحتملا • وصحبة الاصدقاء كل يوم وكل ساعة وحتى الصباح ميسورة ومعظمهم عزاب بلا زوجات ولا أولاد ••

****

● لأن دوام الحال من المحال ولانه جاوز الخمسين والزمن يتغير من حـوله •• اذن فلابد مما ليس منه بد •• وقرر أن يغتال الليل • كل ليلة من لياليـه • وأن يحتمى من الموت وسط الناس بالصخب والمرح •• وأن يعيش للناس وبالناس ••

كتب يقول : « عمرى مثل ديونى • أدفعه على أقساط • فى كل سنة أسـدد اثنى عشر قسطا ! »

وهكذا كان احساسه الحاد بالزمن • ولذلك لم يقتن ساعة فى بيته • حتى « المنبه » فى غرفة نومه • كان يأذن له بالدوران ليذكره فقط بموعد هام أو مكالمـة عاطفية • وكأنه يعمل لحسابه وليس لحساب الزمن • وكان يصف عقارب الساعة بأنها طرفا متصلة ، فى كل حركة تقصف أرواحا !

وكثير من أصدقائه كانوا يعتقدون أنه متشائم النزعة • ولذلك جاء شعره حزنا وأنينا وشكوى • وكلها معان تعبر عن اليأس من الحياة ، أو اليأس من اسـتمرار الحياة على مايجب لها أن تكون • فكان يلغى حقائق الحياة التى لاترضيه • ويعتبرها غير قائمة • ولكن ماحيلته مع الموت • هل يتجاهله •• أم يهرب منه ؟

يقول عن الموت :

شبح يمر •• وما نراه
ونظل نفزع من لقـاه !
غمـر الوجـود بظلمه
وعـدت على الدنيا يداه
هو سيف جبار أبا د ا
لمين ومـا كفـاه
هو كاس سم فى النفو
س زعافها لا فى شفاه
كـل سنشربها فـلا
حذر يفيـد ولا انتباه
ياقلب قل لى ما الزما
ن وماتؤمل من رضاه
وعـلام تفـرح بالحيـاة
وأنت من صرعى الحياة
أو ليس آخـرها سـتبـ
مع عنك أصوات النعاة

وفى نثرياته الشعرية كتب يسخر من الموت • ومن جدوى التفكير فى المـــوت واسبابه :

« ما اعجب ان نموت بلامنطق ، ولكن فيمه العجب ؟
اننا لانعرف لماذا نحيا ، فعلام نصر على أن نعرف لماذا نموت ؟
ويالها من بلاهه • ان نطمئن على المريض وهو بين ايدى الاطباء ، ونخاف عليه اذا اصبح بين يدى الله ! » ••

وكيف لايهاب الموت ويخشاه وقد استفدمن دورة حياته أكثرها • ألما وعزلة• وطيشا وعشقا • واسرافا للصحة والانفعالات •• وسعيا دائما خلف سراب ••

وعندما ألمت به الوعكة الصحية فى نوفمبر عام ١٩٦٤ أدرك أنها النهاية ، عندئذ رأى الموت رأى العين • وأدرك أن شمعة حياته آخذة فى الذبول •• وأن مابقى من العمر ليس أكثر من ترقب وانتظار لحظة الانطفاء وعتمة القبر •

ومن هنا كانت سخريته من الحياة • وسباقه اللاهث مع الزمن • أكـــــون أو لاأكون ••ذلك كان سؤاله الملح مع نفسه • وقرر أن يظل حضوره الانسانى غامرا• وأن يعيش مابقى من أيامه وسط الناس • أن يسعدهم ويسعد بهم !
كان يزحم يومه بالحركة المتنوعة وبالنشاط الملون ، لم يكن يرضى ليومه أن يمضى شبيها بامسه •

كان يدرك أن أيامه معدودة ، وأن أقرانه يتساقطون تباعا كاوراق الخريف •

وبقدر معايشتى واقترابى منه خلال عشر السنوات الأخيرة من حياته • لا أتصوره متشائما كما يعتقد البعض • كان متشائما فقط حينما يخلو لنفسه • حتى شـــعره المتشائم لم يكن يكتبه الا وهو منفرد مع نفسه أو مختل بها منصرف اليها ، وعنـــدئذ تدور برأسه دوائر الشك والتمزق • ولكن كامل وسط النـــاس كان دوما فـــرحا ومرحا بالحياة •• يطرب لها وينتشى لسماع نفسه • ويزداد طربا كلما طرب الناس لحديثه وشعره وظرفه ومقالبه •• وكان يتساءل فى شعره :

صحـــوة المـــوت ماأرى
أم أرى غفـــوة الحياة ؟

ولم يشعر كامل الشناوى فى حياته بأنه يضحك للحياة • كان دائما يضحك عليها أو يسخر منها وهو الذى قال : « فمادام الموت يتعقب حياتنا • ومادمنا لانعرف من نحن • فان المجانين وحدهم هم الذين يضحكون للحياة » ••

ومن هنا كان احساسه العميق بالموت • وحيرته أمام هـــذا السر الغامض •وراء هوايته الجامحة فى مداعبة المجانين والغائبين عن الوعى بحقائق الحيـــاة • واثارته للشد والجذب بينهم وبين العقلاء •
ولم يتغير كامل الشناوى كثيرا عبر مراحل حياته • كان وهو فى الخمسين طفل المشاعر وان كبرت ثقافته وأفكاره وتجاربه •
والذين عاشوا مع كامل الشناوى طفولته وكهولته • يؤكدون ذلك • كان اذا ضحك وهو صغير فكأنه يبكى وتدمع عيناه • وكان وهو كبير اذا غمره الحزن والالم فاض بسخرية ضاحكة •
وقد عـــرف كامل الشـــناوى الموت صغيرا • ولم يجد تفسيرا ولاســـببا له عندما توفيت شقيقته الصغرى أمامه • ولم تكن قد أكملت دورتها فى الحياة بعد •

ثم أدرك بعد ذلك قسوة الموت وغدره . عندما كان يقف على شاطيء البحـــر فى بور سعيد . يرى ابن عمه الشاب يلاطم الامواج فى نشاط وقوة ثم وهو يرفع يديه الى الله والناس يطلب الحياة والنجاة .. و .. غاص فى أعماق البحر والمجهول . ثم اخرجوه ميتا أمام عينيه جثة هامدة . وأمسك بيده فوجدها لانبض فيها ولا روح .

ومن هنا كان فزعه من غدر الموت . وعندما سافر لأول مرة بالطائرة الى الكويت والى سوريا مع الرئيس جمال عبد الناصر .. كتب يرثى نفسه ويتخيل حال أصدقائه بعد وفاته ، حتى مانشيتات الصحف تخيلها وكانت مطابقة لما حدث بعد غيابه عن عالم الأحياء وحتى المكان الذى توقع أن يبدأ منه جنازته ويتلقى عزاؤه بجوار مسـجد عمر مكرم .. كان يمر عليه كل يوم فى ذهابه الى العمل وايابه الى بيته ، وكان يجزع منه ويرتجف :

« ما أشد نفورى من كل شيء عار .. انسان ، فضاء ، مكان .

الانسان العارى من الثياب ، أو الذكاء ، أو الاخلاق ، أو الثقافة .. يفزعنى !

الفضاء العارى من الهواء يخنقنى . المكان العارى من الأبنية ، أو الـزرع ، أو الماء أو الحركة يخيفنى !

كل ما هو عار أتهيبه ، الا هذه القطعة من الأرض التى تعترض طريق بيتى ..انها لاتكتسى بالزرع ، أو الماء ، أو العمارات ، أو الحركة ، ولكن تكتسى بسرادق واسـع لتستقبل به الناس وتودعهم .. وأى ناس هؤلاء الذين يلتقون بها ؟ انهم اصدقاء الموتى . يجيئون ليشيعوا جنازة ، أو يتبادلوا العزاء وتلمح على وجوههم الوجوم والكآبة .. والوفاء ! كلمات واحده يرددونها ويسمعونها .. والأرض المسكينـة لاتكاد تخلع سرادقها وتتعرى ، حتى تعود وترتدى نفس السرادق ، لتشييع جنازة جديدة !

والذين يترددون عليها اليوم ليعزوا فقيدا ، سيصبح كل منهم ذات يوم فقيـدا يعزى فيه الناس .. هنا فى هذه الأرض التى تتعرى يوما ، وتكتسى بضعة أيام !!

كلما استقبلتنى هذه الأرض وهى تتدثر بقطع القماش المرفـوعة كالحائط .. انقبضت نفسى !

لا أدرى هل أشعر بالانقباض لانى أعزى فى ميت ، أو لأنى أشعر بأن المقعـد الذى أجلس فيه لأعزى اليوم . سيجلس فيه غيرى غدا ليعزى أهلى فى موتى !

ولكن كيف نفكر فى الموت ومازلنا أحياء .. وهل نستطيع أن نفكر فيه بعد مانصبح موتى !

ان العقلاء هم الذين لايفكرون فى الموت ، وعبثا أحاول أن أكـون واحـدا من العقلاء » .

كان يخاف الموت فى كل شيء ينبيء بالخطر . يخشى الموت عندما يمشى فى الليل تحت اسلاك الترام والترولى باس . يخشى الموت فى العربة اللاهثة ، والمبنى القديم . والأسانسير المتعب .

وزملاء كامل الشناوى فى جريدة الأهرام . يذكرون خوفه الشديد ابان الحرب العالمية الثانية عند سماعه صفارة الانذار ، فكان يهرب الى دورة المياه ويغلق الباب خلفه . ويظـل فى مخبئه فترة كافية حتى بعد اطلاق صفارة الانذار . فربما كانت هناك طائرة المانية مختبئة فى السماء ولم ترصدها الكشافات . وكان يؤكد لزملائه أن أول ماتستهدفه طائرات المحور بعد المواقع العسكرية دور الصحف التى كانت بوقا للحلفاء فى هذه الحرب .

● وكان كامل الشناوى يخطىء كثيرا ولكنه كان قليل الذنوب . وكان رأيه « أن البشر كالأنبياء . والفرق بينهما أن الأنبياء معصـــومون من الخطا . أما البشر فمعصومون من الصواب » .

وعندما سأله صديقه المرحوم جليل البندارى : ما هو الخطأ الذى يتردى فيـــه الانسان وما هو الذنب ؟

قال : اذا أهملت صحتك .. فهذا خطأ .. واذا سرقت أدوية غيرك فهذا ذنب .. وأنا فى حياتى لم أسرق الادوية . ولكنى أهملت دائما صحتى .

وسأله : من هم سكان الاخرة ؟

قال : « ان الدنيا تتسع لمن يغمضون قلوبهم وعيونهم ويغلقون آذانهم وعقولهم .. ولكن الاخرة لن تتسع لهؤلاء أبدا . فما جدوى ان يبعث فى العالم الآخر ، من لـــم يحسوا مافى العالم الاول من عظمة وجمال » .

وسأل كامل الشناوى : عندما تهدى كتابا لك الى صديق يقول لك أنه لم يقرأه . فماذا تفعل ؟ وأجابه جليل البندارى : أطق ..

فقال كامل الشناوى : فما بالك بهذا الكتاب الفخم الذى ألفه الله وســـماه الدنيا ؟ . وهل يسر الله ألا يقرأه أحد بحجة انه ناسك أو زاهد أو راهب ؟ . أن من يظنون ذلك يعانون أمية فى الايمان .

ثم قال : ومن واجب الناس أن يقرءوا الحياة ويمارسوها بكل ما فيها .. عليهم أن يواجهوا فتنتها . ومن استطاع مقاومة الفتنة فهو الذى يستحق ان يبعثه الله .

وهكذا كان كامل الشناوى يرى الحياة والاخرة .. ويفهم معنى الخير والشر . لقد تجاهل حقائق الحياة التى لاترضيه من خلال نظرته الرومانسية واعتبرها غيرقائمة. ولكن الى أى مدى يملك الانسان المقيد بحدود الواقع ان يتجاهله ؟!

قد يستطيع أمام الدمامة ان يغمض عينيه . وأمام الاكاذيب ان يسد أذنية وأمام الصراع أن يدير له ظهره . وأمام الاساءات ان يتناساها . ولكن ماذا يفعل امـــام الحقائق الاخرى القاهرة .. التى تقتحم كيان الانسان وتفرض نفسها عليه . وفى داخله ..

ماذا يفعل كامل الشناوى امام الموت . وهو القائل بأن ضوء الحقيقة كضـــوء الشمس يخترق الحجب والظلمات ..

ليس صدفة أن تكون الحرية أكثر ما قدسه فى حياته ودافع عنه بكل قواه .

كان الموت هو الحقيقة الوحيدة الذى لايستطيع ان يلغيها بتجاهلها . وكانت الحرية هى الوهم الوحيد الذى لايستطيع ان يعيشه بالتمنى : لأنه لا حرية لانســـان يحب الناس الى حد الالتزام بحمل نصف أعبائهم وحده ..

وبين هذين القطبين ـ الموت والحريه ـ كانت الارض التى اصطدم فيها خيال كامل الشناوى بحقائق الوجود .

واذا كانت المواجهة صعبة ونتائجها وخيمة . فاولى به أن يهرب .. وهـــرب كامل الشناوى .. أو كان يحاول أن يهرب دائما من مواجهة الحقيقـة ازاء قضـــية الموت والوجود. وكان السهر ودوام السهر هروبا من الحقيقة بوعى وبلا وعى ..

كان يأوى الى فراشه قبيل الفجر أو قبيل الشروق . وكان يسخر قائلا : أخاف أن ترانى أول عصفورة تستيقظ فى جاردن سيتى فى عودتى الى المنزل هذه الساعة وتبلغ عنى البوليس ..

وكان أهل منزله وهما سيد وفاروق ابنا شقيقه ابو الفضل وخادمتاه سعدية

وباتمة • يستيقظون مبكرا حال عودته ليسمعوا منه عبارة « صباح الخير » وعندئذ ينام وسط الجلبة وحركة الشارع ••

لم يكن يقوى على مشاركة حياته الليلية كثير من الاصدقاء • وكانت علاقتهم به ليلا تتحول الى ادمان بعد أول سهرة معه •• وكيف لا ومجالس كامل الشناوى أنس وبهجة وشعر ومرح •• ولم لا ونجوم الفن والادب والصحافة يتحلقون حوله ، وهو الكريم الحاتمى الذى يصر على دفع الحساب كل ليلة من مال فكره وفنه ونبض قلبه •

وقد عرفت كامل الشناوى وهو فى مرحلة الكهولة وأنا على عتبات الشـــباب وظللت أعرفه وأحبه فى حياته وبعد وفاته • كنت واحدا فى طابور طويل من التلاميذ يقف أمامه ويفتح لنا الابواب المغلقة • يحمينا من العثرات ويجنبنا الاخطاء • ويزرع فى أعماقنا الارادة والخير والحب والامل •

وكنت مع كامل الشناوى • أشعر بالراحة والطمأنينة والفرح • بيئته الدينية تكاد تتشابه مع بيئتى • وكان يداعبنى قائلا « نحن أولاد مشايخ » •• وكان والـدى من تلاميذ عمه « الشيخ مأمون الشناوى العالم الجليل » • وكان أستاذه ومعلمه فى حلقات الدراسة بصحن الأزهر • وعندما تولى منصب الامام الاكبر وقع له على شهادة العالميـــة •

وكان كامل الشناوى يقول فى لهجة من الثناء والنقد معا : « فيك من شبابى صور كثيرة » •• وكنت أجيبه دائما : « وأنت صورتى الكاملة يا كامل بك » ••

وأدمنت كامل الشناوى • أدمنت جلسة الظهيرة فور يقظته من النوم وأدمنـــت لياليه الطويلة فى منتديات القاهرة ومجتمعاتها •• وكنت قريبا منه الى حد ما ، مـــن عقله وقلبه وخصوصياته ••

ولكن كامل الشناوى تعود ان ينفرط الأصدقاء من حوله •• اما بالاقلاع عـــن ادمان السهر • واما بالزواج أو ملمات الحياه !

وأذكر اننى أفضيت له بقصة حب كنت أعيشها أوائل الســـتينيات • وكان سعيدا بها • وكان يدفعنى الى مواصلة الحب كلما حدث بينى وبين حبى خلاف • ودون ان يخدش كبريائى كان يهدينى تذاكر باهظة الثمن فى الملاهى والسينمات • أويدعونى معها على العشاء فى افخم المطاعم والفنادق •

وهكذا كان موقفه دائما مع كل من يحب • متهللا بالفرح والنشوه كلما سمع عن قصة حب جديده • ولكنه سرعان مايتحول الى السخرية والتندر عندما يتحـــول ذلك المحب الى الارتباط والاستقرار مع من يحب • وكثيرا ما كان يرثى ويؤبن ذلك الحب الذى ضاع أو يوشك أن يضيع !

وعندما صارحته يوما بعزمى على خطبة فتاتى • حاول ان يثنينى بمنطقه وحجته تارة بأن الزواج مع الصحافة يقتل الحب ويكبل الانطلاق ويقيد حريتى فى الحـــركة والحياة • وتارة لاننى لم أعد نفسى لأعباء الزواج الباهظـــة • وتارة ينصحنى باطالة الخطبه • فلعل قدرى ينقذنى مثله فى آخر لحظة من مأساة التوكؤ على زوجه !

وكان يتعجب فى تأملاته الساخرة من الانسان الذى وهبه الله عقلا وقلبا يحب ما شاء له أن يحب • فى كل يوم • وفى كل لحظة •• لماذا به يكفـــر بنعمة ربه • فيغيب عقله ، ويحبس قلبه طواعيه فى أسر حب واحد ، بدعوى الاخلاص • وما هـــو بالاخلاص •• وانما حب التملك والانانيه !

نعم •• كان أشد ما يؤلم كامل الشناوى ان ينفض من حوله الأصدقاء والتلاميذ •• الى الزواج والاولاد والحياة الروتينية التى تسمى بالاستقرار •• وهـــو الذى عاش حياته يعربد فيها حركة ومرحا وحبا وتألقا بلا زوجة ولا أولاد •• وسمعته يوما

يتمنى أن يصبح مالكا لعمارة كبيرة ، ويدعو أصدقاءه وأحباءه ليسكنوا فيها معه بالمجان .

فقد كان يخشى يوما أن يصبح وحيدا بلا اصدقاء يسهرون معه . ويحتمى وسطهم من هجمة الموت . ولذلك كان فى كل يوم يستقبل فى حياته أصدقاء جددا بينما يخرج آخرون وكان يقول :

« كلما ضاع منى صديق . ابكى عليه كما لو كان قد فارق الحيـاة ، وادفنه فى قلبى وضعت اليوم يدى على صدرى ، فخيل الى أنه مقبرة تضم مئات من الأضرحة ! »

كان يعجب من أمر الحياة والناس وتقلبات الزمن . فكان يتعجب لأن الرجال خلعوا الطرابيش . وانهم أصبحوا لايجدون حرجا فى ارسال شعورهم وتلوين ملابسهم وكل ذلك كان فى فترة ما أشبه بالمقدسات . كان الطربوش رمزا للكرامة . وكانت ألوان ملابس الرجال فاتحة أو غامقة وكانت شعورهم تتدرج من الزيرو الى نمرة ثلاثة .

****

● تغير الزمن .. ولم يغير حلاقه المتواضع وكان يفرض « الاسطى » على الفيومى على أصدقائه ليحلق لهم . وكان يصفه مداعبا وهو يحلق له .. بأنه قمة فى الطيبة والبرودة والاتقان والتلامة !

وخلع كامل الشناوى الطربوش الانيق كما خلع من قبل العمامة الانيقة و «جبة» أولاد العلماء . وكانت ملابسه جميلة وغالية ومتقنة . وكان يتعامل فى أخـريات أيامه مع ترزى أخرس يدفع له خمسين جنيها فى البدلة الواحدة .. وكان أكبر أجر فى تلك الايام لايتجاوز العشرين بحال . وكان يصر على مودة زمان . والوان زمان . وكان يشترى حمالات البنطلونات من الخارج ويرفض استعمال الحزام . وكان يستعمل الحمالات المطاطة للشرابات . وعندما يأكل فى منزله كان لايستخدم الشـوكة والسكين .. ويجد متعة كبيرة فى تناول الطعام بأصابعه مباشرة ودون تؤده وتأنق لاكما يأكل أمام الناس خارج بيته !

وكلما اهتزت صحته تحت وطأة المرض والسهر والحب والحـزن زاد اسرافه واتلافه للمال فى كل ما يأتى اليه بالمرض ويطيل السهر ويصل ما انقطع وصالا وقربا وحبا ومرحا .

وبدأت كتاباته تعكس قلقه وهمومه :

« كلما نظرت الى أمسى ويومى اصابنى الفزع !! فأنا حتى هذه اللحظة أعيش على الدين .. ليس عندى ما أملكه .. حتى ملابسى .. فهى بالتقسيط ! وقد عـرفت ناسا عقلاء حسبوا لغدهم الحساب .. فلما ادركتهم الشيخوخة مثلا .. وجـدوا ما ينفقونه على أنفسهم بلا تعب !

أما أنا فلا استطيع أن احصل على ما اروى به ظمئى .. الا بعرق عقـل .. ولا استطيع ان اظفر بما يمسك رمقى .. الا اذا انهكت ما تبقى من قواى .

وفى أول كل شهر اواجه وحشا مفترسا .. هو اقساط الديون التى لاتريد أن تنتهى !

تمنيت لو كنت فلاحا املك فدانا أزرعه بنفسى . ولا اقرأ الا الخضرة والسحاب ، والشمس الساطعه ، وظلام الليل .. ولا أسمع من الموسيقى الا زقزقة العصفور .. وحفيف الأوراق .. وأصوات الحيوانات .. وأزيز الساقية ! » .

وكان يحب التدخين ، كان يدخن فى اليوم الواحد ثمانين سيجارة « كابيتوى » . وكان يكره السجائر ذات « الفلتر » لانها حائل غير طبيعى بين طعمها ومزاجه .

وقد عرف كامل الشناوى تبذير المال منذ الصغر · فوالدته كانت تدلله بقروش اضافية فوق مصروفه اليومى · فقط ليبقى في البيت بعيدا عن سخرية أولاد الجيران من بدانته ·· وكانت تطيب من خاطره بقروش أخرى حتى يشعر باعزازها له أكثر من أشقائه الرياضيين الاصحاء ·

وكان كامل الشناوى قد كتب مقالة بعنوان « الفقر الذكى والثراء الغبى » فاتهمه الاغنياء بأنه يثير عليهم الفقراء ، واتهمه الفقراء بأنه يحاول تحذيرهم بكلام لايسمن ولايغنى من جوع ، وكان موقف طه حسين من مقالته ·· أن رد عليه بكلمة لاذعة اختار لها عنوان « جنة الشوك » يقول فيها :

(قال الطالب لاستاذه الشيخ : ألم تقرأ ماكتبه الأستاذ كامل الشناوى فى جريدة الجمهورية أمس ، وأنبانا فيه بان يده لاتمسك المال الا كما تمسك الماء الغرابيل ؟
قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لو اكثر قراءة القرآن لصد عن ذلك صدودا ، ولأنفق حين يحسن الانفاق ، واقتصد حين يجب الاقتصاد ·

قال الفتى لاستاذه الشيخ : وماذاك ؟
قال الاستاذ الشيخ لتلميذه : وانت ايضا لاتقرأ القرآن · الم تسمع قول الله عز وجل : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » وقوله عز وجل قبل هذه الآية : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » ·
قال الفتى لاستاذه الشيخ : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم · لقد هممت ان اذهب مذهب الاستاذ كامل الشناوى ·
قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : اياك ان تفعل فان الله عز وجل قد وصف الذين اخلصوا قلوبهم له فقال فى بعض وصفهم « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ·· فاحرص جهدك على ان تكون من هؤلاء) ·
ثم كتب الدكتور طه حسين على هامش كلمته « هذه العبارة لاتنشر وانما تعرض على كامل الشناوى » ··

لكن كامل نشرها فى يومياته وكتب يقول :
« لقد أمسك بى الدكتور طه ورمانى فى جنة الشوك !
وكل ما قاله الدكتور طه لايخضع للجدل ، فهو من صميم القرآن الكريم الذى احفظه وأومن به ، واعترف بأنى افهم بمنطق العقل ، مدلول ماورد فى كتاب الله عن التبذير والمبذرين ·· ولكن منطق العقل يتعارض أحيانا مع منطق السلوك !
ولقد قادنى سلوكى بمنطقى الخاص الى أن أبذر فى انفاق المال ، وهو منطق يقوم على أن التبذير الذى يجعلنى من الشاطين ، ليس هو التبذير فى المال بالانفاق ، ولكن التبذير فى العمر بالحرمان من المتاع الحلال · والحرمان يقتضى التقتير فى الانفاق ، وهكذا يصبح لرصيدى الحياة ، وهو شر أنواع التبذير والتبديد !

كان هذا منطق سلوكى فى فهم التبذير ، وهو منطق يتعارض مع مطق العقل·· ان كان ذنبا فانا التلميذ الفتى لم اقع فيه وحدى ·· ولكن وقع فيه أيضا الاستاذ الشيخ !

والا فليقل لى أستاذنا وشيخنا طه حسين ماذا جمع من المال ؟ وماذا اقتنى غير البيت الذى يسكنه الآن ، وكان الى سنوات قليلة مضت يستأجر السكن وينفق عرق جبينه على الديون !

. ماذا جمع طه حسين ؟ ماذا جمع الرجل الذى ملأ الدنيا ، وشغل العالم ، وربح مئات الالوف من الجنيهات !

وليسمح الدكتور طه ان استعير اسلوبه فى « جنة الشوك » ، واختم به كلمتى على هذا النحو :

قال التلميذ الفتى لإستاذه الشيخ : أليست هذه حقيقة .. حقيقة تؤلمك ؟

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : انها لاتؤلمنى . انها تشرفنى ! »

وكامل الشناوى كان « مبذرا أمثل » رغم أنه لم يكن « ثريا أمثل » . وكــان المال فى جيبه مسافرا « ترانزيت » يأتى سريعا ويذهب سريعا . ولم يعرف فى حياته فضيلة الادخار . والجنيه الابيض أكثر فائدة اليوم والزم من اليوم الاسود . ولم يجد منفذا للمال الاولجأ اليه يقترض منه . وتراكمت ديونه لدور الصحف التى عمل بهــا وعندما ذهب الورثة الى خزانته فى بنك مصر ، وفتحوها ، لم يجدوا فيها مليما أبيض.

****

● عرف كامل الشناوى ليالى الكباريهات وهو شاب . ولكنه لم يدخل الكباريه بعد الثوره وأصبح مقلا فى شرابه .. وكان يقول أن الظروف السياسية تلعب دورها الهام فى تغيير العادات والتقاليد وملامح الحياة .. وكان يحتفظ فى ذاكرته بالعـديد من قصص الغرام التى عاشها جيله من الادباء والصحفيين والفنانين ورجالات السياسة .. فقد كان قلبه وقلوبهم مفتوحة على الحب والصفاء والصداقة الحقيقية التى تصـــمد للزوابع والخلاف ! ..

وكانت ذاكرته كأنها قائمة تضم اسماء العديد من اسماء الفنانات الشـهيرات ويعرف أسماءهن الحقيقية عندما كن غانيات أوراقصات متواضعات .

ويوما عرفت منه بعض المعلومات عن مطربة جميلة ، تقدم الوانا من الاغـــانى المتوسطة الاداء . وكانت متزوجة بضابط من البارزين بعد ٢٣ يوليو وكنت أنـــذاك محررا فى شئون الفن والأدب .. واستخدمت هذه المعلومات بعد ذلك فى تعليق عـــلى ظاهرة الافلام التى تعنى بسيرة حياة الراقصات والعوالم بمناسبة إعتزام زوج تلك المطربة انتاج فيلم لها عن قصة كفاحها الفنى . وذكرت كيــــف بدأت حياتها فى « حوش الشرقاوى » وأنها كانت مشهورة آنذاك باسم « قطقط » وذكرت اسم عمتها « العالمة » التى تبنت موهبتها وكانت معروفة باسم « دندش » ..

وغضب كامل الشناوى منى أشد الغضب والقى على درسا لاأنساه وذهـــب بنفسه يزورها فى المستشفى وهنأها بالعملية الجراحية التى اجرتها . وقدم لها هداياه من الورود والحلوى .. وطيب خاطرها وتوسط لحمايتها من بطش زوجها الباطش .

وفى مجلس له سمعت منه معلومات غاية فى الاهمية وكانت حول مايتردد عن وفاة « حياة صبرى » وكانت آخر زوجات الفنان العظيم سيد درويش . وكانت مطربة متوسطة الشهرة ، وقد لحن لها العديد من الاغانى والأوبريتات . وقال كامل الشناوى ان حياة صبرى مازالت على قيد الحياة . وأنها تزوجت بعد وفاة سيد درويش عمـــدة وانجبت منه ابنا اسمه جميل أصبح طيارا عسكريا . ومازالت تعيش بجوار مقبرته فى الامام بعد استشهاده فى حرب ١٩٤٨ .

وقررت القيام بتحقيق صحفى مثير حول حياة صبرى . واستأذنته . ووافق لان الموضوع فيه فائدة للقراء واثارة وثقافة وذكريات .. « ولكن ماذا يفيد القراء ان يعرفوا أن فلانة تزوجت عجلاتى .. وأن اسمها كان قطقط » ؟ ..

وعندما كان يواجه الخطأ من أصدقائه يقول « اغفر دائما حتى لأعدائك فليس هناك مايضايقهم أكثر من ذلك » ..

من هنا ظل كامل الشناوى صديقا لكل الفنانين على اختلافهم . وكان وهو الفنان الفريد المواهب والرقه والمرح .. يشعر وسط سهراته مع الفنانين بالصداقة الحقيقية والالفة والمرح ، وكان يقول أن ولادة فنان لاتقل فى الأهميه عن ظهور الانبياء والزعماء والمجددين . وكان يتمنى لو أنه ملحن يشهد ولادة المـــواهب والالحـــــان . وكان يتمنى لو كان ثائرا مجددا مثل جمال الدين الافغانى .. وكان دائما يردد عبـــارته التى خاطب فيها الفلاح المصرى « انى أعجب لك .. كيف تشق الأرض بفاسك . ولاتشق بهذا الفاس قلوب ظالميك » ..

ولم أعرف كامل الشناوى المقامر . ولكن سلوكه فى حياته ومع نفسه وحبه الطائش كان مقامرة كبرى .. ومما عرفته أن كامل الشناوى كان فى الماضى مقامرا كبيرا لايتوقف عن اللعب مهما كانت خسارته . ويقال انه أفلس ذات ليلة ولعب على سيارة « بنتلى » فاخرة كان قد اشتراها منذ أيام وخسرها .وعاد الى منزله على الاقدام .وانه اقترض ألف جنيه لقضاء أجازة صيف بالاسكندرية . وعاد الى القاهرة صباح اليوم التالى بعد أن خسر كل القرض على مائدة القمار .

وحال كامل الشناوى مع المال . كان حاله مع أفكاره الذكية وآرائه اللماحة المبددة فكان يتكلم أكثر مما يكتب . المهم عنده الفكرة . وليسَ صاحب الفكـــرة . المهم أن تصل الفكرة وليس أن يتبناها . وكان يلقى بأفكاره فى ســـهراته ليقتات عليهـــا غيره من الادباء والصحفيين والكتاب .

كان يقول : « يظل الانسان عاقلا الى أن ينشر كتابا » ..

وقال : « لن يصل احد الى الكمال من أبناء الجيل الجديد . ولن يقترب مـــن الكمال . الا اذا بدأ يصبح عنده شىء يعطيه للاخرين » ..

وكامل الشناوى ترك وراءه أعمالا أدبية كثيرة . منها دراسات عن عدد من الشعراء القدامى والمحدثين .. بينهم البحترى وشوقى وعبد الحميد الديب . وذكريات عن مصر ابان الحرب العالمية الثانية .. و .. وكثيرا من الأفكار والأشعار وقصة طويلة بدأهامنذ عام ١٩٥٠ ولم يكملها وهى ثروة هائلة تصلح للتحقيق والنشر تحت عنوان « أعمـــال لـــم تتـــم » ..

وهكذا كانت أعمال كامل الشناوى عناوين لحياته وشهادة سيروسلوك لمحبوباته ونافذة لبعض افكاره ومشاعره وأحلامه .. وظل أكثر انتاجه أعمالا كحياته . لحنــا عظيما ورائعا لم يتم . أما حياته التى عرفها الناس فكانت لحنا يعزفه كل يـــوم من صحته وماله وعقله وأعصابه وسخرياته .

ولأن كامل الشناوى كان محدثا لبقا يتمتع بقدرة فريدة على التعبير بصـــوته وملامحه عن آرائه وروايته للشعر . بالاضافة الى سرعة بديهته وخفـــة ظله . كـــان أصدقاؤه يتوقعون له أن يصبح ألمع نجوم التليفزيون . وأن تتسع شهرته على شاشته كمحاور بارع مع من يستضيفهم للحديث معه .

وبالفعل نجح كامل الشناوى وشد انتباه المشـــاهدين للتليفزيون وطالبوا باعادة عدة برامج كان قد سجلها . منها « عزيزى المشـــاهد » الذى كان يعده مفيد فوزى وتقدمه ليلى رستم . وحلقتين من برنامج كنت أعده بعنوان « من غـــير ميعاد » وكانت تقدمه أمانى ناشد . وللأسف الشديد الغيت شرائط هذه البرامج . ولم يبق سوى بعض التسجيلات الصوتية لكامل الشـــــناوى فى الاذاعـــة . ولدى بعض الأصدقاء ..

وكانت حياته مجموعة من المواهب ومجموعة من التناقضات . تماما كما كانت مجالسه ..

وفي مجلسه الحاشد دائما . كان هناك خليط لايجمعه ولاينسق بينه سواء . « بورجوازيون » جاءوا يستمتعون بحديثه الجذاب ، يستروحون فيه نسمات الماضي القريب . وثوريون جاءوا يعرفون منه الأحداث الوطنية المتلاطمة التي عاشها سياسيا وصحفيا . والتي لم تزعزع حبه أو ايمانه بهذا البلد ، وأدباء يجلسون حوله يروي لهم الشعر . ويحول النصوص القديمة في مسامعهم الى صور ساحرة متدفقة بالحياة . وغيها أيضا فنانون بوهيميون أو ضائعون لايجدون من يفهم نزواتهم ومن يحبهم ويغفر لهم غيره . ومجاذيب من أبناء الله يوقظون حبه الصوفي وعطفه العميق على مأساة الانسان . وكان مايبعثه من حيوية وتدفق في مجالسه كشاعر جذل وراوية عذب ومحدث على ثقافة وعلم وتجارب وذكريات .. يجعل الليل مهما طال معه قصيرا.

ومن الظواهر المشهودة في الأدب المصري ، أن الشاعر أو الأديب الذي يضحك كثيرا في حياته ، يبكي كثيرا حينما يخلو الى نفسه ، ويمسك بقلمه .

هكذا كان شاعر النيل حافظ ابراهيم .

كان من أظرف ظرفاء عصره ، وكانت له نكات مشهورة . ومع ذلك فانه عندما ترجم عن أدب الغرب اختار « البؤساء » لفيكتور هوجو .. وعندما كتب نثرا « ليالي سطيح » كانت حروفها دموعا وألما وشجنا .. وعندما نظم كان شعره عذابا وشكوى وأنينا ..

وهكذا كان الشيخ عبد العزيز البشري وعبد الحميد الديب وأحمد رامي .. ورامي اذا حدثك ملأ الكون من حوله رقة وجمالا وطربا ، واذا نظم فأغنياته لوعة وحرمان ..

وعلى غرارهم كان كامل الشناوي الذي طالما ملأ الليالي طربا وبهجة وايناسا ،كان اذا خلا الى ذاته ، التفت به الاحزان والشكوك واليأس ، وهو اذ يتلفت حوله يذهله هذا الشعور بوحدته في الحياة حتى بين ذويه وأهله :

اينقضي العمر بين أهلي
واشتكي لوعة الغريب
ويرتوي الورد من دموعي
ليصبح الشوك من نصيبي

وعندما داهمه المرض تنازعه الموت والحياة .. وعاد الى الحياة تطحنه دورة الزمان وخشيته من الله ويوم الحساب :

آه من دوره الزمان . دهتني
ورمتني في غمرة النسيان
..
..
قد تخلت عناية الله عني
وتخلت عناية الشيطان .
ضاق بي معبدي وضاقت حاني
لا صلاتي تجدي .. ولا ألحاني

هكذا كان الناس يتهافتون على مجالس كامل الشناوي .. ويسعدون وينهلون من بحر عطائه وحديثه وشعره وظرفه .. اما هو فكان حاله مع نفسه مختلفا ..

كتب يقول : « كثيرا ما أسأل نفسي : لماذا أنا شقي؟ فيمهذا الألم الصامت العميق؟ فيم هذا الحذر أن أحزن حتى لا أتألم ·· والحذر من الفرح حتى لا أحزن ·· فان الحزن في حياتي يتعقب الليل النهار ·

ما من ابتسامة ارتسمت على شفتي الا دفعت ثمنها دمعا وأنينا · وما من أمل مشرق في خاطري الا أعقبه أسى يفنيني » ·

وكان قاسيا بعض الشيء مع نفسه ومع الاخرين · خاصةبعد المرض الذى ألم به في عام ١٩٦٤ · كان يرى كل شيء حوله يتقلص · وأشياء كثيرة في داخله تخمد أو تتهاوى · وكل شيء يذهب ولا شيء يجيء ··

كان يقول « الناس جميعا يتمنون ان تطول أعمارهم · هذه هي القاعدة · وقد يشذ عنها بعض المفكرين والفلاسفة وهواة الانتحار · ولست والحمد لله واحدا من هؤلاء ومع ذلك فاني كثيرا ما أتساءل : هل طول العمر نعمة أم هو عقوبة ؟ »

وسألته احدى صديقاته : ألا يساورك الخوف من الموت ؟

وأجابها بقوله : « مادمت حيا فلن أحس بالموت حتى أخافه · واذا مت فاني سأصبح عاجزا عن الشعور بالخوف أو الشعور بالطمأنينة ·· ان الموت ليس مشكلة ، الحياة هي المشكلة ·· »

وايمان كامل الشناوى بالله كان لايعادله الا النفور من الشرك به · وكانت ذروة ايمانه تتجلى في تأكيده على حقه في مغفرة الله ·· أليس « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » كما يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام ·

وكان يقول : « اذا جاء يوم الحساب · فلن يحاسبوني قط على سيئاتي ·· لان « الحسنات يذهبن السيئات » كما يقول الله في قرآنه الكريم » ··

وعندما غاب عن الوعي عام ١٩٦٤ كتب بعد عودته الى وعيه يقول :

« أمضيت بضع ساعات في عالم اللاوعي · ذهبت الى الجنة وعشت في قصورها المشرفة على نهر الكوثر ، وكانت بها نافذة تطل على طاقة جهنم ··

ورأيت هناك عددا كبيرا من المفكرين والشعراء والفنانين ·· وكل من ساهم في تعمير الدنيا وتجميلها ··

واكتشفت ان الطريق الى الآخرة ليس فيه حساب ، ولا عذاب ، ولا حواجز جمركية ، ولاجوازات سفر ·· » ·

ثم كتب وهو يستشرف النهاية :

« أنا لا أخشى آخرتي ، لأنني أتصورها أكثر جمالا وفنا وخيرا وحقا من الدنيا ·

لقد كنت في شبابي أتهيب لقاء الله ، لأنه لم يكن عندى من مؤهلات اللقاء مايشجعني على أن القاه · كان ايماني شعورا فقط ، وقد أصبحت بحمد الله جديرا بأن ألقى ربي في كل لحظة ·· فأنا أومن به بفهم وأفهمه بايمان ·

أنا ابن هذه الدنيا التي خلقها الله · ولم اغمض عنها عيني ، لأني أدركت عظمة هذا العمل الفني الالهي ·· فاذا اختارني لآخرته · فسأكون جديرا بهذه الآخرة ، بعد أن دخلت تجربة الدنيا ·· ويالها من تجربة ! » ·

وعندما امتحن نفسه ذات يوم · أعطى لنفسه هذه الدرجات من عشرة :

(الشجاعة ٦ ، الكذب ١ ، الشقاوة ٦ ، الصدق ٨ ، الخجل ٩ ، الغضب ٢ ، الغيرة ٧ ، الاناقة ١ ، الشكل صفر ، الحب ١٠ ، الذكاء : بعض منه ، الاطلاع : نصفه بحكم الحياة) ··

وتقترب ساعة الوداع ..

كان أصدقاؤه يحتفلون بعيد ميلاده كعادتهم السنوية في منزل محمد حسنين هيكل . وكان كامل ينتظر هذا الحفل ويتألق فيه ويبدع . وأدار الاصدقاء جهاز التسجيل بأغنية لصباح تهنىء فيها كامل الشناوى بعيد ميلاده . « سنة حلوة يا حبيبى » وأطفأوا الشموع ثم أضاءوا النور . فاذا بكامل يبكى ..

كان يدرك ان هذه السنة لن تكون حلوة .. ولذلك بكى .

ويقترب موعد حفل عيد ميلاده الخامس والخمسين أو السابع والخمسين بحسب يوم مولده عام ١٩١٠ أو عام ١٩٠٨ وهو الاكثر دقة وصحة ! ..

ويعود بعض أصدقائه من الخارج خصيصا ليشهدوا الحفل معه . ولكنه خدعهم ودخل المستشفى .

وعندما قالت له الممرضه : سيتم شفاؤك هذا الأسبوع .

اشار باصبعه : أبدا .

وقالت له نهلة القدسى (زوجة محمد عبد الوهاب) :

ـ عندى لك سهرة لطيفة بعد ماتخرج .

قال : لا .. هذه المرة سيطول الرقاد .

كان كامل الشناوى كأبطال المآسى يناضل فى معركة خاسرة . كان يزداد احساسه كل يوم بأن العالم الفكرى والنفسى الذى نسجه لنفسه انما صنع من خيوط وهمية . وكان هذا الاحساس يملؤه بالمرارة ؛ لاعلى نفسه . ولكن على العالم الذى يرفض أن يكون جميلا .

وفى مرضه الاخير . لم تكن تشغله على الاطلاق صحته . كانت المحنة الفكرية قد بلغت قمتها . وكان قد يئس من ارغام العالم على أن يكون كما رسمه .. ولم يبق الا أن ينسحب منه ..

عندئذ فقط لم يعد يريد ان يعيش ..

خذل أطباءه . وخذل تلاميذه . وخذل الدنيا التى خذلته . فأدار ظهره . ومضى كأنما يقول لها « كونى كما تبغين .. لا أريد البقاء » ..

لقد كان كامل الشناوى طيفا ضخم الحجم.لكن هذه الضخامة لم تحمه من أن يمر بهذه الدنيا . وبكل مافيها مرا سريعا كالنسيم . فلاتكاد تحدد مكانه من التاريخ المعاصر :

هل كان صحفيا ؟ هل كان أديبا ؟ هل كان شاعرا ؟ هل كان فنانا ؟ هل كان مفكرا ؟ هل كان فيلسوفا ؟ هل كان مؤرخا ؟ هل كان محدثا ؟ هل كان ظريفا ؟.

لقد كان كامل الشناوى كل ذلك فى ذلك كله !

يرحمه الله . ويرحم زمانه !

رقم الايداع ٨٠/٢٠٤٠

الترقيم الدولى ٣ ـ ١٤١ ـ ٣٢١ ـ ٩٧٧ ISBN

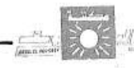



تليجرام
غواص في بحر الكتب

● المؤلف ●

● يوسف الشريف .. الزميل بروز اليوسف، ليس غريبا عن كامل الشناوى .. فقد كان واحدا من أخلص تلاميذه المقربين اليه .. والقريبين من حياته العامة والخاصة .. من فكره وقلبه .. عاش معه أفراحه وعذاباته، فاستطاع ـ خلال السنوات العشر الأخيرة من عمر الشاعر الراحل .. أن يسجل، بقلمه، كثيرا من اشعاره ونوادره وسخرياته وضحكاته التى اشتهر بها في مجالسه وسهراته !

من هنا كانت قيمة هذا الكتاب .. ففى جهد دؤوب، سعى الى جمع شتات أدب نابع من اتصاله بالناس والمجتمع والحياة. فتأثر بهم قبل أن يؤثر فيهم .. وكان علامة مميزة ـ فى هذه الفترة ـ مما أثرى قيمة الكتاب لما فيه من قيم فنية وألوان زاخرة حفلت بكل ما خلفه وراءه من أدب مكتوب .. من خلال متابعة زمنية عميقة ومتدفقة .. لمراحل حياة كامل الشناوى في عوالم الطفولة والصبا والشباب والكهولة .. سواء في منتديات الصحافة والآداب والفن والسياسة، أو فى أجواء المحدثين والعشاق وظرفاء ذلك الزمان !



الثمن ٥٠ قرشا